

**من اتجاهات التعبير عن الذات
في شعر القرن الرابع الهجري**

دكتور

إبراهيم سعد قنديل

كلية التربية جامعة المنصورة

1. *Hydrophilus fuscus* (Forsk.)

2. *Hydrophilus fuscus* (Forsk.)

3. *Hydrophilus fuscus* (Forsk.)

4. *Hydrophilus fuscus* (Forsk.)

5. *Hydrophilus fuscus* (Forsk.)

مقدمة :

قبل الخوض في الحديث عن شعر التعبير عن الذات يجب أن نقف على مفهوم الشعر ، ونظرة النقاد له قديما ، وحديثا ، وعلى أنواعه أو تقسيمات هوـلا . النقاد له ، وعلاقته بالذاتية والموضوعية .

ومن المعروف أن النقاد قد اختلفوا - فيما بينهم - حول نظرتهم للشعر ، وحقيقته ، وتفاوتت آراؤهم نتيجة لعوامل كثيرة ، وظروف متباينة كان لهذه الظروف ، وتلك العوامل أثرها الواضح في آراء هوـلا . النقاد قديما ، وحديثا .

يقول د . عز الدين إسماعيل : " ما يزال النقاد منذ عرف النقـد يتعرضون لوضع التعريفات المختلفة للفن عامة ، وللشعر خاصة ، وطبيعي أن هذه التعريفات كانت تختلف أو تتفاوت في مدى صحة فهمها للفن الشعري ، باختلاف النقاد ، وتفاوت أمزجتهم ، وثقافتهم ، وعقلياتهم وظروفهم العامة ، وقد أشار إلى ذلك سر " مونسـوراً " M. Bourre في كتابه " تراث الرمزية " *The heritage of Symbolism* فقال : " لم يجد أحد حتى أرسطو - تعريفا كافيا للشعر ، ونحن جميعا نعـرف ماذا يكون الشعر ، ولكن سرعان ما تجد أن فكرتنا عنه لا يشاركنا معاصروننا إياها ، فضلا عن كبار النقاد في الماضي ، فكل تعريف يبدو في الوقت نفسه واسعا جدا ، وضيقا جدا ، والحقيقة أن نظرية الشعر ، ومزاوئله تختلفان من عصر إلى عصر ، فهو يعيش بالتعبير ، وهو دائم التجدد بما يدخل فيه من مستويات جديدة ، وفي جديد ، وما كان كافيا لفترة مـمن الفترات لا يمكن أن يكفي أخرى " (١)

(١) الأسس الجمالية في النقد العربي د . عز الدين إسماعيل - دار الفكر العربي - الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٤ م - ص ٣٤٦ .

ولا شك أن جوهر الشعر وحقيقته مصدرهما الشاعر والأحاسيس والمفاعر والأحاسيس إنسانية عامة ، ليست وثقا على بيئة معينة أو حقبة زمنية محددة ومازلنا نقرأ أشعار القدماء فنهتزل لها ، ونستجيب مشاعرنا وإحساساتنا لأشعار هؤلاء الشعراء وإحساساتهم ، فنحس بما أحسوا به حين أبدعوا أشعارهم هذه ، يستوى في ذلك العربي منهم ، وغير العربي .

يقول أحمد أمين * وأكثر الشعر لانسجه شعرا مالم يحرك شعورنا ويولد فيها كثيرا من الانفعال كالذي تولده الأغانى ، وتكون المنزلة الأولى فيه للشعور لا للعقل . * (١)

وتتفق آراء معظم النقاد على أن الشعر إلهام ، ونفثات روحية بعيدة عن التفكير العقلى ، والمنطق ، إلهام يهبر به الشعراء عن أحاسيسهم ، وشاعرهم ، وما تخلق به صدورهم من خلجات ترتبط ارتباطا كاملا بما طغى الشاعر ، ووجدانه ، فالشعراء لا يهبرون عن الواقع بأجاسه الحقيقية ، وإنما يهبرون عن واقعهم النفسى ، وما تخلق به نفوسهم من مشاعر وأحاسيس ، وما يؤيدان الشعر إلهام ما جاء على لسان أرسطو وهو يتحدث عن الشعراء حين يقول : " لقد أردت أن الشعراء لا يكتبون الشعر لأنهم حكماء ، بل لأن لديهم طبيعة أو موهبة قادرة على أن تبعث فيهم حماسة " ثم يقول : " إذن فالشعراء - من هذه الناحية - لا يختطفون عن الأنبياء ، والكهنة الذين ينطقون بالكلام الحسن ، دون أن يعرفوا ماذا يقولون " (٢)

(١) النقد الأدبى أحمد أمين - مكتبة النهضة المصرية - الطبعة الخامسة سنة ١٩٨٣م ص ٥٧ .

(٢) قواعد النقد الأدبى - أبروكرومى - ترجمة محمد عوض محمد لجنحة الطاليف والترجمة والنشر - القاهرة سنة ١٩٤٤م ص ١ و ٢ .

واستناداً إلى رؤية أرسطو هذه يقول أحمد أمين : "إن الشعر يخاطب
المواطف مباشرة وذلك لما عند الشاعر من قوة إلهام لا تكتسب بتعلم
وللشاعر نوع خاص من لطف النظر ، أو الإلهام أو اللقطة ما وما عشت
قسمه ، ولهذا كان اليونان يسمون الشاعر خالفاً ، وكان للعبريين كلمة
واحدة تدل على الشاعر ، والتين معاً - ولعل هذا هو الذي جعل
شعرا العرب يعتقدون أن لكل شاعر شيطاناً ينفث فيه الشعر ، ويقول
أحدهم " شيطانه أنشئ ، وشيطاني ذكر " ولأمر ما خلط العرب بين التيس
والشاعر ، فسما التيس شاعراً أحياناً ، وكاهناً أحياناً (١)

ويقول " تشارلتن " متحدثاً عن الفرق بين التعبير العلني والتعبير
الأدبي : " وإذا فالقياس الذي نقف عليه الأدب هو قوة التعبير ، فكلمة
فازت العبارة بمعانيها ، وشاعرها وعواطفها ، التي قصد الكاتب أن
يسوقها فيها كآلة أدنى إلى الأدب الحن الضمير على منطقتي الألفاظ
من العبارة أن تؤدي معنى عقلي خالصاً يمكن للرموز الجافة أن تؤديه
بل لا بد للألفاظ أن تدل على جانب معانيها العقلية محضاً من المواطف
الإنسانية ، والصورة الذهنية ، والمشاعر الحية ، التي تجمعت حول تلك
المعاني العقلية على مر الدهور بفعل ما مرت به الإنسانية من تجارب
" فائتان واثنان تساوي أربعة " عبارة تؤدي معناها على أتم وأرقى
ما يراد لها ، لكأنك لا تسلكها في الأدب الرفيع بسبب أداؤها المعنى أداً
تماماً وأتمها ، لأن معناها عقلي خالص يخلو من المواطف والمشاعر الإنسانية
ومن الممكن أن نستغنى في أداها المعنى عن الألفاظ جملة ، وتستبدل بها

(١) النقد الأدبي - أحمد أمين ص ٦٢ و ٦٣ .

روزا. دونان بنفس المعنى شيء*، كان نسوقه في أرقام كهذه $2 + 2 = 4$ ^(١)

والانفعال - بطبيعة الحال - يرتبط بمواقف الإنسان لا بأفكاره وما
تجيش به نفسه ويختلج به صدره ، لا بما يدور في عقله ، وذهنه ، أو هو كما
يعرفه "برجسون" : " هزة عاطفية في النفس وحده أن الانفعال نوعان :
انفعال سطحي ، وانفعال عميق ، فالأول هو العاطفة التي تلي فكرة أو صورة
متمثلة ، فتكون - الحالة الانفعالية ناتجة عن حالة عقلية ، وهنا يبدو
بوضوح أن الحالة الانفعالية تكون مكثفة بذاتها ، لا تتأثر بالانفعال الناتج
عنها ، ولذا - تأثرت نيرانها تخسراً أكثر ما تتيح لأنها تعطل وتتشتت
بدلاً من أن تنمو ، وتتفرع ، أما الانفعال العميق فلا ينجم عن تصور
بل يكون هو نفسه سبباً لبلوغ عدة تصورات ، ولذلك يمكن وصف الانفعال
السطحي بأنه انفعال " تحت ظلي " والانفعال العميق بأنه " فوق ظلي " ^(٢)
وهذا الأخير هو وحده جوهر الإبداع في العلم أو الفن ، أو في الحياة
الاجتماعية " ^(٣) .

وقد قسم النقاد الشعر قسمين : شعراتي ، وشعر موضوعي ، يقول
الأستاذ أحمد أمين : وقسمه بعضهم إلى قسمين : قسم يتحدث فيه الشاعر
عن نفسه ، ووجدانه ، ونزواته ونحو ذلك ، وقسم يتحدث فيه الشاعر عن
الموضوعات الخارجية . ثم يقول : " والشعر الذاتى هو ما يسمى بشئى من

(١) فنون الأدب لتشارلتن هيريت ترجمة د . زكى نجيب محمود - لجنة التأليف
والترجمة والنشر - الطبعة الثانية سنة ١٩٥٩م ص ١٦ .

(٢) الأسس النفسية للإبداع في الشعر خاصة د . مصطفى سوسيف ،
دار المعارف - الطبعة الثالثة ص ٢٠٩ .

التساهل : الشعر الغنائي (١) * لا أن الشعر الغنائي لم يكن مزدهرا عند اليونان لذا لم يدخله أرسطو ضمن أنواع الشعر اليوناني فالشعر عند أرسطو ثلاثة أنواع هي : " شعر الملاحم ، والبأساء ، والملهاة " (٢) وأرسطو كان يتحدث عن الشعر في واقعه .

والذي يهمنا في بحثنا هذا هو الشعر الغنائي ، إذ أن البحث يدور حول الذاتية في شعر القرن الرابع الهجري .

يحاول " فنسن " تعريف الشعر الغنائي فيقول : " إننا لو أردنا أن نعرف الشعر الغنائي تعريفاً سهلاً الفهم وجامعاً ، بحيث لا يخرج من هذا النوع ما ينبغي أن يدخل فيه نقول - إننا لو أردنا ذلك نستطيع أن نعرفه كالآتي : " هو التعبير عن الإحساس الشخصي على شرط أن يفهم من هاتين الكلمتين - إحساس شخص - أوسع معانيهما فلا بد إذن أن يقتصر هذا الاصطلاح على كل أنواع الإحساسات منذ أكثرها هدوءاً إلى أشدها عنفاً (٣)

وهو " فنسن " مفهوم الشعر الغنائي فلا يجعله مقصوراً على نفس الشاعر بل يرى أن له مفهوماً أوسع من ذلك وأعمق ، فهو إنساني قبل أن يكون شخصياً يقول " فنسن " يمكن أن يقال إن نظرية لامارتين " و " موسيه " بالنسبة للشعر الغنائي إن لم تكن خاطئة فهي على الأقل ناقصة " لقد اتخذ

(١) النقد الأدبي لأحمد أمين ص ٦٩ و ٧٠ .

(٢) فن الشعر لأرسطو - ترجمة عبدالرحمن بدوي - مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٣م - حاشية ص ٣ .

(٣) نظرية الأنواع الأدبية - تأليف " فنسن " ترجمة د . حسن عون - منشأة المعارف بالاسكندرية سنة ١٩٧٨م ص ١٣٤ - ١٣٥ .

"لامارتين" و "موسيه" والروما نظيفون أنفسهم موضحون لشعرهم بوصفها لنا صورههم ، والامهم ، وقد استتج الناس من ذلك أحيانا أن الشعر الغنائى شعر شخص ، بمعنى أنه اعترف أو إقضا بما يخالج النفس من نظم شعري ، ومثل هذا التعريف يعتبر غير جامع ، إذ أنه يستبعد من نوع الشعر الغنائى مجموعة عظيمة من الآثار الأدبية كانت دائما تعتبر بحقوق داخلية فيه ، فالشعراء الغنائيون من اليونانيين على وجه الخصوص لم يتغنوا بإحساساتهم الشخصية فحسب ، بل بإحساسات المجتمع الذى كان يعتبرهم ألسنة الناطقة ، فالشاعر "باندار" لا يتحدث عن نفسه إلا لئلا ، وإنه يعتبر بعفة خاصة المعبى عن إحساس المجتمع" (١)

ويقول الأستاذ / أحمد أمين : " وعلى الرغم من أن أساس الشعر الذاتى هو الشخصية فإنه يجب أن نتذكر أن أغلب الأفعار الذاتية العالمية العظيمة تدوين بكتابتها من الأدب إلى حقيقة أنها تتضمن ما هو إنسانى أكثر من شخصيته ، وفرديته ، حتى ليجد كل قارئ لها تعبيراً عن التجارب والمواقف التى يستطيع أن يشارك فيها ، وفى هذه الحالة لا نحتاج أن نضع أنفسنا مكان الشاعر فالشاعر قد أراحنا بوضع نفسه مكاننا والدراسات التى عنت بالأدب من جميع عصوره دللتنا على أن الشعر الذاتى بدأ بالرغبة فى التعبير عن المواقف القلبية ، أو الجماعة الفردية ، فالشعر الجاهلى فيه "أنا" و "نحن" أكثر من أنا ، والشعر المعبرى كان من هذا النوع" (٢)

(١) المرجع السابق - نظمة الأنواع الأدبية - ص ١٣٢ - ١٣٣ .

(٢) النقد الأدبى - أحمد أمين - ص ٧٠ .

إذن فالذاتية - عامة - لا تعنى اهتمام الشاعر على تجاربه الشخصية أو على ما يقع له من أحداث في الحياة فحسب ، فهو لا يعبر عن إحساساته ومشاعره بعيداً عن إحساسات الناس ومشاعرهم بل إن الذاتية تعنى - إلى جانب تعبير الشاعر عن إحساساته ومشاعره - أن يكون صاحب حسن مرقف يستطوع من خلاله الفرج إلى أعماق النفس البشرية ، فيسجل أحاسيسها ومشاعرها ، وكأنه صدى لأنفس الناس جميعاً من حوله ، يزداد ما يجول في نفس خواطرهم ، وما تخفق به قلوبهم ، وما لا يستطيعون هم أنفسهم أن يعبروا عنه .

يقول د . عبد القادر القط حول هذا المعنى : " وليس المراد بالذاتية أن يقتصر الشاعر على التعبير عن ذاته ، وعواطفه ، وتجاربه الخاصة وحدها - وإن كان ذلك من أهم مظاهر الذاتية - بل أن يكون للشاعر كيان مستقل ونظرة متميزة للحياة والناس ووجدان يقظ يرصد المجتمع ، والطبيعة ، والنفس الإنسانية . (١)

من هنا يتضح أن الذاتية في الشعر الغنائي يمكن أن تكون في حد ذاتها الشاعر عن نفسه عن عواطفه ، ومشاعره ، وإحساساته ، عن نزواته وميوله ويظهر ذلك جلياً حين " يحثف الشاعر على نفسه يحللها - كما يصرى أستاذنا د . هدارة " (٢) .

(١) الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر د . عبد القادر القط دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت سنة ١٩٧٨ ص ٢٧ .

(٢) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري د . محمد مصطفى هدارة ، دار المعافى سنة ١٩٦٣ م ص ١٧٤ .

ويمكن أن تكون الذاتية أيضا في حديث الشاعر عن مجتمعه ، لأن حديث الشاعر عن مجتمعه لا ينفي ذاته طالما أنه يتحدث عن رويته الخاصة لمجتمعه أي أن يصور المجتمع من خلال ذاته .

إما إذا تحدث الشاعر الفناني عن غيره أكثر مما يتحدث عن نفسه فهنا يكون شعره " غيبيا " أكثر منه ذاتيا " أو بمعنى أصح " غيبيا " فقط وهذا ما حدا ببعض المستشرقين إلى اتهام الشعر العربي " بالفورية " ونفسي الذاتية عنه .

المشكلة إذن تكمن في طريقة التعبير ، فالشاعر الفناني حين يمدح يمكن أن يكون ذاتيا لو تحدث عن مشاعره التي يحسها إزاء المدح ، ويكون بعيدا عن الذاتية لو وصف المدح وصفا مجردا بعيدا عن إحساساته ومشاعره ، وشمل ذلك يقال في الغزل ، فالشاعر إذا شغل في غزله بإبراز مشاعره تجاه محبوبته كان ذاتيا في غزله هذا ، إما إذا شغل بوصف محبوبته وصفا مجردا بعيدا عن إحساساته نحوها كان شعره شعرا غيبيا " لأنه شغل بغيره ولم تشغله ذاته (مشاعرها ، وإحساساتها) ، وأستاذنا الدكتور / هدارة يرى أن الشاعر القديم كان " قلما يلتفت إلى نفسه ، ووصف مشاعره ، في صراحة ووضوح ويجسوغ إحساساته في حرارة ، وصدق . كان الشاعر حين يتغزل بوصف محبوبته وصفا مجردا ، أو يطلعنا على جانب تقريبي من حبه ، ولكنه لم يكن يتبع تأثير هذا الحب في نفسه ، أو يتعمق في خباياه ، وارتباطه بكميانه وكذلك كان شأن الشاعر القديم بالنسبة لمظاهر الطبيعة ، كان يصفها وصفا مجردا لا تظهر فيه ذاته ولا تتحسب شجوداته ومشاعره . (1)

(1) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص ١٧٤ .

إذن فالشعر الذاتى شعر غنائى ، وإن كان الشعر الغنائى ليس ذاتيا
فى مجمله على كثر ما يرى بعض المحدثين الغربيين ، فالشعر الغنائى
عندهم - على حد تعبير " فوسن " : " نبعث من الإحساسات الشخصية
موضوعه شخص ، حيث يعف الشاعر حالاته النفسية ، أو بمعنى آخر ما يعبر
عنه بصيغ التكلم " أنا " ميدانه الأحلام ، والآلام ، والسور ، ويوقف الشاعر
هنا سلبى ، بمعنى أن الأحداث تؤثر فيه ، وليس هو المثير فى الأحداث
وكما يقول " مالبرانكش " *Malbranche* " إنه متأثر " ^(١) وهذا التعريف
لا ينطبق على الشعر الغنائى كله ، بل ينطبق على الذاتى منه خاصة .

فالذاتية فى الأدب تعنى - أول ما تعنى - " العكوف على النفس
وتحليلها " كما يرى استاذنا الدكتور / محمد مصطفى هدار " ^(٢)

ولما كانت الأنفس مختلفة كما أراد الله لها أن تكون فلا بد أن يكون
لكل شاعر خصائص تميز شعره عن شعر غيره ، وتفرده عن سواه ، من هنا
يكون لشعر كل شاعر مذاقه الخاص مادام صاحبه قد أضفى عليه من سمات
شخصيته الخاصة ما يجعله متفردا ، متميزا عن شعر غيره ، ظاهرة من
خلاله إحساسات الشاعر ، ومشاعره ، ووجدانه .

يقول د . محمد زكى المشاوى : الأثر النفسى إما كان نوعه ليس نتججة
تشبها التجربة العلمية ، وإنما هو نتججة ما فى الفنان من تباين وفردية بـ
أن قيمة الأثر النفسى لترتفع وتسمو كلما كان هذا التباين ، وتلك الفردية
مظهرين واضحين فى الإنتاج النفسى ، وهذه الفردية أو الذاتية التى تتميز

(١) نظرية الأنواع الأدبية ص ٣٢ .

(٢) اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى ص ١٧٤ .

الفن من العلم عند النقاد ، وعلما الجمال ، هي العنصر الأساسي الذي يجعل الفن عند خلقه يشتمل بصفة الاسالة التي هي مجموعة الخصائص الفردية المتميزة للأشخاص . إن هذه الاسالة هي التي تطبع الأدب بطابع الذات ، وهي التي تجعل من كل اثر فني صورة متميزة تحمل روح كاتبها ومزاجه ، ولغات ذهنه ، وقد رآته على التعبير ، وصدى ما يتصف به من صفات فنية مختلفة (1) .

والذاتية بهذا المعنى ظهرت في الشعر العربي منذ نشأته وكثير من هذا الشعر يمثل احساس الشعراء وشاعرهم اصدق تشييل ، وكثيرا ما ترى اختلافات بين شعر الشاعر الجاهلي ، وشعر غيره من معاصريه وما ذلك سوى دليل قاطع على أن هناك شعرا كان يحمل سمات شخصيه قائله ، وروحه ، ومزاجه ، وهذا شيء طبيعي في الشعر الذاتي لا يند من وجوده ، وتحققه وإلا ما أطلق عليه " الشعر الذاتي " .

يقول " غوستاف تون غزيباوم " : إن الشعر العربي القديم الذي لم يتخذ أداة للتعبير كان فنا غائيا ، ذا طابع وضي طالع عددا محدودا من الموضوعات التقليدية ، ولما كان الشعر وسيلة البدوي الوحيدة للتعبير والرفع عن النفس ، فقد تشلت فيه حياته الروحية في أتم أوضاعها ، لذلك قلما طالع البدوي الظواهر الخارجية ، والمصلات الاجتماعية ، رغبة فيها ، وإنما جعل ذلك لوجعل منها وسيلة يسطر بها ما في نفسه لا غير ملاحظات تليق ينتهي الدقة في أوصاف الحصان ، وجمار الوحش ، وأهوال الصحراء التي (1) قضايا النقد الأدبي والبلاغة - د . محمد زكي العشماوي - دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ص ٢٠٢ .

يجتازها متخذاً من هذه الأوصاف وسيلة لزهوه برقعة منزلته ، مدلالاً على ذلك بحسن اختياره لمصانئ المطهم ، وبراغته في ملاحقه الطرائد وشجاعة في اقتحام الأخطار التي تعترضه في سفره (1) .

لكن الذاتية بمعناها الأوسع والأشمل والأعم بدأت تظهر بشكل واضح وليموس في الشعر العربي بعد ذلك ، وخاصة في شعر العصر العباسي عصر التفتاء الثقافات والفلسفات عصر الازدهار الأدبي ، والضعف السياسي والانحلال الأخلاقي عصر التطور ، والتجديد ، عصر التعمق الفكري والوجداني ، يقول أستاذنا د . هدارة متحدثاً عن شعر القرن الثاني الهجري ، وظهور الذاتية فيه بشكل ملحوظ : " أما في القرن الثاني الهجري فقد التفت الشعراء إلى أنفسهم ، يفتشون في حناياها عن مشاعرهم وأحاسيسهم ، وعكفوا على قلوبهم يستنطقونها فتجيبهم وتفتح مغاليسها أسرارها لهم ، فلم يعد تغزلهم مجرد وصف حسي جامد لامرأة مثالية فسي جمالها ، ولم يعد وصفهم لمظاهر الطبيعة بعيداً عن مشاعر نفوسهم وإحساساتها ، بل اندمجوا في تلك المظاهر اندماج الألفة ، والمشاركة الوجدانية ، وكانوا يقيسون حالات نفوسهم بحالاتها ، ويقرنون خفقات قلوبهم بخفقاتها ، وهكذا تجد الاتجاه الذاتي في الشعر العربي ودخل مرحلة جديدة تتفوق أعماق النفس ، ولا تكتفي بملامسة سطحها الظاهر ما أبرز شخصية الشاعر بعد أن كانت مضمورة ناشئة في أوصافه التي يخلعها على الأشياء ، حين مدوحيه ، بل نجد الشاعر في القرن الثاني

(1) دراسات في الأدب العربي - غوستاف فون غزيناوم " ترجمة د . احسان عباس وآخرين - بإشراف د . محمد يوسف نجم - منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت سنة ١٩٥٩ م ص

الهجري يستغل قصيدته في المدح في عرض مشاعره ، والتحدث عن ذات نفسه في أول القصيدة .

ثم يكمل د . هدارة حديثه عن نزعة التعبير عن الذات وظهورها في الشعر العربي فيقول عنها : " إنها وجدت في المدح ، كما وجدت في التفضيل ، والرثاء ، والوصف ، وأغراض كثيرة أخرى ، ولأنهم من ذلك أنها وجدت في قصائد ذاتية خاصة بناحية معينة من نفس الشاعر يبدأن يطلعنا عليها " (١) .

وهذا القول وإن اتصل بشعر القرن الثاني الهجري فهو صحيح بالنسبة لما تلا ذلك القرن ، وخاصة شعر القرن الرابع الهجري ، الذي ظهرت فيه ذاتية الشعراء واضحة جلية ، وتباينت هذه الذاتية من شاعر إلى شاعر نتيجة لشخصية كل منهم ، وميولته وظروف حياته ونوازه وميوله في هذه الحياة .

والقرن الرابع الهجري - كما نعلم - يمثل عصرا من أزهى عصور الأدب العربي المختلفة ، فقد ظهر في هذا القرن شعراء كان لهم دورهم البارز في إثراء الحياة الأدبية ، وكانت لهم منزلتهم الرفيعة بين الشعراء وعند النقاد ، ولا يزالون يتمتعون بهذه المنزلة ، وتلك المكانة حتى يومنا هذا .

ظهر في هذا القرن أبو الطيب المتنبي ، وأبو نواس الحماداني والشريف الرضي ، وسهبار الديلمي ، والخلديان ، وابن الحجاج (١) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص ١٧٤ ، ١٧٥ .

وابن سكرة الهاشمي ، والولساني ، والواواء ، الدمشقي ، والأتصاف
المكبري وغيرهم كثيرون وأدلى كل منهم بدلوه ، مخلفين للعربية تراثا
أديبا ضخما ، عاشت عليه أجيال من بعدهم ، ولا يزال ذلك التراث
حتى اليوم معنا لا ينضب ويطول بنا القول - على حد التعبير الأستاذ /
أحمد أمين : " لو عدنا الشعراء الذين نهضوا في هذا العصر ، مع
تعدد نواحيهم ، ونبوغهم " (١)

فلما في حاجة إلى حصر كل من نهض في هذا القرن من الشعراء بقدر
حاجتنا إلى التماس ظهور ذائبة شعراء ذلك القرن من خلال أشعار كل
واحد منهم ، وهذا ما سنحاوله فيما نستقبل من أبواب هذا البحث وفصوله .

(١) ظهر الإسلام لأحمد أمين - الطبعة الخامسة - مكتبة النهضة
المصرية ج ٢ ص ١٠٤ .

الباب الأول

اللائحة والبطولة



مقدمة :

لم يكد يحل القرن الرابع الهجري بالدولة العباسية إلا وكانت جميع مقاليد الأمور بيد الأتراك ، يحركونها كيف شاءوا وحيثما أرادوا .

نقد أهل القرن الرابع وعلى الخلافة "المقتدر" ذلك الخليفة العباسي الذي اخطره أخوه "المكتفي" وليا للعهد من بعده ، ولقد وافق ذلك الاختيار هوى نى نفوس الأتراك والوزراء ، إذ استقر رأيهم على اختيار ذلك العباسي وليا للعهد .

وتكاد كتب التاريخ تجمع على أن وزير المكتفي العباس بن الحسن قد استشار جماعة من أصحابه فمن يصلح للخلافة بعد المكتفي بعد ما ثقلت عليه العلة ، فأشار عليه محمد بن داود بن الجراح ، بابن المعتز " ووصفه بالعقل والأدب ، لكن أبا الحسن عليا بن محمد بن الفرات عارض هذا الرأي معللا معارضة بأسباب منطقية . إذ قال للوزير : " فليتسقى الله الوزير ، ولا ينصب إلا من قد عرفه وأطلع على جميع أحواله ولا ينصب بخيلا يهضيق على الناس ، ويقطع أرزاقهم ، ولا طماع يهشع نى أموالهم فيصادروهم ويأخذ أموالهم وأملأهم ، ولا قليل الدين فلا يخفى العقوبة والآثام ، ويرجو الثواب فيما يفعله ، ولا يولى من عرف نعمة هذا ويستأن هذا ، وضيعة هذا ، وفارس هذا ، ومن قد لقي الناس ، ولقوه ، وطأهم وطأملوه ، ويتخيل ويحسب حساب نعم الناس وعرف وجوه دخلهم وخارجهم فقال الوزير : صدقت ونصحت فمن تشهر ؟ قال : أصلح الموجود " جمعفري بن المعتضد " قال : ويحك هو صبي . قال ابن الفرات : إلا أنه ابن المعتضد

ولم تأت برجل كامل يباشر الأمور بنفسه غير محتاج إلينا" (١) وتولى
المقتدر الخلافة سنة خمس وتسعين ومائتين" (٢) . وكان في الثالثة عشرة من
عمره (٣) . ونظرا لصغر سن الخليفة صار الأمر كله إلى أمه التي استعانت
ببعض النساء في تصريف أمور الدولة . وأصبحت أمور الخلافة كلها في أيدي
النساء بصرفتها حسب هواهن .

يقول السيوطي : " وفي سنة ست (يعني وثلاثمائة) فتح مارستان أم المقتدر
وكان مبلغ النفقة في العام سبعة آلاف دينار ، وفيها صار الأمر ، والنهي
لحم الخليفة ، ولنساءه لركائته ، وآل الأمر إلى أن أمرت أم المقتدر " بحل"
القهرمانه ، أن تجلس للمظالم ، وتظفر في وقاع الناس كل جمعة ، فكانت
تجلس ، وتحضر القضاة ، والأعيان وتبرز التواقيع ، وعليها خطها " (٤) .

يؤيد ذلك ما جاء في صلة تاريخ الطبري ، إلا أن المؤلف يذكر
أن اسم القهرمانه " شمل " (٥)

- (١) الكامل في التاريخ لابن الأثير - دار الكتاب العربي - بيروت ج ٦ ص ١١٩
(وينظر كذلك تكملة تاريخ الطبري لمحمد بن عبد الملك الهمداني
الملحق بذيول تاريخ الطبري دار المعارف - الطبعة الثانية ص ١٩١ .
(٢) الفخرى في الآداب السلطانية - محمد بن علي بن طباطبا - مراجعة محمد
عوض أدهم وعلى الجارم ، وزارة المعارف العمومية بالقاهرة ١٩٢٣ م ص ٢٣٣
(٣) صلة تاريخ الطبري لعريف بن سعد القرطبي (ملحق بذيول تاريخ الطبري)
دار المعارف - الطبعة الثانية ص ٢٩ .
(٤) تاريخ الخلفاء للسيوطي - المكتبة التجارية الكبرى بمصر - دار مصر للطباعة
الطبعة الرابعة ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م ص ٣٨١ .
(٥) صلة تاريخ الطبري ص ٦٧ .

ويروى ابن كثير الخبر نفسه ، لكنه يذكر ان اسم القهرمانه " شلى " (١) ،
واختلاف المؤرخين في اسم القهرمانه ، لا يقدم ولا يؤخر ، ولا ينقص من الأمر
شيئا ، بل على العكس من ذلك ، هو تثبيت صحة ذلك الخبر ، وتأكيده
ان أمر الخلافة ، قد آل إلى النساء ، حقا ، وأصبحت النساء هن الحاكمات
الأمرات ، والناهيات .

إلا ان المستشرق آدم متز يرى في تحكم أم المقتدر في الأمور خيرا
إذ أنها استطاعت - في رأيه - أن تقوّت على المتأخرين ما كانوا يحلمعون
فيه ويطمحون إليه ، وذلك بفضل ما كان لها من قوة ، ومن حزم .

يقول " آدم متز " في ذلك : " ولكن الجماعة المتأخرين أخطأوا في التقدير
فإن أم المقتدر وهي أم ولد (٢) رومية ، تهيضت على قيام الأمر هي وأولياؤها
ببد القوة والحزم فكانت تولى وتمزل وحالت بين القوم وبين انتهاب ما نفس
بيت المال ، وما يدل على قوة عزمها ، وبعد نظرها طريقتها في العناية
بمراقبة ما كان يقربها إليها " (٣)

ولست أدري على أي شيء استند آدم متز في حكمه على قوة أم المقتدر
وحزمها في مواجهة الأتراك ولست أرى استعلاها على مقاليد الأسور هي

(١) البداية والنهاية لابن كثير - الطبعة الثانية ١٩٧٧م - مكتبة المعارف
دار - بيروت ج ١١ ص ١٢٩ .

(٢) أم ولد " اصطلاح استعمله العرب كتابة عن الأمة التي تتجب ولدا يتولس
الخلافة أو ولاية العهد وتسمى " أم ولد " تمييزا لها عن الزوجة الحرة .

(٣) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري - آدم متز - نقله إلى العربية
محمد عبد الهادي أبو ريدة - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٣٦٦ هـ / ١٩٤٧م - الطبعة الثانية ص ١٢ .

والعقبات إليها من النساء ، إلا موامرة من موامرات الأتراك حتى تهتس
 الفوضى سائدة ، ويظل الخلل قائما ، فالأتراك هم أصحاب الرأي الأول في
 بقا المقتدر ، وهم أعلم بمصلحتهم في ذلك ، حتى إننا نرى الوزير العباس
 ابن الحسن يستصغر من المقتدر ، فيعمل على خلعهم ، ويوافق جماعة على
 أن يولوا عبد الله بن المعتز ، ويحاول المقتدر إرضا الوزير ، ويصلح حاله
 فيترجع الوزير عن ذلك بعد أن دفع له المقتدر أموالا أرضه ، ولكن
 الباقين من جماعته ، يصرون على خلع المقتدر ، فيركبون عليه وهو يلعب
 بالأكوة فيهرب ، ويرسل إلى ابن المعتز فيحضره ، ويباع بالخلافة
 يبايعه القواد ، والقضاة ، والأعيان ، إلا أن الأتراك المومنين للمقتدر
 يقاتلون في سبيل عودته ، أو بالأحرى في سبيل مصلحتهم ، ويحسن لهم
 ما يريدون ، ويعود المقتدر للخلافة مرة ثانية ، وسلم الفقهاء والأئمة
 الذين خلعوه إلى يونس الخازن فيقتلهم ، ويحسن ابن المعتز ، ثم يخرج
 بعد ذلك ميتا ، ويستقيم الأمر للمقتدر (١)

ويظل المقتدر خليفة طالما كان للأتراك خاضعا ، ويستمر الحال
 على ما هو عليه حتى يتمكر صفو العلاقة بين المقتدر ، وبين مومنين الخيادم
 فيخرج مومنين على الخليفة ، ويعمل على خلعهم ، وينجح في ذلك ، ويومنين
 بمحمد بن المعتز ، ويبايعه مومنين ، والأئمة ، ويلقبونه "القاهر بالله"
 ويكتب بذلك إلى البلاد ، إلا أن بعض الأتراك الموالين للمقتدر لا يرضهم

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير - دار الكتاب العربي بيروت ج ٦ ص ١٢١
 ١٢٢ * ونظر تجارب الأمم السكويه - نشره أدبوز القاهرة ١٩١٤/١٩١٥
 ج ١ ص ٦ - ٨ وتاريخ الخلفاء ص ٣٧٨ ، ٣٧٩ وتكملة تاريخ الطبري ص
 ١٩٢ ، ١٩٣ .

ذلك ، فيعملون على عودة المقتدر مرة أخرى فيحملونه على أعتابهم — من دار
موتس إلى قصر الخلافة ليعود خليفة من جديد * (١) .

إلى هذا الحد بلغ لعب الأتراك بالمقتدر ، وأمه ، وأخيه ، وألـى
هذه الدرجة كان الخليفة لعبة في أيديهم فيقونه حيناً ، ثم يعزلونه ، ثم
يردونه حيناً آخر ، فأية عنمة تلك التي كانت لأم المقتدر في مواجهته
هو لا الأتراك ؟ يقول الأستاذ / أحمد أمين : " كان المقتدر صبيها في
الثالثة عشرة من عمره ، ولا يعرف من أمور الدنيا شيئاً ، ومع ذلك لقبوه
بالمقتدر ، ولما شب عكف على لذائذ ، وتفرغ على الخنثيين والنساء
وترك أمور الدنيا لغيره وعلى رأسهم موتس التركي ، فبلغت الحال —
بله الخليفة ، وسوء رجاله ، أقصى حد " (٢) .

وهكذا يبدو مدى استهتار هؤلاء الأتراك بالخلافة الإسلامية آنذاك
فما كان تلقيهم للخليفة بالمقتدر إلا سخية ، واستهزاء ، فكيف يكون مقتدراً
وهو لا يزال صبيها ، وكأنهم أرادوا أن يقولوا لكل من لا يحجبه الأمر : نعم
إنه مقتدرٌ بنا ، وطالما كان في ركابنا ، فإن حاول غير ذلك فلن يكون له
من القدرة شيء .

وفي عهد المقتدر هذا ازدادت الثورات اجتماعاً في كل مكان وظلب
أمر المهدي بالمغرب واستتب الأمر للمهدي فيها ودعى له بالخلافة سنة

(١) تاريخ الخلفاء — ٣٨٢ ، ٣٨٣ هـ وانظر الكامل في التاريخ ج ١ —
٢٠٠ ، ٢٠١ .

(٢) ظهري الإسلام ج ١ — ٣٩ .

ست وتسعين ومائتين وخرجت المغرب عن أمر بني العباس من هذا التاريخ^(١)

ولإلى جانب ثورة المهدي هذه كانت هناك ثورة أعشد خطراً على البلاد تلك هي ثورة القرامطة ، التي أشعلها أبو طاهر القويطي سنة ست عشرة وثلاثمائة ، حيث كثر نساؤه وأخذ البلاد ، وفنته بالمسلمين ، واشتد به الخطب ، وتمكنت هيئته في القلوب ، وكثرت أتباعه ، وتزلزل له الخليفة وهزم جيش المقتدر غير مرة ، وانقطع الحج في هذه السنين خوفاً من القرامطة ، ونزع أهل مكة عنها ، وقصد اليوم ناحية خلاط ، وأخرجوا المنبر من جامعها وجعلوا الصليب مكانه^(٢) .

هذه الثورات التي اشتعلت في كل بقعة من بقاع الخلافة ، سواء كانت ثورات سياسية أم ثورات دينية في ظاهرها ، سياسية في باطنها ، إنما ترجع كلها لضعف الخليفة في مواجهتها ، وعدم قدرته على التحكم في زمام الأمور ، وفرض سيطرته وهيئته في الناس ، وأتى له ذلك ، وقد فرض الأتراك سيطرتهم عليه من ناحية ، وحجرت عليه أمه ، ونساء القصر من ناحية ثانية ، إذ استهدت هؤلاء النسوة بالأمر دونه ، مستغلات في ذلك صغر سنه وضعف شخصيته ، وقلة تجربته ، وجهه للهوى والعيب والمجون .

ولم يكن حظ من تولى الخلافة بعد المقتدر مع الأتراك بأحسن من حظ المقتدر نفسه فقد ظلت أمور الدولة بأيدي هؤلاء الأتراك يصرفونها كيفما يحلو لهم ، وظل الخليفة معهم صورة باهتة ، ضاع بريقها حين غابت هيبة صاحبها .

(١) تاريخ الخلفاء ص ٣٢٩ (وينظر الكامل في التاريخ ج ٦ ص ١٣٣ وما بعدها) .

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٣٢٩ (وتنظر تفصيلات ثورة القرامطة في الكامل في التاريخ ج ٦ ص ٢٠٣ وما بعدها) .

وهكذا سارت أحوال الخلافة الإسلامية من حين إلى آسوأ لدرجة
أن الخليفة القاهر الذي خلف المقتدر ، قد أتت عليه أيام بعد عزله لم
يجد فيها قوت يومه ، فكان ينفق ما دأ يده للناس طالبا التصديق عليه
قائلا : " تصدقوا على قاتنا من قد عرفتم " . (١)

ويتولى الخلافة بعده الراضى بالله ، فلم يكن له من الخلافة إلا الاسم
فقط ، وقد بدأ في عهد نظام إمرة الأمراء " وتعتبر الفترة الواقعة بين
سنتي ٣٢٤ هـ و ٣٣٤ هـ فترة انفراد الأمراء دون الخليفة بالسلطة وإن
كان حال الخلافة العباسية منذ عصرها الثاني يتم بانحسار السلطة عن
خلفاء بني العباس ، إلى العناصر التركية ، إلا أن الحال في هذه الفترة
اتخذ شكلا مختلفا ذلك أن منصب الخليفة أمس منصبها شكليا ، تحصر
أهميته في الخلافة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أما إدارة أمور
الدولة فكانت في يد الأمراء ، وقد ظهر نظام إمرة الأمراء في بلاد فارس
التي كانت مناوئة للخلافة العباسية ، وإن كانت عون لها في أول أمرها . (٢)

ما يومئذ ذلك ما جاء في تاريخ الخلفاء : " وفي سنة أربع وعشرين
(بمعنى وثلاثمائة) تغلب محمد بن رائق أمير واسط ونواحيها ، وحكم على
البلاد ، وظل أمر الوزارة والدواوين وتولى هو الجميع وصارت الأسس
تحمل إليه ، وظلّت بيوت المال ، وفي الراضى معه صورة ليس له من
الخلافة إلا الاسم " . (٣)

(١) تاريخ الخلفاء ص ٣١٢ .

(٢) حضارة الدولة العباسية - د . أحمد محمد رمضان ص ٧١ .

(٣) تاريخ الخلفاء ص ٣١٢ .

منذ ذلك التاريخ بدأ الأمراء يسيطرون على الأقاليم سيطرة كاملة لها سعادتها التامة بمهدا عن سيطرة الخليفة الذي لم يعد له من الأمر شيء ، إذ " تغلب أصحاب الأطراف وزالت عنهم الطاقة ، ولم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها ، والحكم في جميعها لابن رائق ليس للخليفة حكم ، وأما باقي الأطراف فكانت البصرة في يد ابن رائق ، وخوستان في يد البهيدى ، وفارس في يد عماد الدولة بن بويه ، وكرمان في يد أبي علي محمد بن إلياس ، والري وأصبهان ، والجبل ، في يد ركن الدولة بن بويه ، وهد وشمكير أخى مرداويج ، يتنازعا عليها ، والموصل وديار بكر ، وضر ، وريمية ، في يد بنى حمدان ، ومصر والشام في يد محمد بن طغج ، والمغرب وأفريقية في يد أبي القاسم القائم بأمر الله بن المهدي العلوي ، والأندلس في يد عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر الأموي ، وخراسان وما وراء النهر في يد نصر بن أحمد الساماني وطبرستان وجرجان في يد الديلم ، والبحرين والعمارة في يد أبي طاهر القميطي . (١)

وبح انقسام الدولة إلى إمارات متعددة بدأت بين هؤلاء الأمراء معارك كثيرة ، كل يحاول أن تكون له السيطرة دون الآخرين ، وظلت أحوال البلاد الإسلامية على هذا الوضع ، أمراء يستبدون بالأمم دون الخليفة ، ومعارك دائمة بين هؤلاء الأمراء بعضهم بعضا ، وأقاليم تعد تحت قوتها بعد أن أنهكتها المعارك المستمرة بين الطامعين ، وخلفاء عاجزون كل المعجز لا حول لهم ولا قوة . وفي خضم هذه الأحداث المتلاحقة تظهر بطولات شتى تعادل بها موازين الحياة إلى حد ما .

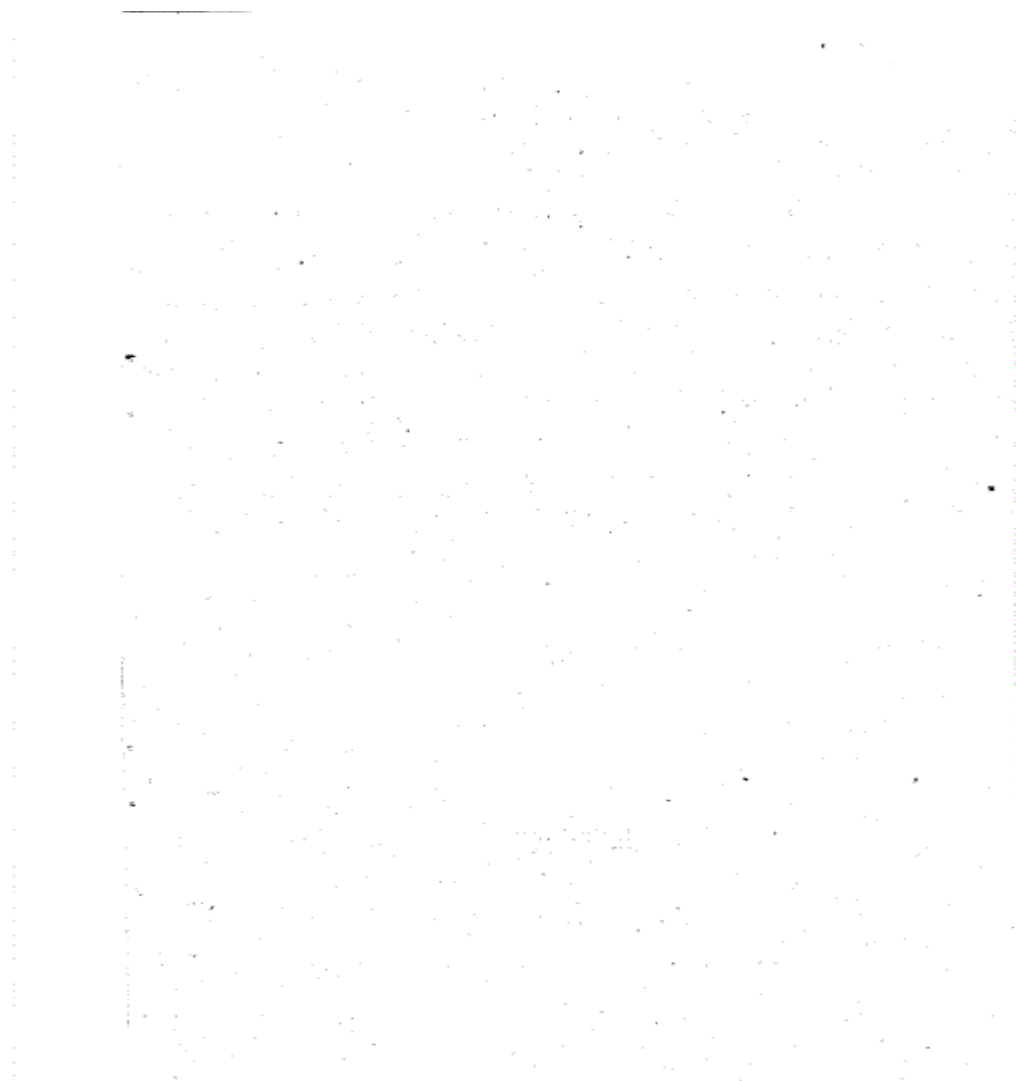
(١) الكامل في التاريخ ج ٦ ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ونظر تكملة تاريخ الطبري ص (٣٠٧) .

ويعتمد مفهوم البطولة ، وتباين مناحيها فتظهر بطولات سياسية
بطولات حربية ، بطولات عقائدية .

والبطولة إحساس فردى ذاتى تضخم عند بعض الشعراء في ذلك
العصر به فعبروا من خلال أشعارهم عن بطولاتهم التي اختلف مفهومها
من شاعر إلى شاعر . فلكل شاعر وجهة نظري بطولته ، فبطولة المتنبي كانت
بطولة النضال المستمر الذي شغل به مذ كان صبيا وحتى آخر عمره .

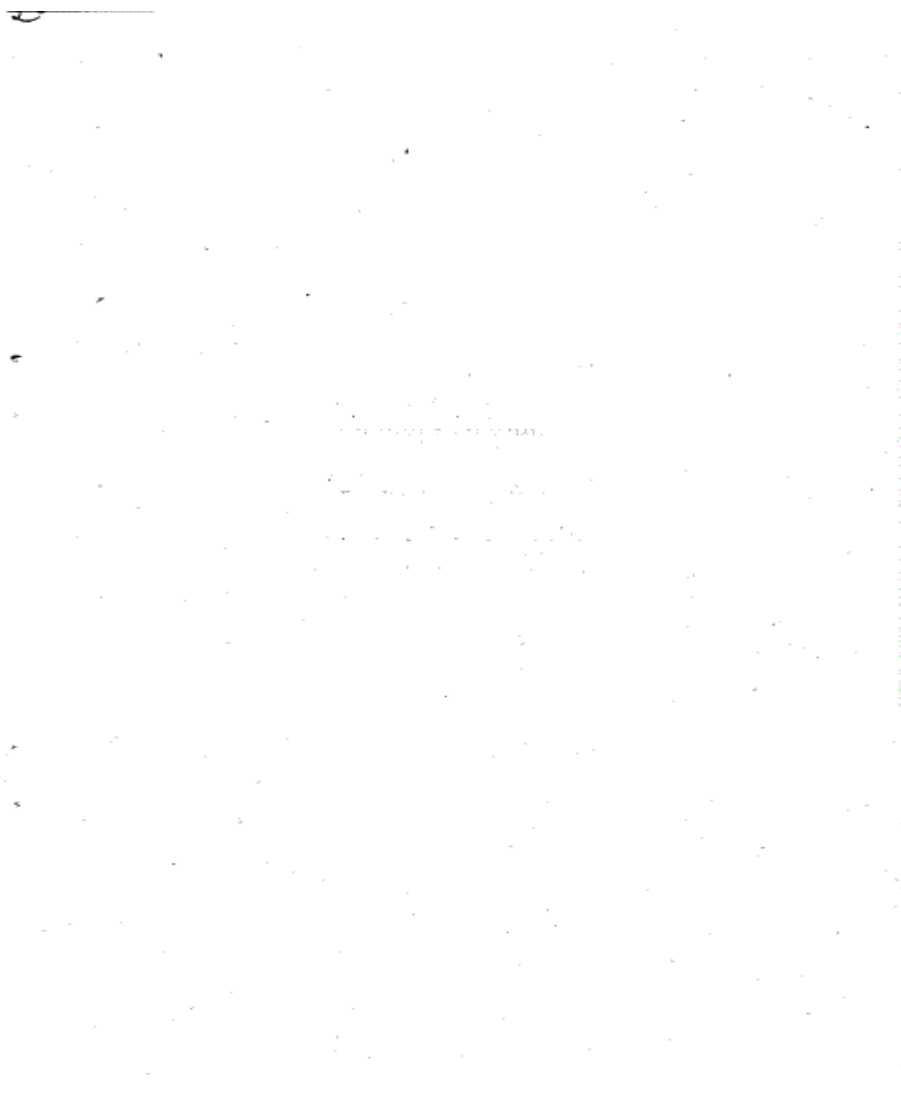
بينما كانت البطولة عند سيف الدولة بطولة عسكرية حربية يجسدها
وهو يعد انتصاراته الملاحقة كما يجسدها وسو صابري مواجهة الهزيمة
والأشر . أما بطولة الشريف الرضي فكانت بطولة الانتفا إلى النسيب
الشريف . وسنرى ذلك فيما نستقبل من فصول ذلك الباب .





الفصل الأول

أبو الطيب التتبي
مطولة النضال



أبو الطيب المتنبى صطوله النضال

ولد أبو الطيب المتنبى بالكوفة في محلة كندة ، في أوائل العقد الأول من القرن الرابع الهجري " ستة ثلاث وثلاثمائة للهجرة " (١) .

وطاصر أبو الطيب النصف الأول من القرن الرابع الهجري ، ذلك القرن الذي اتسم - كما رأينا - وكما اتسم معظم العصر العباسي كله - بالأسى والمخازي نتيجة لضعف الخلفاء ، واستبداد القوم ، والأتراك بأمر الدولة ، وتحكمهم في معاش الناس ، وفي كل شيء فيها .

في هذه البيئة القبيحة تحطم فيها العنصر العربي - في صورة الخليفة ، وفي هذه الأثناء الملأى بالفوضى ، والضغف السياسي ولد أبو الطيب ونشأ ، تنجح عنه كل يوم على مأساة تهتز لها نفسه ، وهلك أذنه كل ليلة خير يئسدى له جبينه ، فهو الأبي الطموح ، وهو الذي قد وهبه الله نقما كريما - أمة ، لا تقبل الظلم ، ولا تقر على هوان ، " وهو من أصحاب الشخصيات القوية التي خلقت للكفاح ، والنضال ، لا للاستخذاء ، والتسليم بالأقدام " (٢) وهو أيضا على حد تعبير الأستاذ / أحمد أمين : " القوى الجبار ، الفارس في حياته ، والفارس في شعره ، المعتد بنفسه ، الطموح ، المسجل لأكثر أحداث زمانه " (٣) .

(١) ينتمى الدهر في محاسن أهل العصر - للشعالبي - شرح وتحقيق -

د . مفيد قهجة - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى -

١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ج ١ ص ١٤١ ، وينظر كذلك تاريخ بغداد ج ٢

ص ١٠٢ ، شعرات الذهب ج ٣ ص ١٣ ، نزهة الألباء ص ٢٠٣ ،

الأعلام ج ١ ص ٧٥ ، شرح العميون ص ١٥ .

(٢) حماد البهشم لابراهيم عبدالقادر البازني ص ١٢٨ .

(٣) ظهرا لاسلام ج ٢ ص ٩٠٤ .

وهذه الأحداث التي كتب للمعتبي أن يعيشها ، كانت كفيلة أن تترك أكبر الأثر في نفسه ، وأن يتردد صداها في شعره ، تغنيا بأجساد العروبة في إصرار لم يشبه ياس ، وعزيمة لم يلحقها ضعف أو خور .

وشعرايى الطيب - في معظمه - شعر يفيض بالنضال ، النضال ضد الأعاجم الذين حكموا العرب وأذلّوهم ، والنضال ضد الجساد والشائئين والنضال أيضا ضد الزمن نفسه وقد توفر لايى الطيب مقومات ذلك النضال مقومات الاستعداد النفس ، وقوة في مواجهة الأحداث وتوفيق هذا وذاك ترفع عن الدنيا والصنائع . . . الخ .

ولن أخس ما يميز شعرايى الطيب بروز شخصيته في شعره ، وصديق إيمانه برأيه ، وقوة اعتداده بنفسه ، وصحتمبيره عن طبايع النفس ومشاكل الناس ، وأهواء القلوب ، وحقائق الوجود ، وأغراض الحياة .^(١)

وأبو الطيب المعتبي أقوى شعرا . العروة نهضات قلب ، وأبعدهم فزع فكر ، وأعقهم حكمة ومن أصدقهم إنصاحا عن خفايا النفس ، وأعرضهم بأسرارها .^(٢)

لقد كان النضال مطلبها مهما عندايى الطيب طاش يطلبه منذ صباه وظل يطلبه إلى آخر أيامه وتشاء أقداره أن يموت وهو يناضل بعض من كادوا له في حياته ، وحسدا عليه مكانته ، وأبى عليه همه نفسه إلا أن يسرد على مكائدهم بلسانه ، مما دفعهم إلى ترصده حتى ظفروا به .

(١) تاريخ الأدب العربي لأحمد حسن الزيات - دار نهضة مصر للطبع والنشر بالقاهرة - ص ٣٠٠ ، ٣٠١ .

(٢) على هامش الأدب والنقد . على أدهم - طبع دار الفكر - ص ٦٣ .

ولقد أسَّس النضال في نفس أبي الطيب عوامل عديدة منها ذلك
الفساد الذي استشرى في زمنه ، وما لحق العرب ، تبعاً لذلك - من
ذل وهوان ، ومنها شخصيته الأبهة ، وهمة العالمه ، وعزة نفسه وعظمته
وكبريائه .

طاش المتبين حياته أبها ، كريها ، عزيز النفس ، ناعياً بنفسه من كل ما
يشين المرء ، أو يحط من قدره ، متعالياً ، متكبراً ، متعالياً في هذا
التمالي ، وذلك التكبر ، محققاً كل صفير النفس ، غائراً العزيمه ، ضعف
الهمة ، يأت من أخيه لأبيه وأمه ، إذا لم يكن كريهاً عظيمًا ، أبهاً ، نفهاً
ولقد ترددت أسداً هذه المعاني في شعره خلال مرحلة المختلقة ، ويصر
ببشاته المتباينة ، وكل من درس حياة أبي الطيب يشهد له بذلك ، بل
أكثر من ذلك ، يستوى فهم العربي ، وغير العربي ، إلا نغراً قليلاً من
الباحثين غطوا الشاعر حقاً ، ونسبوا إليه الاستجداء والتفاني والكذب ،
والغرور ، إلى غير ذلك من صفات يشين المرء أن تنسب إليه .

وطى الرغم من ذلك فما هم بضارينه شيط ، وقد أنصفه المنصفون من
باحثي الشرق والغرب ، وناقديهم ، وما هو ذا مستشرق إسباني وقص
حياته على دراسة التراث العربي في الأندلس ، يقول عن أبي الطيب :
" والحق أن كل ما نعرفه عن حياة المتبين - وليس بالقليل - يؤكده
صدقه فيما يقول . فهو لا يسكر ، ولا تعرف له غراميات فاجرة ، وأبعد
من ذلك أن يكون قد عوى الشذوذ الجنسي ، وفي عصره شاع عوين أناس
من مستواه اشتهر ، وحياته العاطفية تدور عادة في محيط خاص ، وليس
لها صدى في إنتاجه الأدبي ، ويمكن أن يمر على ظهر راحلته أمام اصنام
عصره الفاسدة وهو ينطوي على أكبر احتقار لها ، والنساء المشيرات اللائس

يطلبين راغبات شغافه ، سوف ينتهي بهن الأمر الى تقهيل جبهته احترامنا
وعندما تتلاقى أعناقهن الجميلة فارة كرقاب الأوز مع رقبتيه لا يستطيع
أن يقول ما إذا كن متجملات بقلائد تنفع بالجواهر الثمينة أو عاطلات منهن
لقد أغض عينيه دون الحب ، إن غايات أكثر سما تشده إليها ^(١)

ثم يستطرد " غوث " قائلا وهو يصدد الحديث عن كبرياء " أبو الطيب
واعتماد " بفتنه : " من الصعب أن نجد في الأدب العالمي كله ، شاعرا
أشد اعتزازا بفته من المتنبي ، وحتى لو تخينا الفخر جانبها ، وهو عادة عريضة
تحد من أصول بدوية ، وقد لا يستوعبها ذوقنا الغربي ، فسوف نلتقي
بشاعر الكوفة على الدوام مطلقا في السماء ، ملتهب الكبرياء ، غبوى النظرة
أحيانا ما يبرر إطلاق اسم المتنبي عليه ، لقد تنبأ أبو الطيب بالاستعداد
الجغرافي غير المحدود لشهرته ، وأنها سوف تضرب في الخافقين ^(٢) .

أعود فأقول إن هذه البهجة التي عاش فيها المتنبي ، قد أثرت نفس
أخلاقه ، وسلوكياته تأثيرا بالغا ، ظهر في حبه للقوة وتقديسه للمعزة
والمهابة ، والافتخار والكبرياء ، وقد كان على استعداد نفسه ، وخلق
لأن ينحو هذا النحى ، وأن يسلك ذلك المسلك ، وقد ظل نفس
شعره يردد هذه المعاني ، مذ كان صبيا ، حتى فارق الحياة .

وإذا ما تتبعنا شعر أبي الطيب عبر مراحل المختلفة ، سنراه خدنا
للقوة ، وعزة النفس ، والإباء ، وسنراه لا يمل الحديث عن هذه المعاني
التي يرى نفسه جديرا بها دون غيره ، فمن ضعفت فهمهم الهم ، ولا يسي
الطبيب عذره في ذلك حتى وإن غالى في تعجيد نفسه ، وتقديس ذاته

(١) مع شعراء الأندلس والمتنبي ، إميليو غريسيه غوث - تعريب د . الطاهر
أحمد مكي - دار المعارف - الطبعة الرابعة ١٩٨٥ م ص ٣٠ .

(٢) المرجع السابق (الصفحة ذاتها) .

فقد رأى خليفة المسلمين ، وهو رمز الدولة فاقدًا لكل سيطرة
وسيادة ، مما أثار في نفسه الشعور بضيق العنصر العربي أمام غيره من
العناصر التي أصبحت متحكمة في الأقاليم المختلفة .

ولتبدأ بشعر أبي الطيب في صباه ، لنرى أنه شب وحب القسوة
والعزة يلزمه ، فقد قال في صباه ، وقد قيل له : ما أجسن شعرك !
لا تحسن الوفرة حتى تسرى منشورة الشقرين يوم القتال
على فتى معتقل صعدة يحلها من كل واعي السبال (١)

إن أبا الطيب في هذين البيتين يقدس القوة ، تلك القوة التي هي
من أهم مقومات النضال ، النضال الذي يكسب صاحبه مجداً ، ويعلمه
منزلة ، ويرفعه بين الناس مكاناً علياً .

إن أبا الطيب - وعلى حد تعبير د . شوقي ضيف : " كان يستشعر
منذ نعومة أظفاره نفساً كبرى بين جنبيه ، نفساً ستعيش للفتوة والإقدام
ولن يجذبها أي جمال حسي ، أو متاع مادي في الحياة " (٢)

إن البيتين السابقين ما شق به الباحثون وغربوا من شعر أبي الطيب
وذهب كل منهم في تفسيرهما ، وتفسير غيرها من شعر الرجل مذهب شتى
فالدكتور / طه حسين يرى أن المتنبي كان قريظاً ومستنداً إلى نزعة القسوة

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي - بشرح العكبري - ضبط وتصحيح مصطفى
السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبى - دار المعرفة - بيروت
ج ٣ - ١٩٩٣ .

(٢) صر الدول والإمارات - سلسلة تاريخ الأدب العربي - دار المعارف
سنة ١٩٨٠م - ص ٣٤٢ .

عنده ، وإلى حبه للقتل ، والفتك ، وسفك الدماء يرى أنه خان القرامطة
في آخر أيامه فقتلوه " (١) ، هذا في الوقت الذي ينش فيه د . عبد الوهاب
عزام قريظية المتنبى ، ويرى أن قريظيته دعوى يحوزها الدليل " (٢) .

ومثل ذلك يراء الدكتور / محمد حسين فيقول : " أما نحن فنرجح
أن المتنبى كان عدوا للقرامطة خاصة ، وللباطنية على وجه العموم ، وأنه ظل
يناصبها العدا ، وظلت هي تنهض به وتكيد له حتى ظفرت به وقتلته
ونحن نعتد في حكمنا هذا على تدبير شعره في ضوء ما عرفناه عن الباطنية
والقرامطة ، وفي ضوء ما نعرفه من ظروف عصره السياسية ، والاجتماعية ، وفي
ضوء ما يخفى إليه تحميم الروايات المتضاربة التي وصلت إلينا عن حياته " (٣) .

أما د . مصطفى الحكمة فإنه يوافق المستشرق " بلاشير " على رأيه في
قريظية المتنبى حين يقرر أن الشاعر الكبير لم يكن قريظيا ، ولكنه تأثر
بآراء القرامطة " (٤) ومن الباحثين من يرى أن بيتي المتنبى السابقين قصد
بهما العلويين إذ أن قوله " وأنى السبال " لا يمكن أن يصدق إلا على
العلويين الذين أنزلوا الهوان بالمتنبى وجدته " (٥) . ومن هؤلاء الباحثين
من يرى أن التهديد في البيتين موجه إلى القرامطة ، الذين كانوا يهيمون

(١) مع المتنبى - د . طه حسين ص -

(٢) ذكرى أبي الطيب المتنبى بمعداته عام د . عبد الوهاب عزام - دار
المعارف بمصر - الطبعة الثانية سنة ١٩٥٦ م ص ٢٥٨ .

(٣) المتنبى والقرامطة - د . محمد محمد حسين ص ١١ .

(٤) أبو الطيب المتنبى في مصر والعراقيين د . مصطفى الحكمة - عالم
الكتب - بيروت = الطبعة الأولى سنة ١٩٨٣ م ص ٣٦ .

(٥) المتنبى - محمود محمد شاكر مطبعة المدني بالقاهرة سنة ١٩٧٧ م -
السفر الأول ص ٥٧ - ٥٩ .

على الكوفة في صبا المتنبى ، ويميشون فيها قتلا ، وفسادا ، وتخريبا (١) .

وهكذا اختلفت مذاهب الباحثين في تفسير هذين البيتين وما كان البيتان في حاجة إلى كل هذه الاحتمالات ، فالبيتان ما قاله المتنبى نفسى صبا الباكر ، بل من أول ما قال من شعر ، وهو لا يزال بعد صبا نفسى المكتب ، لم يتسع أفقه بعد ليعتق مذهباً ، أو فلسفة علوية أو قرمطية أو غير ذلك ، وإنما البيتان وغيرهما من شعر أبى الطيب يمر مرآحله المختلفة إنما هما نتيجة للظروف التي عاشها ، وأحسن خلالها مدى الضياع النسبى لحق بالعرب والعروبة ، في مواجهة أجناس مختلفة ، ومرد هذا النوع من شعر أبى الطيب إنما ترجع - كما يقول د . شبيب : " إلى أننا في عصر شعبية مدمرة ، واحتدام جنسى عنيف ، والرجل مشغول بجنسه ، مهتم بقومه ضد من عداهم من الأجناس ، والشعوب ، فانصرف إلى الفخر بهمهم والتفتى بمآثرهم ، أو الفخر بنفسه على أنه من النابيهين فهم ، استجابته لمنطق العصر ، وضرورات الحياة " (٢)

لقد كانت ثورة - على حد تعبير د . شوقي شيف - " ثورة سياسية قومية ، لا دينية ، ولا قرمطية ، كما توهم بعض الباحثين " (٣)

ويظل المتنبى يردد في شعره هذه النغمات ولا يمل ترددها فلا تزال الحياة على ما هي عليه من فساد ، وضياح حقوق ، يقول أبو الطيب نفسى صبا أيضا :

(١) المتنبى (دراسة جديدة لحياته وشخصيته) د . إبراهيم عوض . دار الكتب

١٩٨٧م ص ٣٠

(٢) المتنبى بن تاقديه في القديم والحديث ص ٣٠٨ .

(٣) عصر الدول والامارات ص ٢٤٥ .

مَحَبَّتِي قَهَائِي مَا لَدَّ لَكُمْ النَّفْسِلِ يَهَيَّا مِنَ الْجَرْحِ سِلَامًا مِنَ الْقَتْلِ (١)
 أَرَى مِنْ قُرْنَدِي قِطْعَةً فِي قُرْنُسِيده وَجُودَةٌ ضَرْبِ الْهَامِ فِي جُودَةِ السَّقْلِ
 وَخُضْرَةُ ثَوْبِ الْعَمِيشِ فِي الْخُضْرَةِ الَّتِي تَهْلِكُ أَحْيَارُ الْمَوْتِ فِي مَدْرَجِ النَّفْلِ (ب)
 أَمَّا عَنْكَ تَشْبِيهِنِي بِمَا وَكَأَنَّكَ فَمَا أَحَدٌ فَوْقَ ، وَلَا أَحَدٌ يَنْتَلِي
 وَذَرْنِي وَأَيَّاهُ ، وَطَرَفِي وَذَا بِلَاسِ نَكُنْ وَاحِدًا نَلْقَى الْوَرَى وَنَنْظُرَنَّ مَعْلَى (٢)

وهكذا يتحسّر أبو الطيب على سيفٍ أغدت في وجوه الأعداء ، وكان
 الأخرى بها أن تمل في وجوه هؤلاء الظالمين ، ويتعجب أبو الطيب من
 قوم رضوا بالذلة ، فلم يعمدوا على حرب يحيون قيامه إليها ، وعلى الرغم
 من ذلك ، فإنّ اليأس لم يتسرب إلى نفسه الفتية ، التي أكتبت سيفه
 حدة ومضاء ، فهو لا يزال في منزلة لا يعلوها أحد ، ولا يتساوى معه
 فيها إنسان ، وحسبه أن يكون في مواجهة الورى ، كل الورى ، بسيفه
 ورمحه ، وجواده .

هذه الأبيات أيضا ما يرى فيها د . الشكعة أن المتنبي يبدو من
 خلالها موقفا في تأثره بالقرامطة ، وفي حبه لسفك الدماء (٢) .

وشتان بين حب سفك دماء المسلمين الأبرياء ، وحب سفك دماء من
 اغتصبوا حقوق الناس وأشاعوا الفوضى في البلاد .

(أ) الفصل : السيف ، والقُرْنَد : جوهرة .

(ب) مدرج النمل : كنى به عن آثار القُرْنَد .

(١) ديوان أبي الطيب - بشرح العكبري ج ٣ ص ١٦٠ وما بعدها (والطوف :
 الفرس الكرم جمعه طروف) .

(٢) أبو الطيب المتنبي في مصر والعراقين ص ٤١ .

ومن أشعار المتنبي في صباه أيضا ، والتي تتجسد فيها معاني العزة والإباء ، قوله مخاطبا نفسه :

إِلَى أَيِّ حِينٍ أَنْتَ فِي زِيٍّ مُحْضَرٍ
وَحَتَّى مَتَى فِي شِقْوَةٍ وَإِلَى كَيْفٍ ؟
وَأِنْ لَا تَمُتْ تَحْتَ السُّهْبِ مُكْرِبًا تَمُتْ وَتَقَاسِ الدَّلَّ غَيْرَ مُكْرِمٍ
تَشَبَّ وَثَقًا بِاللَّهِ وَثَبَةً مَا جِيْدُ
يرى الموت في الهيجا جنس النحل في النعم^(١)

وهكذا يتمجد أبو الطيب لقاء الأعداء ، وبمثل هذه الحياة التي يحياها وكأنه محرم ، لا يحل له صيد ، أو قتل ، ويرى أبو الطيب أن الموت في ساحة القتال ، هو موت الكرماء ، لا موت الأدلاء ، وكم يحلو للكرماء الأماجد طعم ذلك الموت .

وهذه الأبيات ما يرى فيها الأستاذ / شاكرا ن التهديد فمهما
وجه إلى العلويين أيضا .^(٢)

وتظل أشعار المتنبي في صباه ، سائرة على هذا النهج ، ملتزمة تلك الوتيرة ، مرددة ذات المعاني التي ملكت عليه نفسه ، وشغلت فكـره وعقله ، معاني حب النضال ، والاستعداد له ، وسلوك كل طريق توصل إليه :

(١) ديوان أبي الطيب بشرح المكبري ج ٤ ص ٣٣ ، ٣٤ .
(٢) المتنبي - محمود شاكرا - السفر الأول ص ٦٠ ، ٦١ .

فَغَرَسَ صَهْوَةَ الْجِصَّانِ وَلَكِنَّ قَمِيصَ مَسْرُودَةٍ مِنْ حَدِيدٍ
لَأَمَّةٍ فَاضَةُ أَضَاءَ دِلَاصٍ أَحْكَمَتْ نَسِجَهَا يَدَا دَاوُدَ (١)

ولا يسأم أبو الطيب الحديث عن نضاله ، وكفاحه ، فان ما آل إليه
مصير الخلافة الإسلامية يومه وإن ما بلغ إليه حال العرب يقض عليه مضجعه
ولا يرى أبو الطيب سبيلا للخلاص من ذلك كله إلا بالنضال الذي آلى طس
نفسه حمل لوائه ، والدعوة إليه ، ومادام الناس قد ركبوا إلى الدعوة
واستمرروا الذل والهوان ، ورضوا بما هم فيه فلا سبيل إلا أن يناضل هو
مادام واثقا من أن تحقيق العزة ، والسودد ، كان في هذا النضال :

مَوْصَحَبَ النَّصْلِ مِثْلَ مَقْرِصٍ

وَسَجَلَى خَبْرِي عَنْ سَيْتَةِ الصَّبْرِ
لَقَدْ تَعَبَرْتُ حَتَّى لَا تَضْطَبِرُ فَالآنَ أَقِمُّ حَتَّى لَا تَقْتَحِمَ
لَا تُرَكَّنَ وَجْوهَ الْخَيْلِ سَاهِيَةً وَالْحَرْبُ أَقْوَمُ مِنْ سَاقِي عَلَى قَدَمِ
وَالطَّمْعُ يَحْرِقُهَا وَالزَّجَرُ يُقْلِقُهَا

حَتَّى كَانَ يَمُوتُ ضَرْبًا مِنْ اللَّيْلِ
قَدْ كَلَمْتُهَا الْعَوَالِي مَهْنُ كَالِحَةٍ كَأَنَّا الصَّابَ مَعْصُوبَ عَلَى اللَّجِيمِ
بِكُلِّ مَنَعِلٍ مَا زَالَ مُنْتَظِرِي حَتَّى أَدْلَتْ لَهُ مِنْ دَوْلَةِ الْخَدَمِ
شَيْخٌ يَرَى الصَّلَواتِ الْخَمْسَ نَافِلَةً

وَسَتَحِلُّ دَمُ الْحِجَاجِ فَرَسَ الْحَرَمِ

(١) ديوان أبي الطيب المتنبى بشرح العكبري ج ١ ص ٣١٣ هـ (مسرودة : درج
منسوجه من حديد / لأمة : ملتزمة الصنع / فاضة : سايغة / أضاءة : صافضة
اللون / دلاص : براقعة ، وهي للنفرد) .

وكلما نطحت تحت المعجاج به أسد الكتائب رآته ولم يسير
تسبى البلاد بروق الجها وقسسى
وتكتفى بالدم الجارى من الديسم

والأبطال تجسد حب المتنبي للنضال ، وحرصه عليه ، فهو تغن بالقوة
والصبر ، والافتحام ، والطمع ، والزجر ، وكلها من أدوات النضال ووسائله
إلى جانب ما فيها من تغن بالسيف ، والخيال ، والحرب ، والرمح
والكتائب ، والدماء ، وكلها معان يطرقها أبو الطيب كثيرا في أشعاره
الذاتية التي تجسد بطولته النضالية ضد حكام أطمح استعلوا على العرب
وملكوا أمرهم وتحكموا فيهم ، وحرصوا على اذلالهم انتقاما لما أحدثت
العرب بهم في يوم من الأيام .

ويطول نفس أبي الطيب وهو يردد تغنيته ببطولته النضالية تلك ، وحرصه
على تجسيد هذه البطولة ، فتهتج بالحديث إلى نفسه حاثا لها على الصبر
في مواجهة الموت ، وترك الجزع والخوف ، فالشجاعة في مواجهة الموت
هي أقوى أسباب بلوغ ما يرويه المناضل بنضاله :

ردى حياض الردى يا نفس وأتركسى
حياض خوف الردى للشاء والنعم
إن لم أذكر على الأرماع سائلة فلا دعت ابن أم المجد والكريم
أملك الملك والأسياف طائفة والطير جامعة لحم على وضيم ؟
من لو رآني ماء مات من ظميا ولو مثلت له في النوم لم ينم
مهمل كل رقيق الشفرتين فدا ومن عصى من ملوك العرب والعجم
فإن أجابوا فما قصوى بها لهم وإن تولوا فما أرضى لها بهم (1)

(1) ديوان أبي الطيب المتنبي - بشرح العكبري ج ٤ ص ٣٩ وما بعدها .

والأبيات إلى جانب ما فيها من تغن بالبطولة النضالية إلا أن فيها
إلى جانب ذلك - تهوينا من شأن أولئك الأتاجم الذين ملكوا أمر البلاد
وهذا التهوين ضروري ومطلوب في موقف كهذا الذي يقفه أبو الطيب ، وهو
يناضل هو "لا" الحكام .

وهي أبيات - كما يتضح منها - قد أملت بها على أبي الطيب ظروف
حياته المحيطة به ، حين استبد غير العرب بكل شيء " ، فهي دعوة إلى رفض
الواقع المعاش - وإن كان بعض الباحثين قد استدل بها على تأثر أبي
الطيب بأفكار القرامطة ، وجبهم لسفك الدماء " ، حين يقول بعد أن يسود
أبياتاً من هذه القصيدة : " إذا لم تكن هذه هي القرمطية في أبشع سلوكها
فأين تكون القرمطية إذن " (١)

والقصيدة بعيدة عن أفكار القرامطة ، لأنها دعوة إلى النضال ، وتخليص
البلاد من حكام ليسوا جديريين بالحكم ، كما يتضح منها في قول الشاعر مثلاً
(حتى أدلت له من دولة الخدم) ، وقوله (أملك الملائكم على وضم)
وقوله (ومن عسى من ملوك العرب والعجم) في حين أن القرامطة يستحلون
دم الناس حكماً ، ورعية .

والقصيدة ، ما قاله الشاعر في صياها ، فهي تعبير عن غضب ، وشورة
على واقع ، ودعوة إلى النضال ، قبل أن تكون تعبيراً عن مذهب يعتنقه
الشاعر ، ويدين به .

يطول حديث المتنبى عن نفسه وتتجسد من خلال حديثه عن نفسه
بطولته النضالية وقدرته القتالية ، وعدته ، وقوة بأسه :

(١) أبو الطيب المتنبى في مصر والعراقين - د . مصطفى الشكعة ص ٤٠ .

جَفَتْنِي كَأَنِّي لَسْتُ أَنْطَقُ قَوْمَهُـ
وَاطْعَنَهُمُ وَالشَّهْبُ فِي صُورَةِ الدُّهْمِ
يَحَاذِرُنِي حَتَّى كَأَنِّي حَتَفُهُ وَتَنَكُّزُنِي الْأَعْمَى يَقْتُلُهَا سَمَى (أ)
طَوَالَ الرَّدِّ يَنْتَابُ يَقْصِفُهَا دَمِي وَبِضْرِ السَّرِيحَاتِ يَبْقِطُهَا الْحَمَى (ب)
يَرَانِي السَّرَى يَرَى الْمَدَى قَرْدٌ دَنَسَـ
أَخَفَّ عَلَى الْمَرْكُوبِ مِنْ نَفْسِي جَرَمِي (١)

والأبيات حافلة بما يجسد بطولة أبي الطيب النضالية ، فهو لا يسرى
أطعن ، ولا أشجع منه ، ليس هذا فحسب بل إنه ليرى أن دمه قاصيف
للرياح ، وأن لحمه قاطع للسيوف وهي معان جديدة يهون بها المتعب من
أمرأعائه ، ويقلل بها من شأنهم ، وليس هناك من أعداء أبي الطيب
أكثر من هؤلاء الأعاجم الذين تحكموا في البلاد ، وأخضعوا العرب
لسلطانهم .

ولا يزال ضياع هيئة العرب أمام هؤلاء الحكام من العجم يسـؤرق
أبا الطيب ، مما دفعه إلى تقديس ، النضال بالدعوة المستمرة إليه ، مما
يجسد بطولة النضال عند ذلك الشاعر العربي الفهور . فأبو الطيب إلى
جانب تغنيهِ ببطولته النضالية فهو دائم الدعوة لقتال أولئك الملوك الأعاجم
الذين كانوا عبيداً للعرب في يوم من الأيام ، ودعوته إلى قتال هؤلاء الأعاجم
ونضالهم تعد من بطولاته النضالية ، فالنضال يمكن أن يكون بالسيف والرمح
ويمكن أن يكون باللسان الذي يحرك المشاعر ، ويشير العواطف ويوقظ

(أ) نكزته الحية : أي لسمته بأنفها - ينظر لسان العرب مادة : " نكز " .

(ب) السريحيات : سيوف مشبوبة إلى قوين يسمى سريح .

(١) ديوان أبي الطيب المتبني بشرح العكبري جـ .

الهم ، ويشخذ المزام ، وهذه الدعوة للنضال تتخذ أحيانا طريفا مباشرا
وتكون أحيانا أخرى بطريق غير مباشر . من ذلك قول أبي الطيب :

أحقَّ عابِ يَدِ مِمَّكَ الِهَمُّ	أحدثُ شَيْءٍ عَهْدًا بِهَا الْقَدَمُ
وَأَيْمًا النَّاسَ بِالْمُلُوكِ وَمَا	يُلِحُّ عَرَبًا مُلُوكُهَا عَجَمُ
لَا أَدَّبَ عِنْدَهُمْ وَلَا حَصَّبَ	وَلَا عَهْدَ لَهُمْ وَلَا زِمَمَ
فِي كُلِّ أَرْضٍ وَطَّعَتْهَا أَمَمُ	تُرَعَى بِعَبْدٍ كَانَتْهُمْ عَجَمُ
يَسْتَخْشِنُ الْخَزَّاجِينَ يَلْبَسُهُ	وَكَاكَ يَبْرَى بِظَفَرِهِ الْقَلَمُ (١)

فهو - كما قلت - دعوة غير مباشرة إلى الخلاص من حكام غير شرعيين
استبدوا بالأمم وطأوا في البلاد فسادا ، وفي الأبيات تنفير للعرب بما
رضوا به لأنفسهم ، من ذلك تصوير المتنبي لهم على أنهم غم يربطها عبد
ما يثير حفيظهم ، ويدفعهم دفعا إلى النضال الذي يحشقه أبو الطيب
وتكمن فيميطولته ، وتردد هذه الدعوة إلى النضال ، والتي يحمل أبو الطيب
لواها ، وتردد في شعره كثيرا ، لأنه يعلم أن الناس في زمانه قد ابتلسوا
بحكام سفها ، صفار النفوس ، لا يهتمهم من الدنيا إلا طعامهم وشرابهم :

فَوَادُّ مَا تَسْلِيهِ الْمُسَدَامُ	وَعَرُّ مِثْلَ مَا تَهْبِ اللُّثَامُ
وَدَهْرُ نَاسٍ صَفَارٌ	وَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ جُثَّةٌ ضِخَامُ
وَمَا أَنَا مِنْهُمْ بِالْعَيْشِ قِيَمُ	وَلَكِنْ مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرَّغَامُ
أَرَانِي غَيْرَ أَنَّهُمْ مَلُوكُ	مُفْتَحَةُ عِيُونِهِمْ نَيْسَامُ

وهكذا يرى المتنبي نفسه دائما فوق أعدائه من ملوك البلاد الأتباع
الذين هم في حقيقة الأمر أرايب ، غير أن الزمن جعلهم ملوكا ، ويقدر أن
(١) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري ج ٤ ص ٥٨ وما بعدها .

أبو الطيب بين نفسه ، وبين أولئك الملوك فمضى أن الله قد وهبه نفساً أبية
وقلها لا تستهويه الشهوات ، ولا يلبيه السكر كحال هؤلاء الملوك وهذا هو
سر بطولته النضالية فمن خلق للنضال ليس كمن خلق للهو والعبث ، وحسب
المفادات لذا كان الفارق شاسعاً بين أبي الطيب وملوك عصره ، فهو ليس
منهم - وإن عاش بينهم - وإنما هو كالذهب مقامه في التراب وسبع
ذلك فما أبعد الفرق بين هذا وذاك .

إن المناضل الأبي الكرم يأغف دائماً أن يرضى بذلك ، أو أن يقوم على
هوان ، ويؤرقه دوماً أن يرى الناس من حوله قد قبلت هذا الذل ، وذلك
الهوان ، ويرى المتنبي ذلك من أناس خضعوا للأطامع ورضوا بالذل لهم
إياهم ، فينطلق لسانه بهذه الحكمة :

من يهن يسهل الهوان عليه
ما ليحج بيت إيلام^(١)

وهي حكمة لم تأت عفوية بل جاءت نتيجة تجربة مرة صادرة من ذاتية
شاعر تحركها بطولة النضال في نفسه . وعلى تلك الحكمة تجسّد لبطولة
النضال لشاعر عاش حياته مناضلاً ، وداعياً إلى النضال ، وسالكا إليه كل
سبيل ممكن ، ومحتاج :

حاشى ذرّاً بأن أضيق به ذر	عازمان واستكرمتني الكرام
واقفاً تحت أخمص قدر نفسي	واقفاً تحت أخمص الأنعام
أقرباً الذموق شزار	ومراماً أيقى وظلمى مرام
دون أن يشرق الحجاز ونجد	والعراقين بالقنا والقمام

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح المكبري ج ٤ ص ٩٤

وإن بدت في هذه الأبيات مبالغات ، ومبالاة ، فهي مبالغات
 شاعرناضل رأى الهم قد ضعفت ، والعزائم قد كلت ، وهيبة العرب
 ضائعة في بلادهم ، وعلى يد من كانوا لهم خدما في يوم من الأيام . وهو
 يرى - وهذا ما يؤرقه - أن معظم أقطار العالم العربي قد خضع لهؤلاء
 الأعاجم ، ولأنه جبل على النضال ، وذهب نقسأبيه ، فهو لا يرى سبيلا
 للخلاص من هؤلاء الحكام الأعاجم إلا بأن تراق الدماء غزارا تمسح بها
 الحجاز ، ونجد ، والعراقان ، وبلاد الشام .

ومدور أبو الطيب كثيرا حول تجسيد بطولته النضالية ضد هؤلاء الحكام
 الذين ابتلى الناس بهم في زمن أصبح أغاضل الناس أغراضا له ، في الوقت
 الذي تمسح فيه المجال للجاهلين ، وأوسع لهم الطريق فبلنوا ما يريدون من
 الملك والمجد .

أغاضل الناس أغراضا لذا الزمن	يخلو من الهم خلاهم من القطن
وإنما نحن في جيل سواسية	شرعى الحر من سقم على بदन
حولى بكل مكان منهم خلق	تخطى إذا جئت في استنهابها يمن
لا أقتري بلدا إلا على غيري	ولا أمر خلق غير مضطهرين (أ)
ولا أعشرين أملاكهم أحدا	إلا أحق بضرب الرأس من وشن
إنى لأخذ رهم مما أغفهم	حتى أغف نفيس فيهم وأنيس

والأبيات دعوة إلى ضرب رؤس هؤلاء الحكام ، ومناضلتهم وإن كانت
 دعوة غير مباشرة . لكن تؤكد بها الأبيات التي تليها والتي تعظم النضال
 (أ) لا أقتري : لا أتبع (من قوت المكان ، واستقرره ، وقوته أى تنهته)
 انظر المنجد في اللغة مادة " قرو " .

وترفع من شأنه ، وتتجسد من خلالها بطولة المتنبي النضالية :

قد هون الصهرُ عدى كل نازلة ولين العزمُ حدَّ المركب الخشن
كم مخلص وعلا في خوض مهلكة وقتلة قويت بالدم في الجين (١)

وهكذا يعظم المتنبي ويرفع من شأن المناضلين ، الخاضعين للمهالك في سبيل العلا والمجد في الوقت الذي يحط فيه من قدر الجبناء ، الذين ملاحظتهم الدم بعد أن يلاقوا حتفهم ، ولا يمدرك ذلك إلا عن مناضل وجد سمادته في ذلك النضال الذي سمى إليه نفسه ، وتعلقت به روحه وعشقه قلبه ، فأصبح سمة من سماته ، وعلامة من علامات شخصيته ، ومقوما من مقومات ذاتيته .

وظل حب أبي الطيب للنضال ، وعشقه له سيطرا عليه ، بارزا في كل أفعاله مجسدا تلك البطولة النضالية فيه :

تفرَّب لا مستعظما غير نفسه ولا قابلا إلا لخالقه حكما
ولا سالكا إلا فؤاد عجاजे ولا واجدا إلا لمكرمة طعما
يقولون لي : ما أنت في كل بلدة ؟

وما تبتغي ؟ ما أبتغي جل أن يسمي
كان بينهم عالمون بأنثى جلوب إليهم من معادته التما
وما الجفجف بين الماء والنار في يسدي
بأصعب من أن أجمع الجد والقها
ولكنني مستعربذ بأبي ومركب في كل حال به الفشا
وجاعلة يوم اللقاء تحببني والأفلس السيد البطل القرما
إن قل عزيز عن مدى خوف بحد فأبعد شئ يمكن لهجد عزما (٢)

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري ج ٤ ص ٢٠٩ وما بعدها .

(٢) نفس المرجع السابق ج ٤ ص ١٠٧-١٠٩ .

وتتردد هذه المعاني في شعرا أبي الطيب كثيرا فإن لم يكن دائماً فهو لا يمل التفتي ببطولته النضالية ، التي يحرص على تجسيدها من خلال أشعاره والتي تتناهى مع الجرى وراء ملذات الحياة ومتعتها :

دع النفس تأخذ وسعها قبل يئسها
تفتري جاران دارهما العسر
ولا تحسب المجد زقا وقهنة فما المجد إلا السيف والفتنة البكر
وتضرب أعناق الملوك وأن ترى لك الهوى والسود والعسكر المجر (١)
وتركك في الدنيا دوماً كأنما تداول سمع المرء أنله العشر (٢)

إنها أبيات حكمة يستشف منها ما يرس إليه أبو الطيب من معاني البطولة النضالية التي تكن في دعوته لضرب أعناق الملوك من الأتاجم الذين تحكموا فيما لا يملكون ، إلى جانب ما فيها من تمجيد للسيف ، والقنصل والجر للجيش ، وأن يترك الإنسان في الدنيا دوماً يملأ أذان الدنيا كلها ولن يستطيع أحد أن يترك ذلك الدوى إلا بفنزال أولئك الأتاجم الذين فرضوا سيطرتهم على كل شيء .

ولقد استطاع أبو الطيب أن يترك في هذه الدنيا دوماً ، لم يستطيع غيره أن يترك فيها مثله . وظل أبو الطيب يستنهيهم العرب أولئك الذين ضاع حقهم مناشداً إياهم أن يستردوا ذلك الحق وأن يعيدوا لأنفسهم مجدهم ، وعزتهم ، ولكن آماله خابت في أهل عصره أولئك الذين رضوا بالذل ، واستكانوا له لصغر نفوسهم ، وللم طبعهم .

(١) الهويات : جمع هبة : وهي القبرة المنظمة / والمجر : الجيش العظيم .

(٢) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح المعبري ج ٢ ص ١٤٨ و ١٤٩ .

وعلى الرغم من ذلك فإن أبا الطيب - الذى جبل على النضال وجهه -
لم ييأس ، بل ظل يدعو إلى هذا الحق الذى قل أنصاره ، والساعون
إلى استرداده :

سأطلبُ حقَّ بالقنا ومشايعُ كأنهم من طول ما التفتوا مُردُّ
ثقالٍ إذا لا قوا خفافٍ إذا دُعُوا
كثيراً إذا شدوا قليلٍ إذا عدوا
وطمنَ كان الطمن لا طمنَ عدوهُ
وضربَ كان النار من حره يَـمُردُّ
إذا شئتَ خفتَ بين على كلِّ ساهجٍ
رجالٌ كأنَّ الموتَ في نسيها شهدُ (١)

وهكذا لا يشغل أبا الطيب إلا الطمن ، والضرب ، والرياح ، والخيول
والرجال الذين يستعذبون طعم الموت في سبيل استرداد حقوقهم ، وهذه
كلها من سمات شخصية المناضلين ، الذين يجدون في هذا النضال
سعادتهم .

وتصدر عن أبي الطيب حكم كثيرة صادرة عن تجربته التى تحركها
بطولة النضال في نفسه من ذلك قوله :

من الحلم أن تستعمل الجهل دونيهِ
إذا اششعت في الحلم طرق المظالم
وأن ترد الماء الذى سطره دمٌ فتشقى إذا الهسق من لم يراحِمِ

وهو أكد أبو الطيب حكمته هذه ، بأبيات تتجسد من خلالها بطولته النضالية :

(١) ديوان أبي الطيب المتنبى بشرح العكبرى ج ١ ص ٣٧٣ ، ٣٧٤ .

ومن عرف الأهم معرفتي بها والناس روى ربحه غير راجح
فليس يمرحوم إذا ظفروا به ولا في الردى الجارى عليهم يأتي
إذا صلت لم أترك معاً لصال وإن قلت لم أترك مقالاً لعالم (١)

ويظل أبو الطيب - من خلال أشعاره متغنياً ببطولته النضالية ، التي جسدتها أشعاره الذاتية من خلال تغنيته بخوضه المعارك ، وقدرته على القتال ، والطعان ، وإيراده نفسه موارد الهلاك ، يدفعه إلى ذلك قلب جرى ، ونفس قوية أبية :

وتسعدني في غمرة بعد غمرة سبوح لها منها علمها شواهد
تتنى على قدر الطعان كأنما فاجلها تحت الرياح - راود
محرم أكل خيلي على القنا محللة لها بها والقلاء - د
وأورد نفسي والمهندني يدي موارد لا يصدرن من لا يجالس
ولكن إذا لم يحمل القلب كـ على خالتي لم يحمل الكف ساعد (٢)

وهكذا ألف أبو الطيب النضال ، وعرفه ، واعتاده ، وبلغ في ذلك النضال مهلناً كبيراً ، وشأوا بعيداً ، فخياله لا تعرف إلا الكر لا الفر ، مهملاً واجهت من طعان الفوارس ، والكماة ، وذلك الصلح من ملاح شخصية المتنبى ذلك المناضل الشجاع الذي يورد نفسه موارد الموت ، وسيفه في يده ، يحمل قلبه كفه بما أوتى من جرأة ، وما وهب من شجاعة وصبر وجلاد .

(١) ديوان أبي الطيب المتنبى بشرح العكبري ج ٤ ص ١١١ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق نفسه ج ١ ص ٢٢٠ وما بعدها .

ويظل حديث القتال ، والنضال مسيطرا على أعمار أبي الطيب مجسدا
بطولته النضالية في مواجهة ظلم الحكام وفسادهم ، يدفعه إلى ذلك استعداد
نفس لذلك القتال ، والنضال ، وغيرة على العرب ، والعروة ، وتصميم على
استرداد حق ضاع من أصحابه ، واغتيبه الأتاجم ، الأمر الذي ظل يسوق
أبا الطيب ذلك الناضل المتهجد :

إِذَا نَظَرْتَ نُهُوبَ اللَّيْلِ بِسَارَّةٍ فَلَا تَنْظُرَنَّ أَنَّ اللَّيْلَ مُتَسَامٍ
وَسَهْجَةٍ مَهْجَتِي مِنْ هَمٍّ صَاحِبِهَا أَدْرَكْتُهَا بِجَوَائِدِ ظَهْرِ حَرَمٍ
رَجُلَاءُ فِي الرُّكُضِ رَجُلٌ وَالْهَدَانِ بِمَدِّ وَفَعَلَهُ مَا تَهْدِي الْكَفَّ وَالْقَدَمُ
وَمَرْهَفٌ سَرَتْ بَيْنَ الْجَحْفَلِينَ بِهِ حَتَّى ضَرَبَتْ وَمَوْجَ الْبَحْرِ يَلْتَلِطُ
فَالْخَيْلُ وَاللَّهْلُ وَالْبَهْدَاءُ تَعْرِفُنَنِي وَالضَّرْبُ وَالطَّعْنُ وَالْقِرْطَاسُ وَالْقَلَمُ
صَحِبْتُ فِي الْقُلُوبِ الْوَحْشَ مِنْفَرِدًا حَتَّى تَعَجَّبَ مِنْ الْقَوْرِ وَالْأَكْمِ (١)

وهكذا تتجلى من خلال هذه الأبيات بطولية أبي الطيب النضالية
وتجسدها سرعة جواده ، وهزافه سيفه ، وجراته وشجاعة اللتان تدفعانه
إلى خوض الملاحم بين الجحافل الجارية ضاربا بسيفه ، وسط أمواج من
البشر ، وكلها معان تشهد لأبي الطيب بطولته النضالية التي عرفت بها
وعرفت عنه .

إنَّ بطولية أبي الطيب النضالية تأبى عليه أن يقيم على ذل ، وأن يرضى
بهبوان وظلم ، وإنه عاش حياته مناضلا ، داعيا إلى النضال ، والإبـاء .
(١) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري ج ٣ ص ٣٦٨ وما بعدها .

فالموت في عرفه وعرف كل أبي كنه خبر من حياة ذليلة خائفة :

غمر أن الفتى يلقى النايًا كالحي ولا يلقى الهوانا
ولو أن الحياة تبقى لحسن لعددنا أضلنا الشجعانا
وإذا لم يكن من الموت بُدٌّ فمن العجز أن تكون جيانا (١)

إن ذلك الكلام لا يمكن أن يصدر إلا عن عزيز مأين النفس ، مجبول على النضال والكفاح في سبيل العزة والشرف واسترداد الحقوق الضائعة وإنها أبيات تجسد بطولية قائلها النضالية ، وجهه وعشقه لذلك النضال .

إن السيف في عرف أبي الطيب هو قاض حاجات كل مناضل في هذه الحياة فهيفره لا تقضى حاجة ، وهدونه لا يصل المناضلون إلى ما يبتغون :

ما زلت أضحك إيلي كلما نظرت إلى من اختفت أخفافها يدم
أسيرها بين أصنام أعاهد ها ولا أعاهد فيها غمة المنيم
حتى رجعت وأقلام قوايل لي المجد للسيف ليس المجد للقيم
اكتب بنا أبدا بعد الكتاب به فإننا نحن للأسياف كالخدم
أسمعتني ودواشي ما أشرت به فإن تحلت قداني قلة القهيم

من اقتضى يسوى الهندي حاجته
أجاب كل سؤال عن هل يلزم (٢)

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح المعكزي ج ٤ ص ٢٤٢ .

(٢) المصدر السابق نفسه ج ٤ ص ١٥٩ هـ ١٦٠ .

إن الحوار الذي يديره أبو الطيب في هذه الأبيات مع أعلامه والحكماء
التي يسوقها على لسان هذه الأعلام ، كل ذلك تابع من داخله ، وصا در
عن تجربة تحركها بطولة النضال في نفس ذلك الشاعر الذي جبل على النضال
والتزبه نهجا ، وطريقا في هذه الحياة .

ومثلما عاش أبو الطيب حياته يناضل ضد حكام البلاد الأعاجم فقد عاش
حياته - أيضا - وكما قلت من قبل - يناضل الزمن نفسه - الذي يراه دائما
له بالمرصاد :

ليس التعلل بالأمال من أوسى ولا القناعة بالإقلال من شمس
وما أظن بنات الدهر تتركس حتى تمد عليها طرقها هيمس (١)

وهكذا يرى أبو الطيب أن الدهر له بالمرصاد تترصده خطبه ولكنه لا
يعترف اليأس ، فإن له من همه ما يستطيع أن يكف به صرف دهره ونوائمه .

ويطول نضال أبي الطيب ضد زمنه كما طال نضاله ضد من حكموا البلاد من
الأعاجم ويطول - تبعاً لذلك - تغنيه بنضاله ضد ذلك الزمن :

أمتلي تأخذ النكبات منه ويجزع من ملاقات الحسام
ولو برز الزمان إلى شخصاً لخصب شعريه حسام
وما بلغت مشيتها اللهايس ولا سارت وفي يدها زمام (٢)

إن أبا الطيب الواثق من نضاله ، يعلم تمام العلم أن الزمن مهما أوتى
من قوة هطش لن يستطيع أن ينال منه ، مادام مصرا على نضاله عمالكا كل
أسباب ذلك النضال .

(١) ديوان أبي الطيب المتي به شرح المعبري ج ٤ ص ٣٩ .

(٢) المصدر السابق ج ٤ ص ٤٥ .

إن الأبيات الثلاثة السابقة تجسد البطولة النضالية لأبي الطيب وخاصة
التيب الأخير منها الذي يؤكد أبو الطيب من خلاله ضعف الزمن ، وقوة نفسه

وتطول المعركة بين الزمن وبين أبي الطيب ، ويطول صبر أبي الطيب
وتصميمه على نضال الزمن الذي يتخذه الشاعر عدواً حقيقياً يحتاج أبو الطيب
في نضاله له إلى عدة ، وعناد وجيوش ، وخيول :

أَذَاتِي زَمَنِي يَلُوى شِرْقَتُهَا	لَوْ ذَاتُهَا لَبَكِي مَا طَشَ وَانْتَحَبَا
وَأِنْ عَمَرْتُ جَعَلْتُ الْحَرْبَ وَالِدَةً	وَالسَّمْهَرُ أَخَا وَالْمَشْرِقُ أَبَا
بِكُلِّ أَسْعَتٍ يَلْقَى الْمَوْتَ مَبْتَسِمًا	حَتَّى كَأَنَّ لَهُ فِي قَتْلِهِ أَرَسًا
فَمَنْ يَكَادُ صَهْلَ الْخَيْلِ يَقْدِرُهُ	مِنْ سَرَجِهِ مَرَحًا بِالْعَزَا وَطَرَسَا
فَالْمَوْتُ أَعْدُو لِي وَالصَّبْرُ أَجْمَلُ لِي	وَالْبَرُّ أَوْسَعُ وَالِدُنْيَا لِي غَلَا (١)

إن الموت في ساحة القتال لا عذر لأبي الطيب من أن يموت ذليلاً ، وإن
الصبر لأجل به لأن الجزع عادة اللثام ، وإن الدنيا لمن غالب عزاجم لالمن
لزم بهته فوثر السلامة مع الذل والهوان ، وهذا هو منطق كل مناضل حركتهم
وإن أبا الطيب عاش حياته ضارباً في آفاق الأرض مستقلاً من مكان إلى مكان
ومن قطر إلى قطر ، ينزل بالمكان ويظل به مادامت كرامته محفوظة ، وهيبته
مصونة ، فإذا ما أحس بما يخذل هذه الكرامة وهيبته إلى تلك البهية ترك
المكان لا يلوى على شيء . وإن تنقل أبي الطيب من مكان إلى مكان ، يمسد
نضالاً في مواجهة الزمن وخطوبه ، وأبو الطيب نفسه يعلم ذلك ، ويردد كثيراً
على أنه تجسد لبطولته النضالية ضد الزمن وأحداث الحياة :

أَجِدُ الْيَمَّ عُنْدِي فِي سُرُورٍ	تَهْنِ عَنْهُ مَا حَبَّهِ انْتِقَالَا
أَلْفَتْ حَرْجِلِي وَجَعَلْتُ أَرْضِي	قَتَوِي وَالْفَرْسِي الْجَلَالَا
فَمَا حَاوَلْتُ فِي أَرْضٍ مَقَامَا	وَلَا أَرْمَعْتُ عَنْ أَرْضٍ زَوَالَا
عَلَى قَلْبِي كَأَنَّ الرَّحْمَ تَحْتِي	أَوْجِبَهَا جَنُوبًا أَوْ غَمَالَا (٢)

(١) ديوان أبي الطيب المتيب ج ١ ص ١٢٠ ، ١٢١

(٢) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٢٤ ، ٢٢٥

ويتكرر هذا المعنى كثيرا في أشعار أبي الطيب ، مجسداً من خلاله بطولته النضالية ، وقوته في مواجهة الزمان الذي خيل للشاعر أن كل شيء فيه عدو له ، يتربص به ، وينتهاز الفرصة للقضاء عليه ، ولكن أبا الطيب يصمم على نضاله متنفلاً ، من مكان إلى مكان ، معرضاً نحره للرماح ووجهه للهجير ، سارياً في ظلام الليل وحده ، طالبا حاجته التي يعز على غيره أن يصل إليها ، أو أن يبلغ منها ما يريد :

أَوَانَا فِي بَيوتِ الْبَدْوِ رَحِلِي	وَأَوْتُهُ عَلَى قَتْدِ الْبَحْرِ
أَعْرِضْ لِلرَّمَا حِصْمَ تَحْسِرِي	وَأَنْصِبْ حَرَّ وَجْهِي لِلْهَجِيرِ
وَأَسِرْ فِي ظِلِّ اللَّيْلِ وَحْدِي	كَأَنَّ مِنْهُ فِي قَهْرِ مَنِيرِ
فَقُلْ فِي حَاجَةٍ لَمْ أَقْصِ مِنْهَا	عَلَى شَفْعِي بِهَا شَرِي تَقِيرِ
وَتَغِيرْ لَا تَجِيبْ إِلَى خَمْسِهِمْ	وَعَيْنَ لَا تُدَارُ عَلَى نَظِيرِ
وَكَيْفَ لَا تَنَارُ مَنْ أَنَانِي	يَنَارُ عَنِّي مَسَوَى شَرَفِي وَخِيرِ
وَقَلَّةُ نَاصِرٍ جُوزِيَتْ عَيْنِي	بِشْرِ مَنْكَ بِأَشْرِ الدَّهْرِ
عَدُوِّي كُلِّ شَيْءٍ فِيكَ حَقِّي	لَخِلْتُ الْأَكْمَ مُوْغَرَةً الصَّدْرِ (١)

وعلى الرغم من أن أبا الطيب لم ينل من زمنه ما أراد ، وعلى الرغم من قلة ناصره ، وعداوة دهره إلا أنه لا يزال يرى نفسه وحيد دهره وفريد عصره ، فظل يناضل الحكام ، والزمن ، والياس حتى ملا الدنيا وشغل الناس ، وما هوذا يتحدى الدنيا أن تفعل ما تشاء ، فهو الواثق من نفسه وهو القادر على النضال ، مهما كان الزمن عاتياً :

(١) ديوان أبي الطيب المتنبى بشرح المعكري ، ج ٢ ، ص ١٤٢ ، ١٤٣

كذا أنا يدنيا إذا شئت فاذهبي ولما نغمر زندي في كواشيهما قدما
فلا عبرت بي ساعة لا تعزني ولا صحتني مهجة تقبل الظلما (١)

ويظل أبو الطيب مواجهها دهره بشجاعة وثبات ، فطالما تمرس بأزمات الزمن ، ونواب الحياة فما اعتاد إلا على الإقدام غير هباب ، ولوجل :

أطاعن خيلاً من فوارسها الدهر وحيداً وماقولي كذا ومعى الصبر
وأعجم مني كل يوم سلامتي وما أثبتت الأوفى نفسها أمير
تمسكت بها لآفات حتى تركتها تقول ألمات الموت؟ أم ذعر الذعر؟
وأقدمت إقدام الأتني كان ليس يسوى مهجتي أو كان لي عند هاوتر (٢)

وهذا تتجسد من خلال هذه الأبيات بطولية أبي الطيب الذاتية فسي مواجهة دهر قاس ، عات لا يستطيع إلا كل مناضل قوى ، جبار ، عتيد .

وهطول تعقب الدهر لأبي الطيب الذي يزيد صعوده للدهر يوماً بعد يوم ، حتى اعتادت نفسه ذلك ، وهانت في عينيه مصائب الدهر ، وتكاثرت فلم يعد يوليها اهتماماً ، لأنه يعلم تماماً أن الدهر مهما عظم عدو له فلن يستطيع أن يقهره :

رمانى الدهر بالآثام حتى فوادي في غشا من نبال
فصرت إذا أصابتنى سهام تكسرت النصال على النصال

(١) ديوان أبي الطيب المثنوي بشرح المكبري ج ٤ ص ١٠٩

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٤٨ .

وَهَانَ فَمَا أَبَالِي بِالرَّزَايَا لَا تَنِي مَا تَنْفَعْتُ بِأَنْ أَبَالِي (١)

والأبيات تجسيد لبطولة أبي الطيب النضالية ضد الزمن الذي يلاحق
أبا الطيب بمسأله ونباله ، والذي يقف له بالعصا يضارده عن كل
ما يهيم به :

أَهْمُ شَيْءٍ وَاللَّيَالِي كَأَنَّهُمَا تَطَارِدُنِي عَنْ كَوْنِهِ وَأَطَارِدُ
وَحِيدٌ مِنَ الْخَلَلِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ إِذَا عَظُمَ الْمَطْلُوبُ قَلَّ الْمُسَاعِدُ (٢)

وهكذا تطارد الأيام أبا الطيب عن أهدافه ، وغاياته ، ولكنه يرد على
مطاردها إياه بمطاردة مثلها تشهد له بنضاله لها ، وصموده فـسـي
مواجهتها ، وتسميه على هذا النضال ، وذلك الصمود ، وضيق أـسـو
الطيب في ختام هذين البيتين هذه الحكمة الصادرة عن تجربته التي
تحركها بطولته النضالية ، التي لا تخنع ، ولا تتراجع عما تطلب مهما عظم
مطلوبها ، وقل من يعينها على بلوغه والوصول إليه ، وهذا هو سر عظمة
هذه البطولة .

إن سر عظمة أبي الطيب ذلك المناضل هو بعد غاياته ، وأماله
اللا محدودة ، التي تكلفه التهجير في كل مهيم ، والانتقال من مكان إلى
مكان ، سعيا وراء غاية بعيدة ، ومطلب نابع عمير :
وَفِي النَّاسِ مَنْ يَرْضَى بِمَنْعِهِ عَيْشَهُ وَمَرْكَبُهُ رِجْلَاهُ وَالثَّوبُ جِلْدُهُ

(١) ديوان أبي الطيب المعتنق بشرح العكبري ج ٣ ص ٩ ، ١٠ .

(٢) المصدر السابق ج ١ ، ص ٢٧٠ .

ولكن قلبا بين جنبي ماله مدى ينتهي بي في مراد أحده
يرى جسمه يكسى شغوقا تربه فيختار أن يكسى دروعا تهده
يكلفنى التهجير في كل مهمه عليقى مراعيه وزادى رنوده (١)

إن أبا الطيب قد اتخذ من نضال الحكام الفاسدين ، والزمن
والناس طريقا ، ومنهاجا يخفى من ورائه سلامة عرضه ، ويهون عليه كل
ما يلقاه في هذا السبيل :

وإننا لنلقى الحاد ثابا نفس كثير الزايا عند هن قليل
يهون علينا أن تصاب جسمنا وتسلم أعرافنا وعد قول (٢)

يطول نضال أبا الطيب للزمن ، وعلى الرغم من ذلك النضال المستمر
والملاحق إلا أن نفسه لا تفتيب ، وقوته لا تضعف ، فلم يستطع الدهر بما
أوتي من قوة أن يغير شيئا مما جبلت عليه نفس أبا الطيب ذلك المتناضل
العنيد :

وفي الجسم نفس لا تشيب يشبه ولو أن ماني الوجوه منه جراب
لها ظفر إن كل ظفر أعده وناب إذا لم يبق في الفم ناب
يغير ماني الدهر ما شاء غيرها وأبلغ أقصى العمر وهي كعاب (٣)

والآيات تجسد بطولة أبا الطيب النضالية ، فهو يهدد عدته لنضال
الزمن فيجدد ظفر نفسه ، ونابها ليظل على استعداد لمواصلة ذلك

(١) ديوان أبا الطيب بشرح العكبري ج ٢ ، ص ٢٢ .
(٢) المصدر السابق ج ٣ ، ص ١٠٩ .
(٣) المصدر السابق ج ١ ، ص ١٩٠ .

النضال ، الذى جبل عليه ، واتخذته ديدنه فى هذه الحياة .

ويواصل أبو الطيب تغنيته ببطلوته النضالية فى مواجهة الزمن وكأنه فى معركة حقيقية مع عدو لا يكف عن معاداته ، والكيد له :

تَرَكْنَا لِأَطْرَفِ الْقِتَالِ كُلِّ شَهْوَةٍ فَلَيْسَ لَنَا إِلَّا بَيْتٌ لِعِصَابٍ
نَصْرُهُ لِلطَّعْنِ فَوْقَ حِوَاذِرٍ قَدْ انْقَصَتْ فِيهِ مِنْهُ كِعَابُ
أَعَزِّ مَكَانٍ فِي الدُّنْيِ سَرَجٌ سَابِغٌ وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِي الزَّمَانِ كِيسَابُ

وهكذا يختتم أبو الطيب هذه الأبيات بهذه الحكمة " أعز مكان فى الدنئى سرج سابع " وهى حكمة أملت بها عليه ظروف حياته النضالية ، وهى تجسيد لبطولة متأصل لم يجد سبيلا يضمن له العزة إلا سبيل النضال هذه ، فيه يعيش العزى عزى مهيب الجانب .

وتعلق أبى الطيب بالعزة ، والسوء قد جعله فى نضال مستمر
موجود سعادته فى ذلك النضال ، فى الوقت الذى وجد فيه غـيـره
سعادتهم فى اقتناص لحظات اللذة فى هذه الحياة :

لَوْلَا الْعُلَى لَمْ تَجِبْ بِي مَا أَجُوبُ بِهِمَا
وَجَنَّا حَرْفٌ وَلَا جَرْدٌ أَفْسَدَ
وَكَانَ أَطْيَبَ مِنْ سِقْيِ مَضَاجِعِهِ
أَشْيَاءُ رَوْقِهِ الْغَيْدُ الْأَمَلِيدُ

لم يترك الدهر من قلبى ولا كبريدى
شيئا تنيمه عين ولا جبيد (١)

(١) ديوان أبى الطيب المعتبى بشرح العكبرى ج ٢ ص ٢٩ ، ٤٠ .

وعلى الرغم من كيد الزمن لأبي الطيب ، وما قابل ذلك الكيد من صبر
وصمود ، ونضال من جانب الشاعر الذي أحس (أو هكذا تخيل) ، أن
الزمن على الرغم من كيد له ، إلا أنه لم يملك إلا أن يعجب من ذلك
المنافذ الذي رفض الخضوع له ولسطوته :

سبحان خالقِ نفسي كيف لذَّتهَا
فيما النفوس تراء غايَةَ الألم
الدهرُ يعجب من حملي نوائمه
صبر جسي على أحدائه الحطم (١)

وإذا كان أبو الطيب قد عاش حياته منافلاً ضد حكام البلاد ممن
الآعاجم ، ضد الزمن والناس ، فإن المرض من مصائب الزمن ونكباته ، ولقد
قدَّر لأبي الطيب أن ينافل المرض ، وأن يصبر على مواجهته حين المتبه
الحَي في مصر :

أقمت بأرض مصر فلا ورائسي	تخب بي المعطي ولا أمامي
وليتي الفراش وكان جنبي	يمل لقاؤه في كل عمام
قليل عايدى يقيم فوادي	كثير حاسدي صعب مرامي
عليه الجسم ممتنع القيام	شد يد السكر من غير المدام
وزائرتي كأن بها حياء	فليس تزور إلا في الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا	فعاقتها وابت في عظامي
يضيق الجلد عن نفسي وعنهما	فتوسعه بأنواع السقام

(١) ديوان أبي الطيب المتنبى بشرح العكبري ج ٤ ص ١١٣ .

إِذَا مَا فَارَقْتَنِي غَسَلَتْ نَفْسِي كَأَنَّا عَاكِفَانِ عَلَى حَرَامٍ
كَأَن الصَّبِيحَ يَطْرُدُهَا فَتَجْبِرِي مَدَامِمْهَا بِأَرْبَعَةِ سَجَّامٍ
أَرَاقِبُ وَقْتَهَا مِنْ غَيْرِ شَوْقٍ مِرَاقِبَةُ الْمَشُوقِ الْمُسْتَهَامِ
وَيَصْدُقُ وَعْدُهَا وَالصَّدُوقُ شَرٌّ إِذَا أَلْقَاكَ نَفَى الْكَرْبِ الْعِظَامِ
أَيُّنْتَ الدَّهْرَ عِنْدِي كُلَّ يَنْتِ فَكَيْفَ وَصَلْتَ أُنْتَ مِنَ الرَّحَامِ
جَرَحَتْ مَجْرَحًا لَمْ يَبْقَ فِيهِ مَكَانٌ لِلْسَيُوفِ وَلَا لِلْمَهَامِ (١)

وهي أبيات تجسد بطولية أبي الطيب النضالية ، ففي كل بيت منها
نحس النضال ، ونستشعره ، ونحسبه ونستشعره في ملل الفراش إياه
وفي سقم فؤاده ، وفي امتناع قيامه ، وفي استيقاظه لزاشرته كل مساء
واستعداداته النفسى لذلك الاستقبال ، وفي بذله المطارف لها
ومحاولة التغلب عليها ، وفي سرياتها بين جلده وعظامه ، وفيما يتصيب
منه من عرق كل صباح عند مفارقة الحمى إياه وفي مراقبته وقتها بشئ من
الملل والضيق ، وفي جراحه التي لم يخل منها مكان من جسده .

إن الأبيات تجسد معاناة أبي الطيب ، ونضاله لمرضه الذي ألم به
ولكن على الرغم من هذه المعاناة التي طالّت ، وطال تجسّد أبي
الطيب لها ، إلا أن الشاعر المناضل لم يضعف ولم تهين عزيمته في مواجهة
ذلك المرض ، بل ظل قويا عتيدا واثقا أن قوة نفسه كافية أن تواجه
المرض ، وأن تنتصر عليه :

فَلَنْ أَمْرُضَ قَمَا مَرِيضَ أَصْطَبَارِي وَإِنْ أَحْمَ قَمَا حَمَ اعْتِزَامِي
وَإِنْ أَسْلَمَ قَمَا أَبْقَى وَلَكْسِن مِلِمْتُ مِنَ الْحِمَامِ إِلَى الْحِمَامِ

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري ج ٤ ، ص ١٤٥ وما بعدها

وهذه الحكمة التي يختتم بها أبو الطيب حديثه عن مرضه ، وتصويره
لنضال ذلك المرض ، هذه الحكمة ، مستقاة من تجاربه النضالية فهي
مترقوته ، وهي دافعه إلى النضال المستمر والمتلاحق مع الزمن ، والناس
لأنها تجسد إيمانه العميق بأن لكل أجل كتابا ، وأن العمر لا يطيله
جبن ، ولا يقصر منه إقدام ، أو شجاعة ، ومثلما ناضل أبو الطيب حكام
البلاد الأعاجم ، وناضل الزمن مواجهها مصائبه ونكباته ، فقد ناضل
الناس كذلك ، أولئك الذين حصدوا عليه مكانته وكادوا له ، وتعقبتهم
وشاياتهم في كل مكان حل به ، وتتجسد من خلال أشعار أبي الطيب
بطولته النضالية ضد هؤلاء الحساد ، والشائنين من الناس :

أَزَلَّ حَسَدَ الْحَسَادِ عَنِّي يَكْثَرُهُمْ
فَأَنْتَ الَّذِي صَيَّرْتَهُمْ لِي حَسَدًا
إِذَا شَدَّ زَنْدِي حَسَنَ رَأْيِكَ فِي يَدِي
ضَرَبْتَ بِنَصْلِ يَاقُوتٍ يَطْعَمُ الْهَامَ مَغْدَا
وَمَا أَنَا إِلَّا سَمْبَرِي حَمَلْتُ سَهْمَهُ
فَزَيْنَ مَعْرُوضًا وَرَاعَ مَسَدًا
وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا مِنْ رِوَاةٍ قَلَائِدِي
إِذَا قَلْتُ شِعْرًا أَصْبَحَ الدَّهْرُ مَنِيْدًا
فَسَارَ بِهِ مِنْ لَا يَمِيرُ مَشْعُرًا
وَعَنَى بِهِ مِنْ لَا يَغْنَى مَغْرَدًا (١)

وهكذا لا يرى أبو الطيب نفسه إلا مناضلا حتى وهو بين الشعراء *

(١) ديوان أبي الطيب المعتزلي بشرح العكبري ج ١ ص ٢٨٩ وما بعدها .

فهو لا يقول شعرا وإنما يضرب بتصل يقطع الهام وهو مفعد ، فالأبيات
أشبه بتصوير معركة منها بالحدث عن حساد أو وشاة .

والمعركة الدائرة بين أبي الطيب وحساده مستمرة لا تنقطع ، وهو
يحسب أنه كل يوم في نضال مع هؤلاء الحساد من الشعراء الذين يحاول
كل واحد منهم أن يقاوى أبا الطيب ، وأن يطاوله وما منهم إلا ضعيف
أو قصير :

أَفِي كُلِّ يَوْمٍ تَحْتَ ضَبْنِي شَوَيْعِرٌ ضَعِيفٌ يَقَاوِمُنِي قَصِيرٌ يَطَاوِلُ
لِسَانِي بِنَطْقِي صَامِتًا عَنْهُ عَادِلٌ وَقَلْبِي بِصَمْتِي ضَاكِكُ مِنْهُ هَازِلٌ
وَأَتَعَبُ مَنْ نَادَاكَ مِنْ لَا تُجِيبُهُ وَأَغْضُظُ مَنْ عَادَاكَ مِنْ لَا تُشَاكِلُ
وَمَا التَّيْهَ طَلَبِي فِيهِمْ غَيْرَ أَتْنِي بِغِيضٍ إِلَى الْجَاهِلِ الْمُتَعَايِلِ (١)

فأبو الطيب وإن بدا من خلال هذه الأبيات صامتا ساخرا من هؤلاء
الأعداء ، استخفافا بهم وازدرا لهم ، إلا أنه يناضلهم من خلال هذا
الازدراء ، وذلك الاستخفاف ، فليس كل نضال يكون بالسيف والرمح
فهناك النضال باللسان ، وهناك النضال من خلال الصمت ، وأحيانا
يكون من أقصى أنواع النضال :

وَأَتَعَبُ مَنْ نَادَاكَ مِنْ لَا تُجِيبُهُ وَأَغْضُظُ مَنْ عَادَاكَ مِنْ لَا تُشَاكِلُ
اليس هذا نضالا ؟ بل من أقصى وأشد أنواع النضال ؟ أن يزدري
الإنسان عدوه فلا يعيره اهتماما ، إمامانا في إغاظته وإثارة حفيظته .

(١) ديوان أبي الطيب المعتنبي بشرح العكبري ج ٣ ص ١١٧ .

إن أبا الطيب عرف النضال بأنواعه وأشكاله ، واستخدم هذه الأنواع وتلك الأشكال في نضاله للحكام غير الشرعيين ، وللزمن ، وللناس ، ولكن الأمر في اختياره لكل عدو ما يشاكله من أنواع النضال متوقف على ذلك العدو نفسه .

يكثر حساد أبي الطيب ، وشائثوه ، وهذا قدر كل عظيم في هذه الحياة ، وتطول - تبعاً لذلك - رحلة نضاله مع هؤلاء الحاسدين والشائثين ، يصور أبو الطيب ذلك من خلال أشعاره المتعددة فسيحاسديه ، وشائثيه ، والحاقدين عليه :

وَإِنِّي وَلَيْسَ لَمْتَحَايِدِي فَمَا أَفْكَرُ أَنِّي عَقِيَّةٌ لَهُمْ
وَكَيْفَ لَا يَحْسُدُ أَمْرُو* عَلَيَّ لَهُ عَلَى كُلِّ هَامَةٍ قَدْ مَ
تَهَابَهُ أَيْمَانُ الرَّجَالِ بِهِ وَتَتَقَى حَدَّ سَيْفِهِ الْبَهْهُمُ (١)

وهي أبيات تجسد هي الأخرى بطولية " أبي الطيب " النضالية وهيبة حساده له ، أولئك الذين يرى أبو الطيب أنه إنما خلق في هذه الحياة عقيمة لهم ، إذ لا يكف عن نضالهم ، والوقوف لهم بالمرصاد يصد هم إذا ما زاحموه ، ويصكتهم إذا ما نطق :

أَنَا صَخْرَةٌ الْوَادِي إِذَا مَا زُجِمَتْ وَإِذَا نَطَقَتْ فَيَأْتِي الْجَسُورُ
وَإِذَا خَفِيتُ عَلَى الْغُرْبَى فَعَلَّازٌ أَنْ لَا تَرَانِي مُقَلَّةً عَمِيَّا (٢)

(١) ديوان أبي الطيب المثنوي بشرح المعكبري ج ٤ ص ٥٩ ، ٦٠ .
(٢) المصدر السابق ج ١ ص ١٥ .

ويواصل أبو الطيب نضاله لحساده من المستشاعرين ، فاضحا إياهم
ومعربا لهم :

خَلِيلِي إِنِّي لَا أَرَى غَيْرَ شَاعِرٍ فَلَمْ يَشْهَمْ الدَّعْوَى وَمِنِّي الْقَصَائِدُ (١)

ويواصل إلى جانب ذلك ازدراءه لهؤلاء الحساد ، واستخفافه لهم
ثم قصوته عليهم بعد ذلك وهي ألوان وضروب من النضال الذي جهلت عليه
نفس أبي الطيب :

أَنَا الَّذِي نَظَرُ الْأَعْيَ إِلَى أَدَبِي وَأَسْمَعْتُ كَلَامِي مَنْ بِهِ صَمٌّ
أَنَا مَلٌّ جَفَوْنِي عَنْ شَوَارِدِهِمَا وَسَمِعُوا الْخَلْقَ جَرَاهَا وَخَتَمُوا
وَجَاهِلٌ مَدَّ فِي جَهْلِهِ فَحَكِيصِي حَتَّى أَتَتْهُ يَدُ فِرَاسَةٍ وَقَسَمُوا (٢)

والبيت الأخير يجمد بطولية أبي الطيب النضالية في مواجهة حاسدة به
وشائثة من أولئك المستشاعرين ، الذين ظل أبو الطيب يناغلهم طسوال
حياته .

ويظل أبو الطيب متعقبا خصومه ، وحساده من الشعراء ، يلهمهم
بلسانه ، مناضلا إياهم ، كاشفا عوارهم ، وضعفهم :

شَرُّ الْبِلَادِ بِلَادُ لَا صَدِيقٍ يَهْجُو وَشَرُّ مَا يَكْتُمُ الْإِنْسَانُ مَا يَخْتُمُ
وَشَرُّ مَا قَنَصْتَهُ رَاحَتِي قَنَصْتُ شَبَّ الْبَرْزَةِ سَوَاءٌ لِيهِ وَالرَّحْمُ

(١) ديوان أبي الطيب المعتزلي بشرح العكبري ج ١ ص ٢٧١ .

(٢) المصدر السابق ج ٣ ص ٣٦٧ ، ٣٦٨ .

يَأْيَ لَفْظٍ تَقُولُ الشَّعْرُ زَيْنْفَةً تَنْجُوزُ عِنْدَكَ لَا عَرَبٌ وَلَا عَجَمٌ (١)

وتظل عداوة هو* الحاسد بين توثق أبا الطيب ، ولكنه لا يكف عن
تفاليهم ، ومواجهتهم :

أَنَا السَّابِقُ الْهَادِي إِلَى مَا أَقُولُهُ إِذَا الْقَوْلُ قَبْلَ الْغَائِلِينَ مَقُولٌ
وَمَا لِكَلَامِ النَّاسِ فِيهَا يَرِيسُنِي أَصُولٌ وَلَا لِلْقَائِلِيهِ أَصُولٌ
أَعَادَى عَلَى مَا يَجِبُ الْحُبَّ لِلْفَتَى وَأَهْدَأُ وَالْأَفْكَارُ فِي تَجُولٍ
يَبْوَى وَجَعَ الْحَسَادِ دَاوِ فَإِنَّكَ إِذَا حَلَّ فِي قَلْبٍ فَلَيْسَ بِحَوْلٍ
وَلَا تَطْلَعَنَّ مِنْ حَائِدٍ فِي مَوَدِّ وَإِي كَتَّ تَبْدِ بِهَا لَهُ وَتَهْمِلُ (٢)

وهذه الوصية ، أو هذه الحكمة التي يختتم بها أبو الطيب هذه
الآهيات ، صادرة عن تجربته التي اكتسبها بعد طول نضال مع الزمن
والناس ، فهذه الحكمة هي في واقع الأمر دعوة غير مباشرة إلى مواصلة
النضال مع الحاسدين ، والثانئين الذين يستبعد أن تعود مودتهم
من جديد ، فهي تجسيد لهطولة أبي الطيب النضالية التي عرف بها
وعرفت عنه ، واشتهر بها بين الناس .

وأبو الطيب هو* كد أنه لا يريد بنضاله هذا كمد حساده ، ولكن
النضال شيء متاصل فيه فهو بحر زاخر هائج ، ومن فكر في أن يزحم
ذلك البحر فلا بد أن يغرق :

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري ج ٣ ص ٢٧٣ .
(٢) المصدر السابق ج ٣ ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

أَذِمُّ إِلَى هَذَا الزَّمَانِ أَهْلَهُ فَأَعْلَمُهُمْ قَدَمَ وَأَحْزَمُهُمْ وَغَدَ
وَأَكْرَمُهُمْ كَلْبًا وَأَبْصَرُهُمْ عَيْمًا وَأَسْهَدُهُمْ قَهْدًا وَأَشْجَعُهُمْ قَوْدًا
وَمَنْ نَكَدَ الدُّنْيَا عَلَى الْحَرَانِ يَرَى عَدُوًّا لَهُ مُؤْمِنٌ صَدِيقَتَهُ بِسَدِّ (١)

وهكذا يعبر أبو الطيب حياته متاضلا ضد من حكم بلاد المسلمين من
الآعاجم ، الذين اغتصبوا الناس حقوقهم ، ضد الزمن نفسه ، الذي
وقف لأبي الطيب بالعصاة ، ضد حساده ، وشائتيه والحاقدين عليه
من شعراء عصره ، وغيرهم ، واستطاع أبو الطيب من خلال أشعاره أن
يصور بطولته النضالية التي تجسد حتى استحق أبو الطيب بهذا أن
يمثل البطولة النضالية بين شعراء القرن الرابع الهجري .

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري ج ١ ص ٣٧٤ ، ٣٧٥ .

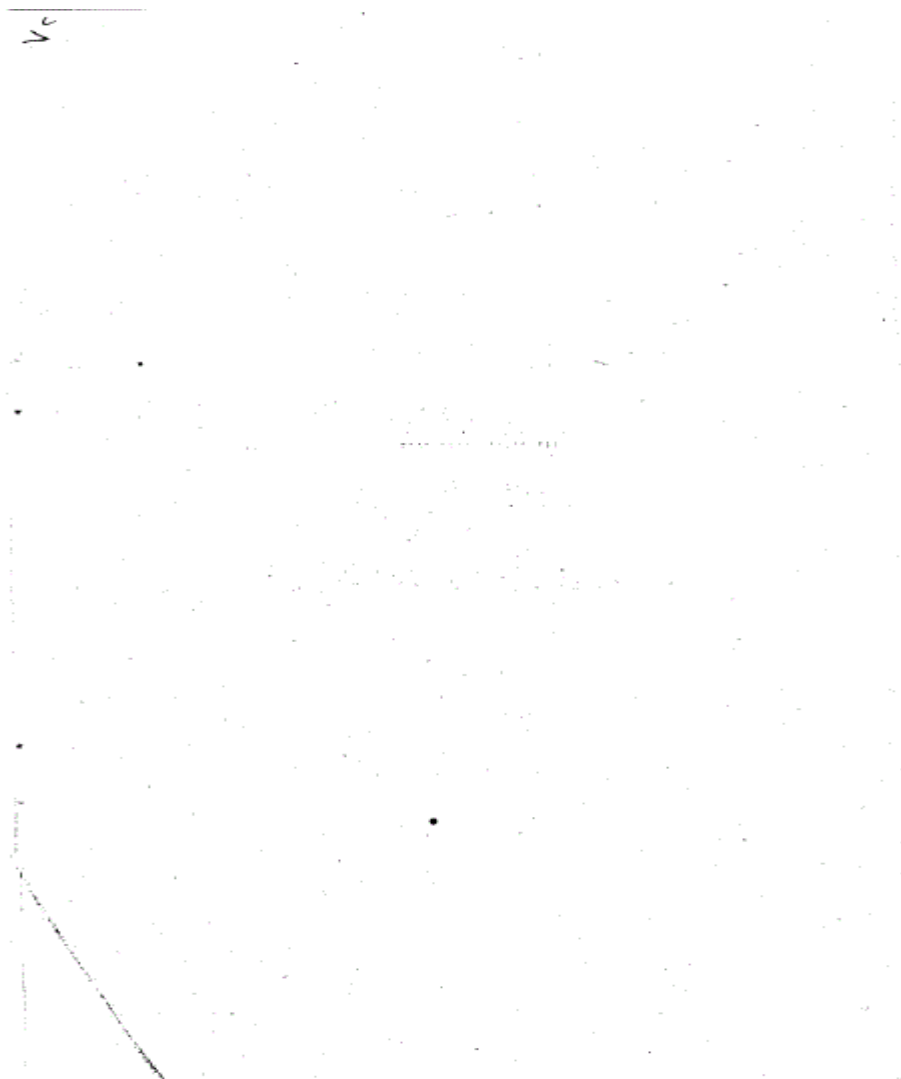
الفصل الثاني

أبو نراس الحداني

بين

بطولة النصارى وجرى الهزيمة

V_c



الفصل الثاني

أبو فراس الحمداني بين بطولة النصر وجرح الهزيمة

هو الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي الربيعي ، وهو ابن عم سيف الدولة الحمداني أمير حلب .^(١)

يقول عنه صاحب اليتيمة : " كان فرد دهره ، وشعر عصره ، أدباً وفضلاً ، وكرماً ، ونبلًا ، ومجدًا ، صلاحًا ، مראהً ، وفروسيةً ، وشجاعةً وشعره مشهور ، ماثور بين الحسن والجودة ، والسهولة والجزالة والعدوّة والفخامة ، والحلاوة والمثانة ، ومعها رواة الطبع ، وسعة الظرف وعزة الملك " .^(٢)

عاصر أبو فراس في أوائل القرن الرابع الهجري ، وكتب له أن يعيش أحداث ذلك القرن ، هذه الأحداث التي تمثلت في القوضى والفساد الذي عم البلاد في تلك الفترة الزمنية ، التي صاحبها ثورات سياسية وما تبع ذلك من تناقض بين الأمراء في سبيل الإمارة .

لزم أبو فراس منذ طفولته ابن عمه سيف الدولة بن حمدان أمير حلب فترى في بيت من بيوت الملك ، وورث الإمارة عن أبيه وإن كان قد بدأ حياته يتيمًا ، بعد أن مات أبوه وهو في الثالثة من عمره إلا أن ابن عمه

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان - طبعة الحلبي - ج ١ ص ١٢٧

(٢) يتيمة الدهر للشمالي ج ١ ص ٥٧ .

وزوج أخته سيف الدولة قد تولى تربيته ، وأحاطه برعايته ، وأبو فراس نفسه يذكر ذلك كثيراً عارفاً لسيف الدولة ذلك الفضل ، فهو مربيه وراعيه :

هَلْ لِلْفَصَاحَةِ وَالسَّيِّمَا حَجَّةٌ وَالْعُلَى عَنِّي مَجِيدُ ؟
إِذْ أَنتَ سَيِّدِي الَّذِي رَبِّيتَنِي وَأَبِي سَعِيدُ
فِي كُلِّ يَوْمٍ اسْتَفِيدُ مِنَ الْعِلْمِ وَأَسْتَفِيدُ
مِنْهُ فَإِذَا رَأَيْتُ تَكَ فَيَ النَّدَى خَلَقَ جَدِيدُ (١)

ويشب أبو فراس في بيت ابن عمه ذاك الأمير ، يرى كل يوم جيوشاً تعد لقتال الروم ، يسمع عن انتصارات باهرة حققها سيف الدولة على أولئك الأعداء ، فينشأ أبو فراس تبعاً لذلك نشأة حربية ، وصري حب القتال في شرايينه ، وما إن شب حتى ينضم إلى صفوف ابن عمه سيف الدولة محارباً ماهراً ، وحقق انتصارات باهرة جعل ابن عمه يثق فيه فكان يستخلفه على البلاد إذا خرج غازياً ، مثلاً حدث حين استخلفه على الشام لمّا عزم على الغزو . (٢)

واصطناع سيف الدولة لأبي فراس ، ورعايته إياه خلفاً منه فارساً كبيراً جرب الوقائع وخاضها ، وتمرس بالقتال ، صرع فيه وما إن يبلغ التاسعة عشرة من عمره حتى يقلده ابن عمه سيف الدولة "مَنْجِج" و "حران" ...

(١) ديوان أبي فراس الحمداني عن يجمعه ونشره وتعليق حواشيه
بوضع فهارسه سامي الدهان - بيروت ١٣٦٣ هـ / ١٩٤٤ ج ١ ص ٧٢
(٢) يتيمة الدهر للشعالبي ج ١ ص ٦٠ .

وأعمالهما جميعاً وتقليده " منبجاً " مسئولية كبيرة وخطيرة ، إذ أنهما حصن حلب الحصين ، ولها مكان مكين من نظام العواصم والثغور فالمهمة شاقة والمسئولية عسيرة ، ولكن أبا فراس على حداثة سنه فارس قادر على حماية هذه الإمارة والدفاع عنها ضد القبائل المغيرة ، ضد الروم التي لا تكف عن الغزو ، ويخوض أبو فراس مع هؤلاء وأولئك معارك ضارية ، يسجل فيها انتصارات عديدة تشهد له بالقوسية ، وحسن القيادة ، ويستشعر أبو فراس بطولة النصر في نفسه ، ويسجل كل نصر يحققه على الروم ، ويغيرهم في شعوره بتفانيا بهذه البطولة التي استشعرها في داخله ، وأحمر أنه جدير بها على الرغم من حداثة سنه وعظم بطولته ، وكثرة انتصاراته التي حققها طويلاً تحت إمرة ابن عمه وزوج أخته سيف الدولة بن حمدان ، وطويلاً حين تولى بنفسه قيادة الجيوش .

ويظل أبو فراس مواصلاً حياة الحرب ، والقتال تارة مع القبائل الخارجة وتارة أخرى مع أعداء العرب ، والإسلام من البيزنطيين .

ويأخذ كافي فراس تهتت في بيت من بيوت الملوك ، وتوسى في كتف أمير عربي ، أنف كريم ، كابن عمه وزوج أخته " سيف الدولة بن حمدان " ، وكتب له أن يحيا حياة الفوارس وارثاً هذه الحياة عن جد ، وأب وأعمام وعشيرة وقبيلة - أقول - إن واحداً مثل أبي فراس الحرى بالبطولة ، وجدير بتحقيق النصر ، تلك البطولة ، وذلك النصر اللذان يضمنان لصاحبهما العزة والشعم ، والإبأ .

فما لا شك فيه : " أن المرواة ، وحياة المرء الاجتماعية ، منذ نشأته

هما كل شئ* في تكوين شخصيته ، وقد ورت شاعرنا الأمير عن أجداده وأبائه الشئ* الكثير مما عرف به في هذا البيت العربي ، الكريم فكان مطبوع الفطرة على مثل الأخلاق العربية العليا ثم تداولت ظروف حياته هذه الفطرة السليمة الصافية ، فانسقت معها تنميتها ، وتغذيتها فكانت رغباته قيد إرادة قوية ، ومجال واسع في الإمارة والرياسة لتحقيق ما تصبو إليه نفسه العظيمة ، لقد تيسر له - وهو الطامح إلى معالي الأمور - أن يباشر الحرب ، بقيادة الجيوش ، ويتقلب في ذرى الإمارة ، وهو ابن تسع عشرة سنة وهو إلى ذلك يجزورا* ماضيا ضحيا ، وصيتا عريضا من تراث الآباء والأجداد ، ويحمل في قرارة نفسه عقيدة دينية صلبة ، تعرف نفسه معها مالها وما عليها ، فتنت شخصيته وأطلعت خطوطها العامة في وضوح ، وصفا* . (١)

ظل أبو فراس - كما قلت - مواصلا حياة الحرب والقتال حتى شامت له الأقدار أن يقع أسيرا في أيدي الروم* حين أسروه في بعض وقائعهم وهو جريح ، وقد أصابه سهم بقي نصله في فخذه (٢)

وهكذا قدّر لهذا الفارس الأمير ، الذي استشعر بطولة النصر كثيرا في نفسه ، قدّر له أن يستشعر كذلك جرح الهزيمة ، وأن يحسّر ألم الإسار على الرغم من أن الروم أكبروا في أبي فراس بطولته ، وفروسيته ، وعرفوا له مكانته ، فأكرموه إكراما لم ينله أسير قبله في تاريخ الحروب ، إذ خلوا سلاحه ، وشيابه ، وأنزلوه قسرا كبيرا كان لامبراطورهم .

(١) أبو فراس الحمداني - السيد محسن الأمين الحسيني العاليي -

مطبوعة ابن زيدون - بدمشق - ١٣٦٠ هـ / ١٩٤١ م ، ص ١٢ .

(٢) يتيمة الدهر للشعالبي ج ١ ، ص ٨٥ .

واستطاع أبو فراس من خلال شعره أن يجسد بطولة نصره الذي حققه على الروم لمرارة تلك البطولة التي تختلف في كتبها ومفهومها مع بطولة أبي الطيب المتنبي النضالية التي تجسدت في نضاله ضد المجتمع والحياسة وضد النفس البشرية .

أما بطولة أبي فراس فهي بطولة عسكرية ، أصلتها في نفسه حبساة النضال العسكري ضد الروم وما حققه خلال ذلك النضال من انتصارات عسكرية عمقت معنى البطولة في نفسه الأبهة الكريمة والشجاعة ، التي عرفت الحروب ورأت فيها سعادتها ، وهنا :
•

ومثلما استطاع أبو فراس أن يجسد من خلال شعره بطولته العسكرية وانتصاراته العديدة فقد استطاع كذلك أن يجسد جرح هزيمته حين وقع أسيرا في أيدي أعدائه وأعداء العرب ، والإسلام .

يجسد أبو فراس إحدى انتصاراتهم على الروم في أبيات تتضمن كثيرا من معاني البطولة . تلك البطولة التي استشعرها أبو فراس في داخله بما حقق من نصر تلو نصر :

ولما وردنا الدرب والروم فوقه وقد رقصطين " أن ليس مَادِرُ
ضُحُونَا بِهَا عَرْضُ الْفَرَاتِ " كَانَمَا تَمِيمُونَا تَحْتَ السَّوْحِ جَزَائِرُ
إِلَى أَنْ وَرَدْنَا " أَرْقَتَيْنِ " نَسُوقُهُنَّ
وقد نكلت أعقابها والمخاضُ
ومالَ بِهَا ذَاتُ الْيَمِينِ " بِمَرْعَيشٍ "
مَجَاهِدٌ يَتْلُو الصَّابِرَ الصَّابِرُ
فَلَمَّا رَأَتْ جَيْشُ " الدَّسْتِ " رَاجَعَتْ عَزَائِمَهَا وَاسْتَهْفَتْهَا الْهَامِثِرُ

وما زلن يحملن النفوس على الوجى إلى أن خضبن بالدماء الأفاعير
 وأبن "قسطنطين" وهو مكبل تحف بطريق يسبه وزرا ور
 وولى على الرسم "الدمستق" هاربا
 وفى وجهه عذر من السيف عازر
 فدى نفسه بأبن عليه كنفسه وللشدة الصاء تقى الذخائر
 وقد يقطع العضو النفوس لغيره وتدفع بالأمر الكبر الكبار (١)

وهكذا يتخفى أبو قهراس بانتصارات عديدة على الروم ذاكرا وقائع كثيرة
 ومعارك عديدة ، عهدتها مدن رومية كثيرة ، ثم يتخفى - إلى جانب ذلك
 بأسر - قسطنطين "ابن" "الدمستق" ملك الروم الذى ولى هاربا ، وفى
 وجهه أثر خالد من سيوفهم مشهد لبني حمدان بالبطولة والنصر والشجاعة
 ما بقى "الدمستق" على قيد الحياة .

والإنهات تجسد - كما قلت - لبطولة النصر ، تلك البطولة التى
 عاش أبو قهراس يستشعرها ويحس بها ، ويرددها فى أشعاره كثيرا
 مجسدا إياها ، متغنيا بها :

هذا وكمن غمة كشتها	بشها الظيا وتوقد الخوصان
متجربا فردا يخبر ماعيد	غير الجواد ومرهف وسبان
فإذا بطشت بطشت لثناها سلا	وإذا نطقت نطقت عن تهبان
وإذا قصدت لحاجة لم يثنى	خوف الردى وتصرف الأزيان (٢)

(١) ديوان أبى قهراس الحمدانى - تحقيق الدهان ج ٢ ص ١١٧ - ١١٨ .
 (٢) المصدر السابق ج ٢ ص -

ديارهم انتزعناها اقتصاراً وأرضهم اغتصناها اغتصاراً
 ولو شئتنا حينئذ البؤادى كما تحبى أسود الغاب قابلاً
 إذا ما أنفذ الأمراء جيشاً إلى الأعداء أنفذنا كتاباً
 أنا ابن الفاروقين الهام قدماً إذا كره المحامون الضارباً
 ألم تعلم ومثلك قال حقاً بأنى كنت أثقبها شهاباً (١)

ويتجسد من خلال الأبيات إحساس الشاعر بجماعته وقوته من استخدامه
 "نا" دائماً إلا أنه يختم الأبيات بالتفخى بهطلوته هو:

ألم تعلم ومثلك قال حقاً بأنى كنت أثقبها شهاباً

وكأنه صاحب كل هذه الانتصارات العظيمة التي حققتها جيوش سيف
 الدولة وهذا هو معنى البطولة الذي تعمق في نفس أبي فراس واستثمره
 حتى تضخم عنده فأصبح لا يرى في المعركة إلا نفسه فهو شهابها الثاقب
 بل أثقب شهبها على الإطلاق.

وهكذا لا يتردد في أشعار أبي فراس إلا تجسده لمعاني القوة والشجاعة
 والإباء، والضرب، والطمع، والصنع، والعفو فهو أمير، وابن أمير، وابن
 عم أمير عيسى كهم حفظ للمعرب همتهم، في زمن أضاع فيه الآخرون هذه
 البهيمية، وهو فارس وابن فارس ومن سلالة فرسان ملوك، سادوا تعددوا
 وقاتلوا فانتصروا وسجلوا على اليوم انتصارات باهرة وعديدة كتبوا بها
 للمعرب صفحات مجد وفخار، يفخر بها العرب - كل العرب لا الحمدانيون
 بحسب - وظل أبو فراس متفخفا بهذه المعاني ذاتها، تلك التي تفشى

(١) ديوان أبي فراس الحمداني - تحقيق الدهان ج ٢ ص ١٤ وما بعدها.

بها في "بائوته" السابقة ، بمعنى الانتصار ، والصبح ، والمعنى قصيدة
 أخرى "لامية" حين اجتمع عليه قوم من العرب منهم "كثير بن عسجة"
 و"جهمان بن عرفة" وغيرهما ، فقاتلهم أبوسراة وانتصر عليهم ، وهاهو
 ذا يتغنى ببطلته ونصرته الذي حققه على قبيلة "كلاب" بموقع يقال لسه
 "بالس" :

سَلَى عَنَّا سِرَاةٌ بَنَى كِلَابٌ	"بِالسِّ عِنْدَ مَشْجَرِ الْمَوَالِيسِ"
لَقَيْنَاهُمْ بِأَسْهَابٍ قَسَّارٍ	كَهَنَ مَوْزِنَةُ الْأَمَلِ الطُّنَّالِ
وَوَلَّى بَابُنَ عَوْسَجَةٍ كَهْمِيرٍ	وَسَاعَ الْخَطْوِ فِي ضَنْكِ الْجِبَالِ
بَرَى "الْبَرْقُوتُ" إِذْ تَجَاهَدْنَا	أَجَلَ قَهْلَةٍ وَأَخْبَ مَكَالِ
تَدْوِيرِهِ إِيَّاهُ مِنْ "قَهْلَةٍ"	وَسَأَلَهُ النِّسَاءُ عَنِ الرَّجَالِ
يَقْلُنَ لَهُ السَّلَامَةُ هَجَرُكُمْ	وَإِنَّ الدَّلَّ فِي ذَاكَ الْفَعَالِ
"وَجْهَانُ" تَجَافَتْ هَهُ بِهَمْزٍ	عَدَلْنَ عَنِ الصَّحْبِ إِلَى الْمَوَالِ
وَتَادُوا سَامِعِينَ لَنَا فَعَدْنَا	إِلَى الْمُتَعَدِّينَ مِنْ مَنَى الْعَمَالِ
وَنَحْنُ نَقَى رَضِينَا بَعْدَ سَخَطٍ	أَحُونَا مَا جَرَحْنَا بِالنَّوَالِ (١)

والأبيات تجسد إحساس أبي سراة ببطلته النصرية وتظهر من خلالها
 نفحة التعالي من ناحية وإحساس الشاعر بجماعته ، وقومه من ناحية أخرى ،
 إذ يحوس على استخدام "نا" دائما كذلك يظهر من خلال هذه الأبيات
 ازدياد أبي سراة واحتراره لبني "كلاب" هذا الازدياد ، وذلك الاحترار
 الذي يقابل نفحة التعالي عند ذلك القارئ ، البطل المنتصر .

(١) ديوان أبي سراة النخعي - تحقيق الدكتور محمد عبد الحامد - ٣٠٦ - ٣٠٧ .

وظفر أبو فراس بهنى "نهر" عندما أثار "فرج بن جحيش" و "مطعم" ابن على الضبابى " فى خيل من بهنى "نهر" على وادى "عين قاصرة" فركب أبو فراس من "منبج" وأخذ الصبر حتى لحقهم فى نفر يسير ، فأسر "مرجا" و"ارز" مطعما "ومعه السيف ، ومع "مطعم" الرمح ، فمكر حتى سبقه إلى الفرات ، وأخذ الطرائد وأنصف .

وتغنى أبو فراس بما أصاب "بنى نهر" فى هذا اليوم ، متعرضا بالذكر لما أحدثه "ببئى كلاب" ، "ببالس" أولئك الذين سخر منهم فى الآيات السابقة :

وَرَأَيْتُ يَا نَهْرُ فَلَائِمًا فَقَدْ جِئَ الْجَزِيرَةَ وَالشَّامَ
لَنَا الدُّنْيَا فَمَا شَقْنَا حِلَالًا لِسَاكِنِهَا وَمَا شَقْنَا حَرَامَ
وَيَنْقُذُ أَمْرًا فِي كُلِّ حَاسِي فَيُدْنِيهِ وَيَقْصِيهِ الْكَلَامَ
ثم يأخذ أبو فراس فى تذكير "بنى نهر" بما حدث لببئى كلاب "ببالس" :

أَلَمْ تَخِيرِكْ خَيْلَكُنْ مَقَامِي بِبَالِسٍ يَوْمَ ضَاقَ بِهَا الْمَقَامُ
وَوَلَّتْ تَتَقَى بَعْضًا بِبَعْضِينَ لَهُمُ وَالْأَرْضُ وَاسِعَةٌ زَحَامُ
سَرَا وَاللَّيْلُ يَجْمَعُنَا وَلَكِنْ يَبُوحُ بِهِمْ وَيَكْتُنَا الظُّلَامُ
إِلَى أَنْ صَبَحْتَهُمُ بِالنَّائِبَا كَرَأْتُمْ فَوْقَ أَظْهَرِهَا كِرَامُ
مِنَ الْعَرِشَاتِ تَلْحَقُ مَا رَأَيْتُهُ إِذَا طَلَبْتُ ، وَتَعْطِي مَا تَسَامُ
تَتَارَعُ بَيْنَ الْفَرَسَانِ حَوْلِي تَجْفَلُهُمْ كَمَا جَفَلَ النِّعَامُ
ثم يعود أبو فراس مرة أخرى للحديث عن "بنى نهر" والتغنى بما أحدثه بأبطالهم ، حين أسرقاهم "فرج بن جحيش" وولى "مطعم بن على"

ناجيا " بنفسه ، ويأخذ أبو فراس في السخرة من " مطعم " حين هرب ، وأثر
النجاة :

بطحنا منهم من جحش^(١) فلم يبقوا علوم ولم يحاموا
أقول " لمطعم " لما التقينا وقد ولّى وفي يدي الحسام
" أتجعل بيننا عشرين كعبا وتهرب سوة لك يا غلام !
أحلکم بدار الضم قسرا همام لا يخام ، ولا يكرام^(٢)

وهكذا تجسد هذه القصيدة بطولة أبي فراس ، وانتصاراته العديدة التي
كفلت له هذه البطولة وضمت له السيادة ، والقادة ، والعزة ، وبطل
أبو فراس - من خلال أشعاره - مجسدا بطولته وانتصاراته التي حققها
باعتداده على سيفه ، وبده ، وقلبه في مواجهة أعدائه ، وحسبه أن يلقى
هؤلاء الأعداء بسيف ماض ، وقلب صامد ، فلا يحس بحاجة إلى ترس ،
أو درع :

ألا من يبلغ سرايا قوسى سيف الدولة الملك الهامسا
بأنى لم أدع فتحات قوسى إذا حدثن جمجن الكلاما
شريت ثناءهن ببذل نفسى ونار الحرب تضطرم اضطراما
ولما لم أجد إلا فئارا أهد من اليقة أو حاما
حملت على وور الموت نفسى وقلت لعميتي موتوا كراما
وعذت بمارم يهد وقلبى حماني أن ألام وأن أضاما
ولم أبذل لخوافهم جنسا ولم ألهن حذار الموت لاما

(١) أبو فراس الحمداني - تحقيق د. إبراهيم السامرائي - دار الفكر للنشر
والتوزيع - عمان ص ١٦٠ .

كشفت بصدور الخيل عنى كما جفلت في يهود نعاما
القيم وأنشروهم كأنسى أطرد منهم الإيل السواما

بعد هذا التغنى الذى يجسد من خلاله شجاعته ، وإقدامه وإيثاره الموت على الفرار وكل ما من شأنه أن يكفل له النصر ، ويحقق له البطولة ، بعد هذا التغنى بمقومات النصر هذه ، يأخذ أبو فراس في التغنى بما أصاب بفوارس أعدائه حين لقهم وجها لوجه ، ينازلهم ، معتمدا على نزالهم على يمينه ، لا على سيفه ، أو رمحته :

وَأَتَقَدُّ الْفَوَارِسَ يَدَ أَنْسَى رَأَيْتُ اللَّوْمَ أَنَّ الْقَى اللَّيْلَامَا
وَدَعُو إِلَى أَجَابَ لَمَّا رَأَى أَنْ قَدْ تَدَمَّ وَاسْتَلَامَا
عَدَّتْ عَلَى مَقْلِدِهِ مَسْنَى وَأَغْنَتْ الشَّقَفَ وَالْحَمَامَا (١)

وهذه - ولا شك - معان تتجسد من خلالها بطولة أبي فراس الحربية وانتصاراته العسكرية الملاحقة ، والمستمرة ، التى ضمنها لهذا البطول الفارس شجاعته ، وقوة نفسه - وجرأة قلبه ، وإقدامه .

ولا ينسى أبو فراس انتصاراته العديدة ، على الروم ، فهو يذكرها من حين إلى آخر متغنيا بها ، مرددا ما سبق أن رددته كثيرا ، وتغنى به طويلا ، فالانتصار على الروم ليس أمرا سهلا هينا ، والروم هم ما هم من قوتهم ، وشدة بأسهم ، وإن أعظم انتصار حققته جيوش سيف الدولة على الروم يوم أن ولى " الدستق " هاربا بعد هزيمة جيشه ، ووقوع أكثر رجاله أسرى في أيدي أبي فراس وزفاقة ، ذلك الانتصار الذى تغنى به أبو فراس طويلا مجسدا به بطولته الحربية ، وقدرته القتالية :

(١) أبو فراس الحمداني - تحقيق السامرائى ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

لما برزنا للدستق مهجرة
ورأى بواوير خيلنا كالأههم
طلب النجاة بنفسه فتحكمت
في جيشه الأسواف أى تحكمت
ما كان يعض قلونا في جسمه
فكون أثبت من هضاب يلملم
لولا الجواد الأدهم الناجي به
أضحت قوائم رجله في الأدهم
ولكن نجاة جاله وحماكم
ما بين مفعود ومن مكلهم
لهموا الحديد برغمهم هووهم
إن لم يكن ذاك الحلى عليهم

وبعد هذا التصوير الدقيق للمعركة التي دارت مع اليوم ، وانتهت بانتصار
جيوش سيف الدولة التي كان أبو فراس واحداً من قوادها ، ويقرار المستق
ناجيا بنفسه - بعد هذا كله - يتذكر أبو فراس " خرسنة " وما أصابها
حين هاجمها جنود سيف الدولة مشعلين النار في جنباتها ، فهاخذ فـس
التغنى بذلك ، مضيافاً نصراً إلى نصر ، ومطولة إلى بطولة :

سل أهل " خرسنة " تـجـيك نساوهم
كم تاكل من أمتهم
عهدى بها والنار في جنباتها
وأثـها صدر الشوق المـهم
كم ذات حجل ما رآها الناس قد
برزت لأعينهم بأفـ مـهم (١)

وأزدراء أبو فراس لليوم ، واحتقاره لهم ، واستخفافه بهم ، المتشـل فـس
قوله " تـجـيك نساوهم " إنما هو تجسود لهطلوته وانتصاراته فائتيهين من
شان العدو تأكيد لهطلولة المنتصر ، وتجسود لها ، والبيت الأخير من
هذه الأبيات تأكيد لعدى الذل الذي أصاب الروم بعد هزيمتهم حـسـى
إن نساوهم اللاني ظللن عـيزات محجيات زوا طويلا أرمت أنوفهن حـسـن
(١) أبو فراس الحمداني - السند محسن الآمن العايلي ص ٩٢ وما بعدها

ذل أهلهم وقومهم ، والقائمون على أمرهم .

وتتعدد مواقع سيف الدولة وأبي فراس مع الروم ، وتتوالى انتصاراتهم وهزائم الروم ، وتتوالى - تبعاً لذلك - تغنى أبي فراس بهذه الانتصارات العديدة ، وتجسدها لبطولته ، وشجاعته ، وشهائته ، من ذلك ما تغنى به أبو فراس مجسداً ما أبداه من شجاعة ، وشهات في موقعة كانت بينهم ، وبين الروم ، حين هاون ملك الروم ، ملك البلغار ، والروس ، والترك ، والإفرنج وسائر الأجناس ، واستجد لهم لقتال "سيف الدولة" ، وأنفق من الأموال ما يعظم قدره ، وبلغ سيف الدولة خبره ، فجهز عساكره ، وأقام في غلمانسه ونغر للقاء بعض جيوش الروم في الشام ، وأمر أبا فراس بالتقدم إلى الروم واشتدت الحرب ، وكثر الأسرى أصحاب أبي فراس ، ولكنه ظل يحارب حتى خلصهم ، وقال يصف هذه الموقعة ، وأثره فيها ، ويذكر أسراخوته ، ويتغنى - إلى جانب ذلك - بصبر جنوده عند لقاء العدو ، وما كان منه في هذه الموقعة من صبر ، وشهات ، وما أبداه من شجاعة ، وإقدام :

ألا هل نذكر يا بني "نزار" ؟	مقاييس يوم ذاك أو مقاليس ؟
ألم أثبت لها والخيل فوضي	يحيث تيف أحلام الرجال
ترك ذواهل المغان فيها	مخضبة محطمة الأغالي
وعدت أجر رحي عن مقاي	تحدث عنه ربات الرجال
فقايلة تقول : "أبا فراس"	أعذ علاك من هن الكمال
وقايلة تقول : جنت خيرا	لقد حامت عن حرم المعالي
وسهري لا يمس الأرض زهوا	كان ترابها قطب النبال
كان الخيل تعرف من عليها	فمن بعض على بعض تعالي

عَلَيْنَا أَنْ نَعَاوِدَ كُلَّ يَوْمٍ رَحِمَ عِدَّةَ الْمُهْجِ الْفَوَالِسِ
فَإِنْ عَفْنَا ذَخَرْنَا لَا خَيْرَ فَإِنْ مَتَّأَ فَمَوَاتَاتِ الرَّجَالِ (١)

وهكذا يجسد أبو فراس بطولته ، وانتصاره وكأنه وحده الذى أدار هذه المعركة مع الروم ، حين ثبت فى ذلك اليوم المصيب ، حاميا عن حرمه دافعا طار الهزيمة عن قومه ، محققا نصرا عزيزا ضمن له البطولة والمعزة ، ضمن لخياله الزهو والخيلاء ، فالخيل تعرف فوارسها ، وتتعالى على بعضها بأولئك الفوارس ، والكافة ، الذين يرخصون رواحهم الغالية يوم لقاء عدوهم نائما حياة كريمة ، وأيا موت عزيز هو موت الرجال .

وتقع خيل لبنى " قشهر " على أبي فراس وهو فى خمسة عشر فارسا وتستقل " بنو قشهر " عدد رجاله ، ولكنه يشد عليهم ، وينتزع ما معهم ويسجل عليهم انتصارا لا ينسى أن يتغنى به مجدا بطولته ، وعدته وشجاعته ووقوة بأسه :

أَبَا عَجْبَا لَا مَرِيئِي " قَشْهَرِ " أَرَاغُونَا مَوَاتِلُوا : الْقَوْمَ قُلُوبُ
وَكَانُوا الْكَثْرَ يَوْمَئِذٍ وَلَكِنْ كَثَرْنَا إِذْ تَعَارَكْنَا وَقَلْبُوا
وَقَالَ الْبَهَامُ لِلْأَجْسَادِ : هَذَا يَغْرِقُ بَيْنَنَا إِيَّانَ لَمْ تَوَلُّوا
فَوَلُّوا لِلْقَتْلِ وَالْبَيْضِ شَهْمِ وَفِي جِرَانِهِمْ نَهْلٌ ، وَعَمِلُ
وَرَحْنَا بِالْقَلَائِعِ كُلَّ نَهْدٍ مَطْلُ فَوْقَهُ نَهْدٌ مَطْلُ (٢)

وعلى الرغم من قلة عدد رجال أبي فراس إلا أنهم كثروا فى أعين الأعداء ، عند القتال بما أبدوا من شجاعة وما أظهروا من ثبات ، وصبر ، وعد على أولئك الأعداء ، ما حقق لهم النصر ، وأكد لهم البطولة .

(١) ديوان أبي فراس الحمداني - تحقيق الدهان ج ٢ ص ٢٨٣ - ٢٨٤ .

(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٨٥ .

وإذا كانت البطولة الحربية قد توفرت لأبي فراس الحمداني فإنها لم تتوفر له من فراغ وإنما وفرتها له مقوماته وعوامله واستعداد نفسه تحتاجه هذه البطولة .

من هذا الاستعداد النفس الذي تحتاجه البطولة وقد توفرت لأبي فراس الحمداني العفة والطهارة والشهامة والهمة وشجاعة القلب وعزة النفس بعد غاياتها :

فَمَا نَفْسٌ مَا لَا قَهْرَ مِنْ لَأَجِّ الْهَيَّوَى
وَمَا قَلْبٌ مَا جَرَّتْ عَلَيْكَ النَّوَاطِرُ !
وَمَا عَنِّي مَالِي ؟ وَمَا لِي ؟ كَلَّمَا
هَمَّتْ بِأَمْرِهِمْ لِي مِنْكَ زَاجِرُ !
كَانَ الْحِجَا وَالصُّونَ وَالْعَقْلَ وَالنَّفْسَ
لَدَى لَهَايَاتِ الْخُدُورِ ضَرَائِرُ
وَهَنَ وَإِنْ جَانِبَتْ مَا يَشْتَهِيهِ
حَبَائِبُ عُنْدِي مَتَى كُنْ أَتَائِرُ
وَكَمْ لَيْلَةٍ خَضَّتْ الْأَسِنَّةُ نَحْوَهَا
وَمَا هَدَأَتْ عَيْنٌ وَلَا نَامَ سَائِرُ
بِمَا حَبْنِي فَضْفَاضَتَانِ وَصَارِمُ
وَقَلْبٌ عَلَى خَوْضِ الْحَقُوفِ مُؤَارِرُ

بعد أن يتغنى أبو فراس بصفته وتقائه وعقله ووصفه وتقائه يتغنى كذلك بسمته وشجاعة قلبه وعزة نفسه وقوة عزيمته وكلها كما قلنا من عوامل الاستعداد النفس الذي وفرت لأبي فراس بطولته العسكرية التي كفلت له ما حقق من نصر على أعدائه وأعداء الإسلام من الروم وعلى من خسج على طاعة سيف الدولة من القبائل المعربة المجاورة لبني حمدان :

نَفَى الْهَمَّ عَنْ هِمَّةٍ عَدُوِّسَةٍ
وَقَلْبٌ عَلَى مَا شِئْتَ مِنْهُ مَظَاهِرُ
وَأَسْرَ مَا يَنْبَغُ الْخَطَّ ذَائِلُ
وَابْيَضَ مَا تَطْبَعُ الْهَيْدُ بَاتِرُ
وَقَلْبٌ يَقْرُ الْقَلْبَ وَهُوَ مُحَارِبُ
وَعَزَمَ يَقْرِمُ الْجِسْمَ وَهُوَ سَائِرُ

ونفس لها في كل أرض لها نسمة ^(١) وفي كل حي أسرة ومعاشر

وتتردد في أشعار أبي فراس - كثيرا - مقومات بطولته هــ
واستعداداته النفسية لهذه البطولة وخاصة نفسه الأبية هـ بعد غاياتها
وهمة القوية :

تلاعب بي على هوج المطايا	خلاق لا تقو على الصغار
ونفس دون مطلبها الشها	وكف دونها فيض البحار
أرى نفسي تطالبني بأمر	قليل دون غايته اقتصاري
وما يخنيك من هم طيـوال	إذا قوت بأغار قصار ^(٢)

والبيت الأخير يحدد تحسرا أبي فراس على هم كبيرة هـ لا تستطيع
تحقيق كل ما تصبو إليه هـ إذ يحول قصر الأعمار بينها وبين تحقيق غاياتها
وأهدافها هـ ففي البيت استعجاء هـ ونظر على البعد هـ وكان أبا فراس
على حد تعبير د. الشكعة : " يحس بأنه قصير العمر هـ فقرا في لوح القدر
منته التي عا جلته هـ ولم يتعد السابعة والثلاثين من عمره هـ حين قتله
" قرغويه " غلام سيف الدولة هـ بعد سنة واحدة من موت سيده هـ في معركة
غادرة في حصن سنة ٣٥٧ هـ " ^(٣)

ويظل أبو فراس يعدد مقومات بطولته هـ تلك المقومات التي كفلت له
الاستعداد النفس الذي ضمن له البطولة العسكرية هـ التي حققت له
الانتصارات المتلاحقة :

- (١) ديوان أبي فراس الحمداني - تحقيق الدهان ج ٢ ص ١٠٥ - ١٠٦
(٢) المصدر السابق ص ٢٢٦
(٣) فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين د. مصطفى الشكعة - مكتبة الأنجلو
المصرية ص ١٢٠

عَلَى لِكْلِ هِمَّ كُلِّ عَمَلٍ أَمُونُ الرَّحْلِ مُوَحِّدَةُ الْقَنَارِ
 وَخَرَّاجٌ مِنَ النَّمَرَاتِ خَسِرَ أَبُو شَهْلَيْنِ مَحِينُ الدَّمَارِ
 شَدِيدٌ تَجَنَّبَ الْأَنَامَ وَأَبَى عَلَى عِلَاتِهِ عَقْفَ الْإِزَارِ
 فَلَا نَزَلَتْ بِهِ الْجِيرَانُ إِنْ لَمْ أَجَاوِزْهَا مَجَاوِزَةُ الْبَحَارِ
 وَلَا صَحِبَتْهُ الْفَرَاسَانُ إِنْ لَمْ أَصَاحِبْهَا بِأَمُونِ الْفَرَارِ
 وَلَا خَافَتْهُ الْأُمْلَاكُ إِنْ لَمْ أَصْبَحْهَا بِمَلَفِ الْفَسَارِ
 بِجَيْشٍ لَا يَحِلُّ بِهِمْ مُقَبَّرٌ وَرَأَى لَا يَغْنَمُهُمْ مَنَارُ
 شَدَّدَتْ عَلَى الْحَمَامَةِ كُورَ رَحْلِ بَعِيدٍ حَلَهُ دُونَ الْمَسَارِ
 تَخَفَّ بِهِ الْأَمِينَةُ وَالْعَوَالِي وَضُمَرَةُ الْمَهَارَى وَالْمَهَارِ
 بَعْدَنْ بَعِيدٍ طُولَ الصَّوْنِ سَعَا لَمَّا كَلَفْنِ مِنْ بَعْدِ الْمَنَارِ
 وَتَخَفَّقَ حَوْلِي الرِّايَاتِ حُمُرًا وَتَتَبَعْنِي الْخَفَارِمُ مِنْ نِزَارِ
 عَزِيزٌ حَيْثُ حَطَّ السَّمَرُ رَحْلِي تَدَارَيْنِ الْأَنَامَ وَلَا أَدَارِي (١)

وهكذا تتجلى في هذه الأبيات قوة أبي فراس ، وشدة عزمه ، وشجاعته
 وشجاعة قلبه ، وعظم همته ، وقهاده للجيش ، عزه ، مهيبا وهذه كلها
 من مقومات بطولته وعاصرا استعداد النقص الذي وقوله بطولته التي ساهمت
 كثيرا في تحقيق النصر على أعدائه .

ولا يمل أبو فراس من التفتي بهيمته ، وعزة نفسه وشدة عزمه ، وبعده
 غاياته ، فهي من أهم مقومات بطولته ، وأسباب انتصاراته :

(١) ديوان أبي فراس الحمداني - تحقيق الدخان ج ٢ ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

إِذَا مَا الِئْزَاصُحِ فِي مَكَانٍ سَمَوْتَ لَهُ وَإِنْ بَعْدَ الْمَزَارِ
مَقَامٍ حَيْثُ لَا أَهْوَى قَلْبُكَ لَـ وَنَوَسَ عِنْدَ مَنْ أَقْلَى غِرَارِ
أَبْتَلَى هِمَّتِي وَغَرَارَ سَيْفِي وَغَزِي وَالمَطِيَّةَ وَالْقَارِ
وَنَفْسٌ لَا تَجَاوِرُهَا الدُّنَا وَغَرَضٌ لَا يَهْوَى عَلَيْهِ عَارِ
وَقَوْمٌ مِثْلُ مَنْ صَحَبُوا كِرَامَ وَخَيْلٌ مِثْلُ مَنْ حَمَلَتْ خِيَارَ^(١)

ويظل أبو فراس معددا هذه الجوانب من مقومات بطولته الحربية من شجاعة ، وبأس ، واعتماد على نفسه ، وسيفه ، ومطيته :

سَلِ الدَّهْرَ عَنِّي هَلْ خَضَعْتُ لِحَكِيمِهِ
وَهَلْ رَاعَنِي أَصْلَالَهُ وَارْتَبِعْتُهُ
وَهَلْ مَوْضِعٌ فِي الْأَرْضِ مَا جَبَّتْ أَرْضُهُ
وَلَا وَطَنُهُ مِنْ بَعْمَرِي مَنَاسِمُهُ
وَلَا شَمَعَتْ لِي وَرْدَتٌ تَجُودُ وَلَا بَعْدَتْ أَغْوَارُهُ وَشَهَائِمُهُ
وَمَا صَحِيَّتُنِي قَطُّ إِلَّا مَطْيَتِي وَغَضِبَ حِمَامٌ يَخْذُمُ الْحَدَّ صَارِمُهُ
وَإِنْ انْفَرَادَ الْعُرَى فِي كُلِّ مَشْهَدٍ لَخَيْرٌ مِنْ اسْتِصْحَابٍ مِنْ لَا يَلَامُهُ^(٢)

ولا يعل أبو فراس التفنى بشجاعته ، وقوة بأسه التي هي من أهم مقومات بطولته ومن أعظم عناصرها :

لَا عَزَ إِلَّا بِالْحِمَامِ الْخِزْدَمِ وَضَرَابِ كُلِّ مَدْحَجٍ مُتَأَنِّمِ
وَقِرَاعِ كُلِّ كَتْمِيَّةٍ يَكْتُمُ وَلِقَاءِ كُلِّ عَرِمٍ بِعَرِمِ
وَلَقَدْ رَضَعْتُ مِنَ الزَّمَانِ لِبَانَهُ وَغَرَفْتُ كُلَّ مَعْوَجٍ وَمَقْنَمِ

(١) ديوان أبي فراس الحمداني - تحقيق الدهان ج ٢ ص ١٧٩ .

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٨٠ .

وقطعت كل تنوفة لم يلقها قدم ولم تفرج بها طن منسجم
وأهنت نفس للرياح وإنه من لم يهين بهن القنا لم يكرم
ورأيت عسرى لا يزيد تأخيري فيه ولا يغيثه فضل تقدمي (١)

والكرم أحد عناصر البطولة الذاتية لأبي فراس ، وواحد من مقوماتها إلى جانب ما لديه من مقومات أخرى ، وعناصر عديدة رأينا منها شجاعتها وبأسه ، وعزة نفسه ، وعظم همته ، وسعد غاياته .

ومثلما تغنى أبو فراس بكل هذه المقومات والعناصر التي وفرت له هذه البطولة التي عوف بها ، فقد تغنى كذلك بالكرم بوصفه أحد هذه العناصر ، والمقومات :

وتخافني كرم اللقا ح وقد أرين عدائهم
يمسي إذا طرق الضيو ف فناوها يغنائهم
ناري على شوي تاج ج للضيوف السايك
يانار إن لم تجلبس ضيفا فلت ينايهم
والعز مشروب السكا دق والقباب الجاهم
يجنى ولا يجنى عليه سه وتغنى الجلى بهم (٢)

وغنى النفس عنصر من عناصر البطولة الذاتية التي استشرها أبو فراس في داخله ، وتغنى بها طويلا في شعره فغنى النفس قاسم مشترك مع الكرم في نفس أبي فراس فالكرم لا بد أن يكون غنى النفس ، وغنى النفس لا بد أن يكون كرمًا . ومثلما تغنى أبو فراس بكرمه فقد تغنى كذلك بغنى

(١) أبو فراس الحمداني - السيد محسن الأمين العاهلي ص ٩١ .

(٢) أبو فراس الحمداني - تحقيق السامرائي ص ١٨١ ، ١٨٢ .

نفسه بوصفه هو الآخر واحدا من مقومات البطولة في نفسه . عرضت على سيف الدولة خيوله ، وبنو أخيه ، وبنو عمه حضور عنده ، فكل اختار منها ، وطلب حاجته ، وأسلك الأمير أبو فراس فاعتب عليه الأمير سيف الدولة ، ووجد من ذلك . فقال أبو فراس متغنيا :

غَسِرَ بِخَيْرِهِ الْعَمَالُ الْجَائِسُ	وَيَحُولُ عَنْ شَتَمِ الْكِرَامِ الْوَائِسُ
لَا أَرْتَضِي وَدَا إِذَا هُوَ لَمْ يَدَمْ	عِنْدَ الْجَفَا * وَقَلَّةُ الْإِنصَافِ
تَعَسَّرَ الْحَرِيصُ وَقَلَّ مَا يَأْتِي بِهِ	عُوضًا مِنَ الْإِلْحَاحِ وَالْإِلْحَافِ
إِنَّ الْغَنَى هُوَ الْغَنَى بِنَفْسِهِ	وَلَوْ أَنَّهُ طَرَى السَّكَابِ حَافِ
مَأْكُلٌ مَا فَوْقَ الْهَيْطَةِ كَأَمِيرَا	فَإِذَا قَتَعَتْ كُلُّ شَيْءٍ * كَلَامِ
وَتَعَفَّى لِي طَمَعُ الْحَرِيصِ أَمُونِي	وَسُرُوتِي وَفَتَاتِي وَعَفَافِي

وهكذا يشارك أبو فراس الأبهة ، والفتوة ، والعفاف ، مع غنى النفس من هذا التغنى فكلها قيم ، ومثل عليا يجب أن يتحلل المرء بها ، وكلها من عناصر البطولة الذاتية في نفسه ومن مقوماتها ، وأسبابها ، ويكمل أبو فراس تغنيه بغنى نفسه ، وكرمه ، مؤكدا اقتناعه بهذه القيم وتلك المثل :

مَا كَثُرَ الْخَيْلُ الْجِهَادِ بِزَائِدِي	شَرَفًا وَلَا عَدَدًا السَّوَامِ الضَّافِي
خَيْلِي وَإِنْ قَلَّتْ كَثُرَ نَفْعُهَا	بَيْنَ الصَّوَارِمِ وَالْقَنَا الرَّعَافِي
وَمَكَرَ مِنْ عَدَدِ النُّجُومِ وَمَنْزِلِي	مَأْوَى الْكِرَامِ وَمَنْزِلُ الْإِسْطَفَا
لَا أَقْتَنِي لَصُوفِ دَهْرِي عُدَّة	حَتَّى كَأَنَّ صُرُوفَهُ أَخْلَافِي
شِعْمٌ عَرَفْتُ بِهِنَ مَنْ أَنَا يَا نَجَّاحٌ	وَلَقَدْ عَرَفْتُ بِمِثْلِهَا أَسْلَافِي (١)

(١) ديوان أبي فراس الحمداني - تحقيق الدهان ج ٢ ص ٢٥٦ و ٢٥٧ .

ومن عناصر البطولة ، وأسسها ، ومقوماتها عند أبي فراس أحاسيسه الذاتية بقبومه ، وأهله ، وذويه ، فقد ورث الأمانة ، والسيادة ، والشرف والعزة ، عنهم ، ومثلها تغنى بكل مقومات بطولته وعناصرها من شجاعة وإباء ، وهمة ، وعلو نفس ، وكرم ، وشدة بأس ، وجراءة قلب ، وغنى نفس فقد تغنى كذلك بقبومه وجماعته ، على أنها إحدى مقومات بطولته ، وإحدى أسس استعداده النفس لهذه البطولة ، التي حققت له ما هفت إليه نفسه ، وتناقت إليه روحه من انتصارات عديدة على اليوم ، وغيرهم ممن القبائل ، الخارجة على طاعة سيف الدولة ، وابن عمه .

أقول - لقد تغنى أبو فراس كثيرا بقبومه ، وجماعته ، تغنى بهم سادات ، غررا ، طال بهم على خصومه ، وكثير :

لَنَا فِي بَنِي عَمٍّ وَأَحِبَاءِ إِخْوَتِي عَلَا حَيْثُ سَارَ النُّجُورَانِ سَوَائِرُ
وَأَتَتْهُمْ السَّادَاتُ وَالْغُرَرُ السَّيِّئَاتُ أَطُولُ عَلَى خَصْمِي بِهَا وَأَكْثَرُ (١)

وتغنى بهم ملوكا ، وأبناء ملوك ، بناء للمكارم ، والعلاء ، وأربابها للمجد :

وَإِذَا فُخِرَتْ فُخِرْتُ بِكُمُ الْإِلْسُ شَادُوا الْمَكَارِمَ مِنْ مَنِي حَمْدَانِ

نحنُ الملوكُ بنو الملوكِ أُولَى الْعَمَلِ

وَصَادِقِ السَّادَاتِ مِنْ عَدْنَانِ

والنجد يعلم أننا أركانُه واليهت معتدُّ على الأركانِ (٢)

وتغنى بهم أعزة ، ذوى منعة ، وسادة ، فهم رؤس الناس وسادتهم

وهم أهل الحرب ، والقتال ، وهم أرباب عطاء ، وهبات :

(١) ديوان أبي فراس الحمداني - تحقيق الدهان ج ٢ ص ٩٢٣ .

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص -

أَلَمْ تَرْنَا أَعَزَّ النَّاسِ جَارًا وَأَمْنَهُمْ وَأَمْرَهُمْ جَنَابًا ؟ !
لَنَا الْجَبَلُ الْمُطَّلُ عَلَى "نِزَارِ" حَلَلْنَا التَّجَدُّ مِنْهُ وَالْهَيْبَا
تَضَلَّنَا الْإِنَامُ وَلَا نَحَاسِي وَنُوصَفُ بِالْجَمِيلِ وَلَا نَحَابِسِ
وَقَدْ عَلِمْتُ "رَبْعَةً" بِلِ "نِزَارِ" بِأَنَا الرَّاسُ وَالنَّاسُ الدُّنَابِسِ
فَلَمَّا أَنْ طَغَتْ سَفَهَا كَعَبِ فَتَحْنَا بِمُتْنَا لِلْحَرْبِ بِأَبَا
مُنَحْنَاهَا الرِّطَابِ غَيْرَ أَنَا إِذَا شِئْنَا مَنَحْنَاهَا الْحِرَابَا (١)

ويحرص أبو فراس على أن يوضح أن السيادة ، والشرف ، والهيبة
التي حازها قومه ، قد حازوها عن جدارة إذ ظفروا بها بالسيف ، ثم
حافظوا عليها بالسيف أيضا فبهتت قلوبهم خالدة خلود الزمن :

وَلَقَوْمِ الشَّرَفِ الْمُنْعِ حُلَّةُ فَوْقَ الْمَجَرَّةِ وَالسَّطَكِ الْمُرِيمِ
وَرَثُوا الْهَيْبَةَ كَابِرًا عَنْ كَابِرِ مِنْ عَهْدِ عَادٍ فِي الزَّمَانِ وَجَرَّهِمْ
ظَهَرُوا بِهَا بِالسَّيْفِ أَوَّلَ مَسَرَّةِ وَتَقَاوَاهَا بِالسَّيْفِ أَصْبَحَ فِيهِمْ
نَحْنُ الْيَحَارِبِلِ الْيَحَارِبِيَاهَا يَلُحُّ وَمُورِدْنَا لِدَيْدِ الْمَطْعَمِ (٢)

وهكذا يربط أبو فراس بين سيادة قومه ، وكرمهم ، فالكرم عند العربى
من أعظم مقومات السيادة ، والبطولة ، ويتكرر كثيرا في شعر أبي فراس وتغنية
بقومه وسطه بين كرمهم وشجاعتهم ، وسيادتهم ، وتبليهم ، من ذلك قوله :

(١) المصدر السابق نفسه ج ٢ ص ١٣ (وثروى الشطرة الأولى من البيت الأخير
منحناها الحرايب) .

(٢) أبو فراس الحميداني - السيد محسن الأمين العائلي ص ٩١ وما بعدها .

إِذَا مَرَّتْ بِوَادٍ جَاثِرٍ مَعَهُ فَأَعْقَلَ قُلُوبَكَ وَأَنْزَلَ ذَاكَ وَادَيْنَا
وَأِنْ عَجَزَتْ بِنَادٍ لَا تُطْفِئُ بِهِ أَهْلُ السَّافَهَةِ فَأَنْزَلَ ذَاكَ نَادَيْنَا
تَغْيِيرُ فِي الْهَيْجَةِ الْغَرَاءِ تَنْحَرُّهَا حَتَّى لِمَعْطَشٍ فِي الْأَحْيَانِ رَاعَيْنَا
وَتَجْفَلُ الشُّوْلُ بَعْدَ الْخَيْسِ صَادِيكَةً

إِذَا سَمِعْنَا عَلَى الْأَمْوَاءِ حَادِيْنَا وَتَغْتَدِي الْكُمُ أَشْتَاتًا مَرُوعَةً
لَا تَأْمِنُ الدَّهْرُ إِلَّا مِنْ أَطَادِيْنَا وَبَصِيحُ الضَّيْفِ أَوْلَانَا يَمْتَزِلُنَا
تَرْضَى بِذَاكَ وَهَضَى حُكْمَهُ فِينَا (١)

وكذلك قوله متغنيا بصير قومه في الخطوب ، وكريمهم ، وامتلاكهم المجد
وسناهم إياه :

إِذَا نَزَلَ الْخَطْبُ الْجَلِيلُ فَإِنَّا نَصَابِرُهُ حَتَّى تَضِيقَ حَيَاتِيْمُهُ
وَأِنْ جَاءَنَا عَلَى فَنَانَا مَعَاشِيرُ نَشَاظِرُهُ أَمْوَالَنَا وَنَقَاسِمُهُ
بَنَيْنَا مِنَ الْعُلِيَاءِ مَجْدًا مَشِيدًا وَمَا شَائِدٌ مَجْدًا كُنْ هُوَ هَادِيْمُهُ
حَلَّ الْمَجْدُ عَنَّا بِعِلْمِ الْمَجْدِ أَنْتَنَّا
بِنَا أَطَدَّتْ أَرْكَانَهُ وَدَعَايَسُهُ (٢)

وبكر أبو فراس يبطه بين كرم قومه وشجاعتهم وهو يتغنى بهم على
أن إحسانه يتومه ، وجماعته عنصرا هاما من عناصر بطولته الحيوية التي عاش
يتغنى بها في أشعاره :

إِنَّا إِذَا اشْتَدَّ الزَّمَانُ نَ وَنَابَ خُطْبٌ وَأَدْلَهُمْ
أَلْفَيْتُ حَوْلَ بُيُوتِنَا وَدَعَايَسُهُ الشَّجَاعَةُ وَالْكَسِيمُ

(١) أبو فراس الحمداني - تحقيق السامرائي ص ١٢٠ ، ١٢١ .

(٢) ديوان أبي فراس الحمداني - تحقيق الدهان ج ٢ ص ٣٨١ .

لَقَاَ الْعَدَى بَيْضَ الْمَسْمُومِ نَ وَلِلْعَدَى حِمْرَ الْقَتَمِ
هَذَا وَهَذَا دَأْبُنَا يَوْدَى دَمٌ وَسِرَاقٌ دَمٌ^(١)

وهكذا تغنى أبو نمراس في أشعاره مجسدا بطولته الحربية ، وانتصاراته
العديدة التي حققها على الروم ، وغيرهم من القبائل العربية المجاورة لإمارة
بنى حمدان ، وكذلك تغنى بعناصر بطولته ، ومقوماتها ، التي كانت لديها
استعدادا نفسيا لهذه البطولة الذاتية التي استشعرها في نفسه طويلا
وأصلتها في نفسه انتصاراته المستمرة ، والفلاحقة ، وظل أبو نمراس يتغنى
بهذه البطولة وتلك الانتصارات حتى وقع أسيرا في أيدي الروم . قلما وقع
في أيدي الروم أسيرا أخذت نفسه الأثمة ، تستشعر جوح الهزيمة ، وألم
الأسر ، صحيح أن نفسه لم تهين ورأسه لم يحن ، وظل شامخا ، أبيها
كنها ، عزيزا معددا مناقبه ، ومفاخره ، ومناقب أهله ، ومفاخرهم
متفنيا بها في كثير من الزهو والاعتزاز ، مجسدا بطولته وانتصاراته
العديدة ، حتى وهو بين أظهر الروم ، ما جعل هو "لروم" - وهم
أعداؤه - يكمرون فيه هذه الشهامة ، وتلك الأنفة ، ويعرفون له قدرة
ولكن على الرغم من ذلك ظل يستشعر في داخله جرح هزيمته ، وألم
أسره ، قلقة شعره ، وأحاسيسه ، وصوره ، وأفكاره في أسره ، قد خيمت
عليها ظلال قاتمة من حزن " وأسى ، لما كان له ماضٍ مجيد وانتصارات
باهرة ، ولما كان ينتابه من حنين إلى أهله النائيين ، خاصة أمة تملك
المعجوز ، التي تركها " بمنهج " وحيدة ، تتجرع مرارة بعد ذلك الالام
الأسمر .

(١) أبو نمراس الحمداني - تحقيق السامرائي ص ١٦١ .

" فلا جرم أن تصدر قصائد ، وهو أسير ، عن قلب شجي ، ونفيس رقيقة ، متألمة ، متزداد رقة ، ولطافة ، وسلاسة ، وتوتر في النفس ، تأثيرا محزنا ، يكاد يبكي سامعها ، وتعلق بالحفظ لسلاستها ، وربما هاجت به عاطفة الحماسة في هذا الحال ، فيخرج يشعره إلى التحمس الفائق ، فإن ما هو فيه لم يكن لينسبه سوابقة في الإمارة ، والحروب ، ولم يكن ليفقد كبر النفس ، وعلو الهمة ، والصفات الفريضة ، التي فيه من هذا القبول " . (١)

يقول الشمالي عن روميات أبي فراس : " ولعمري إنها - كما قرأته لبعض البلغاء - لو سمعته الوحش أعست ، أو خوطبت به الخرس نطقت أو استدعى به الطير نزلت " (٢)

أسر أبو فراس ولكنه - كما قلت - ظل يحفّ لنفسه قدرها ، وظل يستشعر بطولته وتتراعى أمام عينيه مشاهد من انتصاراته الباهرة التي أبدى فيها شجاعة وشيئا ، وإقداما ، فأخذ يتفنن بهطولته وهو أسير ، مثلما تفنن بهطولته وهو حر طليق ، مما جعل الروم يكبرون فيه هذه الشهامة وتلك البطولة ، ويحرفون له قدره ، فيخلون ثيابه ، وسلاحه ، وينزلونه أحد قصور أميراء طورهم ، وكأنه ضيف عزيز ، لا أسير حرب ، وجريح فقال :

مَتَى تَخْلِفُ الْأَيَّامُ مِثْلِي لَكُمْ فَتَسْـَٔسِ
طَوَّلَ نَجَادِي السِّيفِ رَحْبَ الْمَقْلَدِ ؟
مَتَى تَلِدُ الْأَيَّامُ مِثْلِي لَكُمْ فَمَتَى شَدِيدًا عَلَى الْبَاسِ غَيْرَ مَلْهَدِ ؟

(١) أبو فراس الحمداني - السيد محسن المايلي ص ١١٥ .

(٢) يتيمة الدهر للشعالي ص ١ ص ١١٢ .

فَإِنْ تَقْتَدُونِي تَقْتَدُوا سَيفَ الْعَلَا
وَإِنْ تَقْتَدُونِي تَقْتَدُوا لِعَلَّكُمْ
يُطَاعُنْ عَنْ أَعْرَاضِكُمْ بِلِسَانِيهِ
وَمَا كُلُّ وَثَاقٍ لَهُ مِثْلُ مَوْقِفِي
فَمَا كُلُّ مَنْ شَاءَ الْمَعَالِي يَنَالُهَا
وَأَسْرِعْ عَوَاذٍ إِلَيْهَا مَعْبُودٍ
فَتَنِي غَيْرُ مَرْدُودٍ اللِّسَانِ أَوَّالِدِ
وَيَضْرِبُ عَنْكُمْ بِأَلْحَامِ الْمَهْتَدِ
وَلَا كُلُّ وَرَادٍ لَهُ مِثْلُ مَوْرِدِي
وَلَا كُلُّ سَيَّارٍ إِلَى الْمَجْدِ يَهْتَدِي (١)

وهي أبيات يخاطب فيها أهله ، وقومه ممثلين في سيف الدولة ابن
عمه وزوج أخته الذي كاتبه أبو فراس كثيرا وهو في أرض الروم . ولكنها أبيات
يلقى بها على مسامح أعدائه ، وهو بين أظهرهم متغنيا بما نال من شرف
وما حاز من بطولة ، وهو يناضلهم ، مطاعا عن أعراض قومه ، ضاربا عنهم
بحسامه ، وهذا هو سر بطولته ، وأساسها .

ويتوالى تغنى أبي فراس ببطولته وهو أسير لدى الروم ، تلك البطولة التي
يجسدها خوضه للمعارك ، وقباده للجيوش ، ونضاله العسكري في سبيل
العرض ، والشرف ، والمجد والسيادة :

وَإِنِّي لَجَرَّارٌ لِّكُلِّ كَتْمَةٍ
وَإِنِّي لَنَزَالٌ بِكُلِّ مَخُوفَةٍ
فَأَطْلَمَا حَتَّى تَرْتَوِي الْبَيْضَ وَالْقَسَا
وَلَا أَصْبَحَ الْحَيَّ الْخُلْفَ بِمَارَةٍ
وَهَارِبٌ دَارٍ لَمْ تَخْفَنِي مِنْعَةً
وَحَيٌّ رَدَدْتُ الْخَيْلَ حَتَّى مَلَكْتُهُ
مَعُودَةٌ أَنْ لَا يَخْلُ بِهَا النَّصْرُ
كَثِيرٌ إِلَى نَزَالِهَا النَّظَرُ الْقَزَرُ
وَأَسْفَبَ حَتَّى يَشْبَحَ الذُّشْبُ وَالنَّسْرُ
وَلَا الْجَيْشَ مَا لَمْ تَأْتِهِ قَبْلِي النَّذْرُ
طَلَعَتْ عَلَيْهَا بِالرَّدَى أَنَا وَالْفَجْرُ
هَزِيمًا وَرَدَّتْني الْبَرَاقِعُ وَالْخُسْرُ

(١) ديوان أبي فراس الحمداني - تحقيق الدهان ج ٢ ص ٢٩ - ٨٠ .

وَسَاحِبَةُ الْأُدْيَالِ نَحْوِي لِقَوْتِهَا فَلَمْ يَلْقَها جِهْمُ اللَّقَاءِ وَلَا وَعْرُ
وَهَيْتَ لَهَا مَا حَازِمًا لَجَيْشِ كُلِّه وَرَحْتُوْلُمُ يَكْشِفُ لَأَثْوَابِهَا سِتْرُ
وَلَا رَاحَ يَطْفِئُنِي بِأَثْوَابِهِ الْغَنَى وَلَا بَآتَ يَتْنِينِي عَنِ الْكِرَمِ الْفَقْرُ
وَمَا حَاجَتِي بِالْعَالِ ابْنِي وَغُورُهُ ؟ إِذَا لَمْ أَمْرُ عَرَضِي فَلَا وَغَرَ الْوُغُرُ (١)

وهكذا يتغنى أبو فراس ببطلوته ومعناصر هذه البطولة ومقاماتها ، تلك
العناصر والمقامات التي من أهمها العفة ، والطهارة التي تتمثل في
كفِّ القتال إذا ما رأى نساء العدو قد سفرن أمامه وكأنه بذلك يذكّر
الروم بصوته لأعراض نسايتهم كثيرا ، أو كأنه بذلك يرد على ما من به الروم عليه
من أنهم خلوا ثيابهم :

يَمْنُونُ أَنْ خَلَوْا ثِيَابِي وَإِنَّمَا عَلَى ثِيَابٍ مِنْ دِمَائِهِمْ حُمُرُ

ويظل أبو فراس وهو بين أظهر الروم ، متغنيا ببطلته ومقامات هذه
البطولة من حزم ، وعزم ، وصبر ، وشجاعة ، ووقار :

لَقَدْ ضَلَّ مَنْ نَحْوِي هَوَاءَ خَبِيدَةٍ وَقَدْ ذَلَّ مَنْ تَقَضَّى عَلَيْهِ كَعَابُ
وَلَكِنِّي - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - حَازِمٌ أَغْزَا إِذَا ذَلَّتْ لَهُنَّ رِقَابُ
وَلَا تَمْلِكُ الْحَسَنَاءُ قَلْبِي كُلِّه وَإِنْ شِئْتُمْ رِقَّةً وَشِبَابُ
وَأَجْرِي وَلَا أُعْطِيَ الْهَوَى فُضْلَ يَقْبُورِي
وَأَهْفُو وَلَا يَخْفَى عَلَى صَوَابِ
إِذَا الْخُلُ لَمْ يَهْجُرَكَ إِلَّا مَلَالَةٌ فَلَيْسَ لَهُ إِلَّا الْفِرَاقُ عِتَابُ
إِذَا لَمْ أَجِدْ فِي بَلَدَةٍ مَا أُرِيدُ فَمَعْدِي لِأُخْرَى عَزِيمَةٌ وَرِكَابُ

(١) ديوان أبي فراس الحمداني - تحقيق الدهان ج ٢ ص ٢١٢

وليس فراق ما استطعت فإن يكن فراق على حال فليس إيساب
 صبور ولم لم تهق مني بغيره قول ولو أن السيف جواب
 وقور وأحداث الزمان توفني وللموت حولي جبهة وذهاب
 والحظ أحوال الزمان بمقلبة بها الصديق صدق والكذاب كذاب (١)

وهكذا يؤكد أبو فراس في هذه الأبيات على صبره ، ووقاره مهما ناشته
 أحداث الزمان ، فهو في أسره أحوج ما يكون إلى الصبر ، والوقار ، والشجاعة
 في مواجهة نواب الدهر ، ومصاب الآلام . وتجري بين أبي فراس "والدمشق"
 مناظرة ويجد أبو فراس في هذه المناظرة فرصة متاحة ومجالاً واسعاً يتغنى من
 خلاله ، وعلى مسامح الروم ، بهطلته ، وشدة عزيمته ، وصبره ، وشجاعته الكمال
 وآثاره الطيبة ، وفروسته الفذة ، وشجاعته الفريدة في مواجهة الموت
 غير هباب مولا وجل :

تألمني الدمشقي إذ رأيته	فأبصر صبغة اللبس الهمام
أنكرني كأنك كنت تدري	يأني ذلك البطل المحامي
وأنني إذ نزلت على دلكوك	تركك غير متحيز النظم
ولما أن عقدت صليب رأيته	تحلل عقد رأيك في المقام
وكنت ترى الأناة وتدعها	فأعجلك الطعان عن الكلام
صت مؤثراً من غير سقم	جففتك طيب النوم حامس
ولا أرفع الفتي ما لم يكمل	برأي الكهل إقدام الغلام
فلا هنتها نعم بأمر	ولا وصلت سهودك بالتصام

(١) ديوان أبي فراس الحمداني - تحقيق الدهان ج ٢ ص ٢٢ .

ثم يأخذ أبو فراس بعد هذه الأبيات في الخط من قدر الروم والتهوين
من شأنهم إيماننا في التفنى ببطولته ، وأعلا شأنه :

أَمَا مِنْ أَعْجَبِ الْأَشْيَاءِ عِلْجٌ	يَحْرِقُنِي الْحَلَالُ مِنَ الْحَرَامِ
وَتَكْفُهُ بِطَارِقَةٍ تَمُوسٌ	تَبَارِي بِالْعَثَانِ فِي الضَّخَامِ
لَهُمْ خَلَقَ الْحَيَوَانَ فَلَمْ يَلْقَ	فَتَى مِنْهُمْ يَسُورُ بِلَا حِزَامِ
يَرْمُونَ الْعَيُوبَ فَأَعْجَزَتْهُمْ	وَأَيُّ الْمَهْبُودِ فِي الْحَصَامِ
وَأَصْعَبُ خُطَّةٍ وَأَجَلُ أَمْرٍ	مَجَالَسَةُ اللَّطَامِ عَلَى الْكِرَامِ

ثم يعود أبو فراس مرة ثانية إلى التفنى ببطولته ، ومقوماتها ، وعناصرها
وكانه بهذا التقسيم الذي قسم به قصيدته من تفن بنفسه ، ثم خط من قدر
أعدائه ، ثم عود من جديد إلى التفنى بنفسه ، كأنه بهذا التقسيم يمعن
في إظهار الفرق بينه وبين الروم :

أَيُّوتٌ مَبْرَأٌ مِنْ كُلِّ عَرِيْبٍ	وَأَصْبَحَ سَالِمًا مِنْ كُلِّ ذَا أَمٍ
وَمَنْ لَقِيَ الَّذِي لَا قِيَتَ هَانَتْ	عَلَيْهِ مَوَارِدُ الْمَوْتِ الْكُوفِ
ثَنَاءٌ طَهَبَ لَا خَلْفَ فَمَنْ	وَأَثَارُ كَأَثَارِ الْغَمَامِ
وَعَلِمَ قَوَارِسُ الْحَيَيْنِ أَنَّ	قَلِيلٌ مَنْ يَقُومُ لَهُمْ مَقَامِي
وَفِي طَلَبِ الثَّنَاءِ مَضَى بِجَهْرٍ	وَجَادَ بِنَفْسِهِ " كَعَبَّ بِنِ سَامِ "
أَلَا عَلَى التَّعَرُّضِ لِلْمَنَامِ	وَلِي سَمْعٌ عَنْ السَّلَامِ (١)

والمعنى الأخير في هذه الأبيات والذي يتضمنه آخر أبياتها ، معنى
تعرض أبي فراس للموت ، ولولا الرفاق له على هذا التعرض ، معنى تردد كثيرا

(١) أبو فراس الحمداني - تحقيق د. إبراهيم السامرائي - ١٥٢ و ١٥٦

في أشعار أبي فراس خاصة تلك التي نظمها بعد أسره ، وهو معنى من معاني ، بطولته ، وعصر من عاصرها إذ هو نتيجة حتمية لجراحة قلبه — وشدة ، بأشه ، وشجاعة نفسه ، ولقد تغنى به أبو فراس كثيرا ، إمعانا في تجسيد بطولته حتى وهو أسير من ذلك قوله :

يقولون : " جنّب " عادة ما عرفتها شديد على الإنسان ما لم يحسود
فقلت : أما والله لا قال قائل : شهدت له في الحربا لم تشهد
ولكن سألقاها ، فإما منهية هي الظن أو بنيان عزموطد (١)

وكذلك قوله متغنيا بالمعنى نفسه :

وقال أصحاب الفرار أو الردى فقلت : " هما امران أخلاهما سر
ولكنني أمشي لما لا يمهيني وحسبك من أمين خيرهما الأسر
يقولون لي : " رحمت السلامة بالردى " فقلت : " أما والله ما نالني خير "
وهل يتجاني عن الموت ساعة إذا ما تجاني عن الكر والفر ؟
هو الموت فاختر ما علالك ذكره فلم يمت الإنسان ما حيين الذكر

وإذا كان أبو فراس وهو أسير بين أظهر الروم ، قد تغنى ببطولته وانتصاراته على مسامع من أعدائه ، إلا أنه لم يستطع — كما قلت آنف — أن يخفى ما يحس به من ألم سببه له جرح هزيمته وخطب أسره ، ويظهر إحساسه بألم ذلك الجرح في كتاباته لاهن عنه طالبا باقتدائه ، كما يظهر في

(١) ديوان أبي فراس الحمداني — تحقيق الدهان ج ٢ ص ٨١ .

عنايه له حين تأخر عن اقتدائه ، ويظهر هذا الإحساس بألم ذلك الجرح أيضا في كتاباته لأنه موصيا إياها بالصبر ، وجميل التأسي بمن سبقها من نساء المؤمنين في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعهد خلفائه الراشدين من بعده .

كاتب أبو فراس - كما قلت - ابن عمه سيف الدولة مناشدا إياه المصارفة باقتدائه ، ومن خلال هذه الكتابات المستمرة ، والنداءات المتلاحقة يظهر إحساس أبو فراس بألم الجرح الذي سببته له هزيمته أمام الروم ووقوعه أسيرا في أيديهم :

دَعَوْتُكَ لِلجَفَنِ القَرِيحِ السَّهِيدِ	لَدَى وَلِلنَّوْمِ القَلِيلِ الشُّرْدِ
وَمَا ذَاكَ بِخَلَا بِالحَيَاةِ وَأَنْتَهَا	لَأَوَّلِ مَجْدٍ لِأَوَّلِ مَجْتَهَدِ
وَمَا الْأَمْرُ مَا ضَعُفَتْ ذُرْعًا بِحَطِيئَةٍ	وَمَا الْخَطْبُ مَا أَنْ أَقُولَ لَهُ : قَدِ
وَلَسْتُ أَبَالِي إِنْ ظَفَرْتُ بِمَطْلَبٍ	يَكُونُ رَحِيمًا أَوْ يَوْسَمُ مَزُودِ
وَلَكِنِّي اخْتَارْتُ بَيْتِي أَيْسَى	عَلَى صَهَوَاتِ الْخَيْلِ غَيْرِ مُوسَدِ
وَتَأْبَى وَأَبَى أَنْ أَمُوتَ مُوسَدًا	بِأَيْدِي النِّصَارَى مَوْتَ أَكْبَدِ

وإذا كان أبو فراس قد أحس ألم هذا الجرح النفس ، جرح هزيمته أمام الروم ، ووقوعه في أسرهم وتجسد ذلك الإحساس من خلال هذه النداءات إلا أنه يحاول أن يظهر متعاسكا رغم هذا الإحساس ، وأن يحزوا نداه لا ينعم به ، وطلبه المصارفة باقتدائه إلى أنفتة وأنفة ابن عمه نفسه من أن يموت موسدا بأيدي هؤلاء النصارى من الروم . وأبو فراس يؤكد ذلك المعنى الذي يجسد بطولته حتى وهو يقاس ألم ذلك الجرح المر ، فيكرر

ذلك المعنى الذى تتجسد من خلاله بطولته - كما قلت - :

أَنَادِيكَ لَا أَنِّي أَخَافُ مِنَ الرَّدَى وَلَا أَرْجُو تَأْخِيرَ يَوْمٍ إِلَى غَدٍ
وَقَدْ حَطَمَ الْخَطِيئُ وَأَخْتَرِمَ الْعِدَى وَقُلِّلَ حَدَّ الْمَشْرِيقِ الْمَهْنَدِ
وَلَكِنْ أَتَيْتُ الْمَوْتَ فِي دَارِ فُتَيْ بِأَيْدِي النَّصَارَى الْغَلْبَ بَيْتَهُ (١)

وهكذا يحرض أبو نواس على أن يضمن ندائاته لابن عمه ، وكتابات له تغنيا
ببطولته ، وتجسيدا لانتصاراته ، التى لن تستطيع ههههه ، ولن يستطيع
أسره أن يخفها منها . صحيح أنه يكتب إليه مناغدا المسارة باقتدائه ولكنه
لم ينس يوما بطولته ، وانتصاراته ، وأمجاد ، لذا فإنه يحرض - كما
قلت - على أن يضمن هذه النداءات تغنيا بهذه البطولة ، وتلك
الانتصارات والأمجاد :

أَقْلَنِي لِمَ أَقْلَنِي لِشَرِّ الدَّهْرِ إِنَّهُ رِيَانِي بِسَهْمٍ صَافٍ النَّصْلَ مُقْعِدِ
وَلَوْ لَمْ تَلِّ نَفْسِي وَلَا كَلِمَةً لَمْ أَكُنْ لِأُورِدَهَا فِي نَصْوِي كُلِّ مَسُورِدِ
وَلَا كُنْتُ الْقَى الْأَنْبَازَ زُرْقًا عَمُوشًا بِسَبْحِينَ فِيهِمْ كُلُّ أَعْيَامٍ أَنْكَوِ
فَلَا وَابْنِ مَا سَاعِدَانِ كَمَا عَسِدِ وَلَا وَابْنِ مَا سِيدَانِ كَمَا سَوْدِ
وَلَا وَابْنِ مَا يَخْتَقِ الدَّهْرُ جَانِبَا فَيَرْتَقِي إِلَّا بِأَمْرِ مَسْدَدِ (٢)

وتشتد العلة على أبي نواس فواصل الكتابة لابن عمه ، ولا تخلو
كتابته إليه من تغن ببطولته ، وكرمه :

هَلْ تَعْطِفَانِ عَلَى الْعَلِيلِ لَا بِالْأَسْهَرِ وَلَا الْقَتِيلِ

(١) ديوان أبي نواس الحمداني - تحقيق الدهان ج ٢ ص ٨٠

(٢) المصدر السابق نفسه

بَاتَتْ قَلْبَهُ الْأَكْمَرُ	فُ سَحَابَةُ اللَّيْلِ الطَّهِيلِ
يَرَى النُّجُومَ السَّائِرَا	تِ مِنَ الطُّلُوعِ إِلَى الْأَقْصُولِ
فَقَدْ الضُّيُوفَ مَكَانَهُ	هَكَاهُ أَبْنَاءُ السَّيْمِ
وَأَسْتَوْحِشَتْ لِفِرَاقِهِ	يَوْمَ الْوَفَى يَرْوِبُ الْخُيُولِ
وَتَعَطَّلَتْ سَمَرَ الرَّيَاسَا	حِ وَأَغْدَتْ بَعْضَ النَّصُولِ

فعلى الرغم من أن أبا فراس يعانى آلام علة التي اشتدت به فاس مراراً لا سر
والهزيمة إلا أنه يضيء خضم ذلك كله - لا يتس حربه وخطوته وانتصاراته
وكرمه وضيوفه - فهو أجاد تتراعى لمعينه و تعاوده ذكرياتها تهتفى
بها وهو طليل بمقام آلام علة . ويتأخر افتداه سيف الدولة لابن عسه
وبجز ذلك في نفس أبي فراس إذ يضيف إلى آلامه آلاماً أخرى جراحه جرحاً
ويعتب أبو فراس على ابن عمه ذلك التقاعس والقعود عن افتدائه ويقسو
نفسه عليه على ابن عمه وذلك شين طبعه إذ يحد ذلك العتاب عن
نفس جريحة وقلب كسور :

فَلَا كَانَ كَلْبَ الْيَوْمِ أَرَأَى يَنْكُمَ	وَأَرْفَى فِي كَسْبِ الثَّنَاءِ الْمُخْلِدِ
وَلَا يَبْلُغُ الْأَعْدَاءُ أَنْ يَتَاهَضُوا	وَتَقَعْدُ عَنْ هَذَا الْعَلَامِ الْمُشْرِدِ
أَضْحُوا عَلَى أَسْرَاهِمِ يَوْمَ عَوْدَا	وَأَنْتُمْ عَلَى أَسْرَاكُمْ غَيْرَ عَوْدَا (١)

وهو عتاب مرأى به يقسو أبو فراس فيه قسوة الفرسان ذوى الهمم
وأصحاب النفوس العالية فهو لا يتذلل من خلاله لابن عمه بل يبدون
خلال ذلك العتاب كعبد الناس به - بطلاً أنفاً مأبياً كرمها

(١) ديوان أبي فراس الحمداني - تحقيق الدهان ج ٢ ص ٧٩

وعقاب أبي فراس لابن عمه ، لا ينقضي حبه له ، فهو يكن له بين جوانحه
حبا عميقا ، ويتجلى ذلك في إحدى قصائد أبي فراس في عتاب سيف الدولة
والتي يستهلها بالغزل :

أَرَأَيْتَ الدَّمْعَ شَمَتَكَ الْبَسِيرَ أَمَا لِلْهَوَى نَهْيٌ عَلَيْكَ وَلَا أَمْرٌ ؟
بَلَى ، أَنَا مُشْتَاقٌ وَتَدْوَى لَوْعَةٌ وَلَكِنْ مِثْلِي لَا يُدَاعُ لَهُ سِرٌّ
إِذَا اللَّسِيلُ أَضَوَانِي بِسَطْتِ يَدَ الْهَوَى وَأَذَلَّتْ دَمْعًا مِنْ خِلَافِهِ الْكَبِيرُ
تَكَادُ تَضِيءُ النَّارُ بَيْنَ جَوَانِحِي إِذَا هِيَ أَذْكَتُهَا الصَّبَابَةُ وَالْفَكْرُ

وعجيب أن يستهل أبو فراس قصيدته بالغزل ، فيفتنني بحبه وهو
أسير ، جريح ، توفى دماؤه ، وتذوب نفسه حشرات على ما آل إليه أمره
وحاله ، ولكن العجب يزول إذا ما تبونا أن غزل أبي فراس في هذه القصيدة
لم يكن غزلا حقيقيا ، وإنما هو غزل رمزي ، إذ يرمز بالمحبة في هذا
الغزل إلى سيف الدولة ابن عمه وأمهه ، وأبو فراس يتخذ من ذلك
الغزل ثكافة ليعقب على سيف الدولة ، تضييعه للمودة التي كانت بينهما
والقراءة التي تجمعهما ، يأخذ عليه تموده عن نصرته ، ويظهر ذلك جليا
في قول أبي فراس بعد الإهبات السابقة :

مَعَلَّتِي بِالْوَصْلِ وَالْمَوْتِ دُونَهُ إِذَا مِتُّ طَمَآنًا فَلَا تَزُلِ الْقَطْرِ
حَفِظْتُ وَضِيعَتِ الْمَوَدَّةِ بَيْنَنَا وَأَحْسَنُ مِنْ بَعْضِ الْوَفَاءِ لَكَ الْعَذْرُ
ويؤكد أبو فراس وفاءه لابن عمه الذي يرمز إليه بالمحبة في هذه القصيدة
وتأكيد لوفائه لابن عمه مبرر لعتابه له :

وَمَوْتُ وَفِي بَعْضِ الْوَفَاءِ مَذَلَّةٌ لَا تَسِيءُ فِي الْحَيِّ شَيْئًا الْغَدْرُ
ثم يصل أبو فراس إلى عتاب ابن عمه ، فيأخذ في عتابه ، ويعتمد في عتابه
أيضا على الرمز الذي اعتمد عليه في غزله :
تَسْأَلُنِي : مَنْ أَنْتَ ؟ وَهِيَ عَلِيَّةٌ وَهَلْ يَغْنَى بِشَلَى عَلَى حَالِهِ كُفْرٌ ؟
فَقُلْتُ كَمَا شِئْتَ ، وَغَاءَ لَهَا الْهَيَّوَى
تَهْلِكُ ! * قَالَتْ : * أَيُّهُمْ فِيمَ كُفْرٌ ؟
فَقُلْتُ لَهَا : * لَوْ شِئْتَ لَمْ تَتَعَنَّنِي وَلَمْ تَسْأَلِي عَنِّي وَعَنْ دِكْيَينَ خَيْرُ !
فَقَالَتْ : * لَقَدْ أَرَى بِكَ الدَّهْرَ بَعْدَنَا ! *
فَقُلْتُ : * مَعَاذَ اللَّهِ ! بَلْ أَنْتَ لَا الدَّهْرَ

والأبيات حافلة بالعتاب المر ، والتغنى بالبطولة التي يرى فيها أبو فراس
أن أحدا لا يستطيع أن ينكره . ويتكشف الرمز في غزل أبي فراس ، وتظهر
حقيقته شيئا ، فشيئا حين يأخذ الشاعر في الإفصاح عن حقيقة مجيئه
التي عاها في هذا الغزل :

فَلَا تَكْرِهِي بِأَيَّةِ الْعَمِّ إِنَّهُ لَمَحْزُونٌ مِنْ أَنْكَرِيهِ الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ
وَلَا تَكْرِهِي إِنْ نَسِ غَيْرَ مَنْكَسِرٍ إِذَا زَلَّ الْأَقْدَامُ وَاسْتَقْبَلَ النَّصْرُ

وهكذا يوكد أبو فراس بطولته ، ويجسدها ، حين يتغنى بما يكون منه
عندما تنزل أقدام الفوارس في ميدان القتال ، فعندها تشرى إليه الأضاق
وتتعلق به الأسال .

(1) ديوان أبي فراس الحمداني / تحقيق الدهان - ج ٢ ص ٢٠٩ ومما
بعدها .

وظل أبو فراس يتغنى ببطولته ، وهو يعاتب ابن عمه ، فلم ينس نفسه ولم تغيب عنه بطولته لحظة حتى وهو في أشد حالاته ألما ومعاشته للبهيمة التي تسببت في أسره ، ومعاده عن أهله :

تَشَوَّقُنِي الْأَهْلُ الْكَرَامُ وَأَوْحَشَتْ مَوَاكِبَ بَعْدِي غَدَهُمْ وَمَجَالِسُ
وَرَشْمَازَانَ الْأَمَاجِدَ مَا جَدَّ وَرَشْمَازَانَ الْفَوَارِسَ فَارِسُ !
رَفَعْتُ عَلَى الْحَصَادِ نَفْسِي وَهَلْ هُمُ
وَمَا جَمَعُوا لَوْ شِئْتَ إِلَّا فَرَاسُ ؟
أَيَدْرِكُ مَا أَدْرَكَتُ إِلَّا ابْنَ هَمِيَّةٍ

يَمَارِسُ نَيْ كَسْبِ الْعُلَا مَا أَسَارِسُ ؟
يَضِيقُ مَكَانِي عَنْ سِوَايَ لِأَنْتَسَى عَلَى قَمَةِ الْمَجْدِ الْمَوْثِلَ جَالِسُ
سَهَقْتُ وَقَوَيْسُ بِالْمَكَارِمِ وَالْعُلَا (١) وَإِنْ رَغَصْتُ مِنْ آخِرِينَ الْمَعَاطِلِ

وهكذا يتغنى أبو فراس ببطولته حين يرى أنه ما جد وابن لا ما جد ، وفارس وابن لفوارس ، وأن أحدا لم يدرك ما أدرك ، ولا سمى أحد إلى العلاء مثل سميته ، فهو الجالس على قمة المجد ، وهو السابق بالمكارم والعلاء وكذلك قومه .

ويتابع أبو فراس عتابه لابن عمه ، ويظل يضمن ذلك العتاب تغنيا ببطولته التي لم يخض منها الأسر ، بل زادهها ظهورا ، وتجسيدا :

وَمَا غَضَّ مَنِّي هَذَا الْأَمَارُ وَلَكِنْ خَلَصَتْ خُلُوصَ الذَّهَبِ
فَفَهْمُ يَمْرُؤُنِي بِالْخُسُوفِ لَمْ يُولَدْ بِهِ ثَلَاثُ أَعْلَى الرُّسَبِ ؟

(١) ديوان أبي فراس الحمداني - تحقيق الدهان ج ٢ ص ٢٣٥ .

وكان عتدا لدى الجواب
أتكراني شكوت الزمان
فمها رجعت فاعتتسى
فلا تسين إلى الخمول
وأصحت منك ففضل يكون
وما شككتي فيك الخطوب
ولكن لهيئة لم أجيب
وأتى عتتك فمهن حبيب
وهبت لي ولقوس الغلب
أفت عليك فلم أخترب
وإن كان نقص فانت السبب
ولا غيرتي فيك لنسوب

ويأخذ أبو فراس بعد هذا العتاب القاس المرمر - يأخذ - نفس
التغنى بطولته ، مجسدا هذه البطولة بتغنيه ببعض غاصرها ، ومقوماتها
من حلم ، وعلا ، ونسب كهم ، وأدب جم ونفس كهيرة ، وهمة طالمة :

وأسكن ما كنت في صجرتي
ولن خراسان إن أنكرت
ومن أين يتكرن الأهدون
ألت وأياك من أسيرة
ودار تناسب فيها الكرام
ونفس تكبر إلا علمك
وأحلم ما كنت عند الغضب
على فقد عرفتها حبيب
أمن نقص جد ؟ أمن نقراب ؟
ومني وبينك قرب النكب ؟
وتربة ومحل أشيب !
وترغب إلاك عن رغب (١)

وتكرر هذه المعاني كثيرا في شعر أبي فراس الذي نظمه في عتاب سوف
الدولة فعتابه ، كما قلت - يصدر عن نفس أبوة قد استشعرت البطولة

(١) ديوان أبي فراس الحمداني - تحقيق الدهان ج ٢ - ٢٧

وحققت النصر ، واتسمت بالعزة والأنفة ، والشم ، لذا يأتي عتابه دائما
من منطلق القوة ، لا من منطلق الضعف ، والذل والهوان :

زَمَانٍ كُلُّهُ غَضَبٌ وَتَسَبُّبٌ	وَأَنْتَ عَلَى الْآيَامِ إِلْسَبٌ
وَمَعِشَ الْعَالَمِينَ لَدَيْكَ سَهْلٌ	وَمَعِشِي وَحْدَهُ بَقَاكَ تَصْعَبُ
وَأَنْتَ ، وَأَنْتَ دَائِعُ كُلِّ خَطْبٍ	مَعَ الْخَطْبِ الْيَلَمُ عَلَى خَطْبٍ
إِلَى كَمْ ذَا الْعِتَابِ وَلَيْسَ جِسْمٌ	وَكَمْ ذَا الْاِعْتِذَارِ وَلَيْسَ ذَنْبٌ ؟
فَلَا بِالشَّامِ لَذِيْفِي شَرِبٌ	وَلَا فِي الْأَسْرِيقِ عَلَى قَلْبٍ
فَلَا تَحْمِلْ عَلَى قَلْبٍ جَرِيحٌ	بِهِ لِحَوَادِثِ الْآيَامِ نُدْبٌ

ولاشك أن هذه الأبيات التي يستهل بها أبو فراس قصيدته تفسر
عتاب ابن عمه ، أبيات ذاتية صيغة ، يجترأبو فراس من خلالها التماس
وأحزانه ، إذ قسا عليه الزمن ، وتزاحمت عليه الخطوب ، ولم يجد نفس
أسره من يرق له أو عليه ، ثم يكتمل الخطب فيكون سيف الدولة مع
الزمن عليه ، وكان الأخرى به أن يكون معه في محنته عونا ، وضدا وقد
آل به الحال ، إلى هذا الحال ، وصار به الأمر إلى ذلك المصير .

فالأبيات - كما قلت - اجترار للأحزان والآلام أكثر منها عتابا
لسيف الدولة .

وقد يفهم من هذه الأبيات - لأول وهلة - أن نفس أبي فراس قد ضعفت ، وأن هيئته قد كُتلت ، وأنه استسلم للاحزان ، وخضع لقمصة الزمن وجبروته ، ولكن أبا فراس كمهده تابه بأخذ في الثفن ببطولته ، مورد سيل من الأمجاد ، والكارم يجسد من خلالها بطولته ، وبرزته ونسفته ومجدده ، وسيادته :

أَخْلِي ثَقُلَ الْأَقْصَالُ فِيهِ	وَذَلِكَ بِتَغَيُّرِ طَبَقِهِ كَيْدُ
جَنَابِي مَا عَمِلْتُ وَلِي لَسَانُ	يَقْبِذُ الدَّرْعَ وَالْإِنْسَانَ عَنَّا
وَزَيْدِي وَهُوَ زَيْدٌ لَيْسَ يَكُونُ	وَنَارِي وَهِيَ نَارُكَ لَيْسَ تَغْتَرُّ
وَفَرِي فَوَيْلُ الرَّائِي الْجَلَسِي	وَأَخْلِي أَسْلُكَ السَّابِي وَحَنَّا
"لَا شَأْنِي" يَسْ وَتَبُو قَسِيرُ	وَيَسْ "إِسْحَقُ" يَسْ وَتَبُو عَجِيرُ
وَأَحْسِي "رَبِيعَةُ" وَهِيَ صَبِيرُ	وَأَعْوَالِي "بَلْعَبَرُ" وَهِيَ ظَبِيرُ
وَقَتْلِي تَجْزِي الْقَتْلَاءَ عَسِيرُ	لَأَنَّهُ أَسْلَهُ وَالْجَسَدُ تَسِيرُ (١)

وهكذا يخبر أبو فراس على الثفن ببطولته ، وجسدها حتى وإن اجتراحاته ، واللامية ، وطأة جرحه ، وهزيمته ، وأسره . وهكذا كان كل خطاب أبي فراس لابن عمه اجتراحاً أحزاناً وتذكيراً لأمه ، ثم يتبع ذلك تيفين بالبطولة ، وإحساس بالعزة ، من ذلك "بائع" أبي فراس التي عنتها أبياتاً في خطاب ابن عمه يمدو أبو فراس من خلالها وكأنه فقد الثقة في النسيان معظم الناس ، ولكن بكيفية فثقة في نفسه :

بِمَنْ يَتَّقُ الْإِنْسَانَ فِيهَا يَتَوَكَّلُ	وَمَنْ لَيْسَ لَهُ الْخَيْرُ الْكَبِيرُ حَيَّا
وَقَدْ حَارَ هَذَا النَّاسُ لَا أَظْهَرُ	ذَنَابًا عَلَى أَجْسَادِهِمْ يَسَّ
تَعَابَتْ عَنْ قَبْضِ فِطْنَتَا سَاوَةٍ	تَغْرِقِي أَغْنَانَا حَصَى وَتَسَّ
وَلَوْ مَرُّوْنَ حَقَّ مَرُّوْنِي وَبِئْسَ	إِذَا عَلِمُوا أَنِّي شَهِدْتُ وَظَّيَّرَا
وَمَا كَلَّ مَقَالِي حُجَارِي بَعْلِي	وَلَا كَلَّ قِيَالِي لَدَيْ بَيْتِي
وَرُبَّ كَلَامٍ مَرُوقٍ سَامِعِي	كَمَا طَلَنَ فِي لُحَى الْهَجِيرِ دَبَّاسُ

ثم يأخذ بعبء ذلك كله على عادته من الثفن ببطولته ، وإتصافاته ذاكراً هذه البطولية وظلة الانتصارات ، مجدداً إياها :

(١) ديوان أبي فراس الحمداني - تحقيق الدهان ج ٢ ص ٢٨ -

إِنِ اللّٰهُ أَكْرَمُنَا مِنكُمْ
فَتَرَى الْمَلَأَى لِرَبِّهِمْ كَرِهًا
وَلَا يُدْعَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ عَاجِلًا
وَلَا يَقْتُلُ عَلَىٰ الْفُلَاكِ قَوَّامًا
مُّذَكِّرًا يَبْقَىٰ تَبَرًّا وَتَعْلَمُونَ
أَنَّا الْخَارِجُ الْأَوَّلِيّ عَيْنِي
وَلَا أَظْلَمُ الْعَمْرَةَ مِنْهُنَّ
وَأَسْطُو وَحَقَّابَتِي مَدْرَجَتِي

مقت هذه الأبيات التي يجسد فيها أبو فراس مظلومته ، وانتماءاته ، يستعيد العبد الذكي -
الضحية معاد عتابه لأن عمه ، أخذ عليه ثأره في اقتدائه ، فأراد بهنه ، بين السرور
حين دعا إلى اقتداء أسرارهم ، فأجابوا في الوقت الذي تقاضى فيه سيف الدولة عن اقتدائه :

١٠
 ١١
 ١٢
 ١٣
 ١٤
 ١٥
 ١٦
 ١٧
 ١٨
 ١٩
 ٢٠
 ٢١
 ٢٢
 ٢٣
 ٢٤
 ٢٥
 ٢٦
 ٢٧
 ٢٨
 ٢٩
 ٣٠
 ٣١
 ٣٢
 ٣٣
 ٣٤
 ٣٥
 ٣٦
 ٣٧
 ٣٨
 ٣٩
 ٤٠
 ٤١
 ٤٢
 ٤٣
 ٤٤
 ٤٥
 ٤٦
 ٤٧
 ٤٨
 ٤٩
 ٥٠
 ٥١
 ٥٢
 ٥٣
 ٥٤
 ٥٥
 ٥٦
 ٥٧
 ٥٨
 ٥٩
 ٦٠
 ٦١
 ٦٢
 ٦٣
 ٦٤
 ٦٥
 ٦٦
 ٦٧
 ٦٨
 ٦٩
 ٧٠
 ٧١
 ٧٢
 ٧٣
 ٧٤
 ٧٥
 ٧٦
 ٧٧
 ٧٨
 ٧٩
 ٨٠
 ٨١
 ٨٢
 ٨٣
 ٨٤
 ٨٥
 ٨٦
 ٨٧
 ٨٨
 ٨٩
 ٩٠
 ٩١
 ٩٢
 ٩٣
 ٩٤
 ٩٥
 ٩٦
 ٩٧
 ٩٨
 ٩٩
 ١٠٠

وهكذا تسيطر الآخزان على هذه الآليات ، وتحتأنها الكتلة ، وأما على الرغم من ذلك
فهي تنف بالبطولة ، والاعتناء ، وتحتأها الآليات المتعددة التي تحتأها أو فراس العرب
وسجلها له التاريخ .

على الرغم من ذلك سيف العرب لم ين أبن منه تأخره في الفتنة ، إلا أن أبا قريش ظلم
على وفاته له ، فقام ، بن حوران عيسى ، في مرقه وسلطه تألى عليه غير ذلك ، وعلم
سبر بأرض العرب بأن ، الديست ، خارج من جوع من جيفة قاصد سيف الدولة في كيب إلى
من عنه مرقه له ذلك من خلال قصيدته تحتأها سكا الأمل :

(١) ديوان أس فراس الحمداني، تحقيق الدهان ج ٢، ص ٢٢٩.

حاراً ، وهو يارح في تصوير احساسه ومشاعره سواء تحدث إلى
ابن عمه ، وهو في أسره ، أو خاطب جماعة تتوح ، أو صور لهالة
من ليل إلى جبهه (١)

(١) السلفن ومذاهبه في الشعر العربي د . عوفى عفيف - دار المعارف
بمصر - الطبعة العاشرة - ص ٣٥٢ و ٣٥٣

أَبْنَيْتُ لَا تَحْزَنْتَنِي ۞ كُلُّ الْأَنْثَامِ إِلَى ذَهَابٍ (١)
 أَبْنَيْتُ صَبْرًا جَمِيلًا ۞ لَا لِلْجَلِيلِ مِنَ الْمَصَابِ
 نَوْحٍ عَلَى بَحْثُورَةٍ ۞ مِنْ خَلْفِ سَيْتِكَ وَالْحِجَابِ
 قَوْلِي إِذَا نَادَيْتَنِي ۞ وَبَعِثْ مَنْ رَدَّ الْجَوَابِ
 نَهْنُ الشَّيَابِ أَبُو فِرَاسٍ ۞ مَنْ لَمْ يَمُتْ بِالشَّيَابِ (٢)

وهكذا لم يخل شعر أبي فراس من تغنيه ببطولته وانتصاراته ، ومقومات هذه البطولة ، وعوامل تلك الانتصارات وأسبابها ، تمتد في ذلك أشعاره قبل أسره ، وأشعاره بعد أن وقع في أيدي الروم أسيرا ، وإن كانت أشعاره التي سجلها وهو أسير لدى الروم تخيم عليها ظلال قاتمة من الأس والحسرة سببها جرح أبي فراس الذي أصاب نفسه بعد هزيمته أمام الروم ، وأسره نفس أيديهم والذي كان له على نفسه وقع ألهم ، وإن لم يخفض من بطولته وعظيم انتصاراته .

يقول د . شوقي ضيف عن روميات أبي فراس : " وخير أشعاره جميعا رومياته التي نظمها في أسره ، والتي كان يرسل بها إلى سيف الدولة معاتبا لتقاعسه عن فدائه ، وهي تكتظ بالحنين إلى الأهل ، والشكوى من الدهر ، والرفاق ومن رواعها قصيدته التي يخاطب فيها أمه ، والأخرى التي يرثيها بها رشا " .

(١) يروي الشطر الأول " لا تحزني " .

(٢) ديوان أبي فراس - تحقيق سامي الدهان ج ٢ ص ٤٧ .

أقول وقد ناحت يقوس حمامة . . أيا جارتا هل تشعنين بحالي ؟
 معاذ الهوى ماذ قت طارقة النوى . . ولا خطرنا لنا اليوم بهاليس
 أتجمل محزون الفؤاد قواديم . . على غصن ناري السافة عاليس ؟
 أيا جارتا ما أنصف الدمع بمننا . . تعالى أفا سمك اليوم تعالىس
 تعالى ترى روحا لدى ضعيفة . . تردد في جسم عذب باليس
 أبغضك ما سور وتكن طليقة . . ويسكت محزون وينطق باليس ؟
 لقد كنت أولى منك بالدمع مقلّة . . ولكن دمي في الحوادث ظلي (١)

وهكذا تجسد الأبيات سأل إلى جانب ما فيها من حزن وألم — بطولة أبي فراس
 فهو أسير ولكنه ضاحك ، وحزين ولكنه صامت صبور ، إن من كان في مثل ظروفه
 لا يملك دموعه ، ولكن دمع أبي فراس غال في الحوادث . وهذا هو سر
 بطولته ، ويمكن القوة في هذه البطولة النفسية التي تغذي بطولته العسكرية
 وتقويها .

وفي آخر أبياته ، وعندما أحس أبو فراس بدينوا أجله ، يخاطب ابنته
 بأبيك تفيض حسرة وألما ، لأنها تصدر عن فارس يحسراته في طهقة إلى
 الموت ، وهو في زمان شبابه ، لم يكمل ما كان يطمح إليه ، وإن كان قد
 حقق خلال هذا العمر القصير ، ما لم يستطع لغيره من وهبوا طول العمر
 أن يحققوه ، ولكن بطولة أبي فراس ، بعد هتمليس لها حد ينتهيان
 إليه .

(١) أبو فراس الحمداني — تحقيق السامرائي ص ١٢٧ .

إِنْ زُرْتُ خَرْشَنَةً أَسِيرًا
 وَلَقَدْ رَأَيْتِ النَّارَ تَسِيرًا
 وَلَقَدْ رَأَيْتِ السَّيْنَ يَجِيرًا
 نَخَّارٌ مِنْهُ الْغَادَةُ السَّيْرًا
 إِنْ طَالَ لَيْلِي فَيَسَى ذُرًا
 وَلَيْثُنَ لَقِيتِ الْحَزْنَ فَيَسَى
 وَلَيْثُنَ مَنِيْتُ بِحَسْبَادٍ يَسَى
 صَبْرًا لَعَلَّ اللَّهَ يَفْزِي
 مَنْ كَانَ مِثْلِي لَهَيْبِي كَيْسَى
 لَوْسَتْ تَحِلُّ سِرَاتِي سَبْرًا
 فَلَكُمْ أَحَطَّتْ بِهَا مَغِيرًا ؟
 تَهْبِطُ الْمَنَازِلُ وَالْقَمُورًا
 لَبَّ نَحْوَنَا حُجَا وَحُورًا
 حَسَنَاءُ وَالظُّلُمُ الْفَرِيرًا
 إِنْ فَقَدْتُ نِعْمَتِي بِمِصْرًا
 إِنْ فَقَدْتُ لَقِيتُ بِكَالسُورًا
 فَلَا لَفْهَنَ لَهُ صَبْرًا
 سَتَحْ بَعْدَهُ فَتَحًا بِمِصْرًا
 إِلَّا أَسِيرًا أَوْ أَمِيرًا
 إِلَّا الصُّدُورَ أَوِ الْقُبُورًا (١)

وهكذا تنزخر هذه الأبيات بالتغنى بالبطولة التي يستشعرها أبو فراس فيما كان له من وقائع مع الروم ، سجل خلالها انتصارات عديدة ، لا يغض منها وقعه آخر الأبراسير في أيديهم .

ويسمى أبو فراس وهو أسير بارض الروم حمامة تنوح بالقرب منه عيسى حمامة فرع شجرة ، وتهج تلك الحمامة أشجانها ، وآلامه ، وتعيد إليه ذكريات المآضيه المجيد ، فيناجيه بأبيات تتمعها يقاس من آلام وما يتجرع من مرارات وأحزان ، ولكنها في الوقت نفسه تجسد بطولته الذائعه وإحساسه بهذه البطولة وما تبعها من انتصارات :

(١) ديوان أبي فراس الحمداني - تحقيق الدهان ج ٢ ص ٢٠٧ ، ٢٠٨

إِنَّ أُمَّ هَذِهِ هِيَ صَفَاتُهَا . وَتِلْكَ هِيَ بَطُولَاتُهَا فِي الْحَيَاةِ مِنْ تَقَرُّسٍ
وَإِيمَانٍ ، وَإِجَارَةٍ مُلْهِفٍ ، وَإِغَاثَةِ سَكِينٍ ، وَحَرِيَّةٍ أَنْ تَجِبَ ذَلِكَ الْفَارَسُ
الَّذِي سَجَلَ عَلَى الرُّومِ انتصاراتٍ بَاهِرَةً ، وَطَائِفَ بَيْتُغْنَى بِبَطُولَتِهِ وَانتصاراتِهِ
مِثْلًا يَتَفَنَّى فِي هَذِهِ الْأَبْيَاتِ بِبَطُولَاتِ هَذِهِ الْأُمِّ الْعَظِيمَةِ الَّتِي وَرَثَ عَنْهَا
هَذِهِ الْبَطُولَةُ ، وَأَضَافَ إِلَيْهَا بِطُولَةَ الْحَرِيَّةِ الَّتِي تَخَفَّتْ عَنْهَا انتصاراتُهُ
العديدة والمُتلاحقة .

وَإِذَا كَانَ أَبُو فَرَّاسٍ قَدْ تَفَنَّى بِبَطُولَتِهِ وَانتصاراتِهِ فِي كُلِّ أَشْغَارِهِ الَّتِي
كَتَبَ بِهَا مِنْ أَرْضِ الرُّومِ مِرَاسِلًا إِلَى ابْنِ عَمِّهِ إِمَّا طَالِبًا السَّارَةَ بِانْتِدَائِهِ ، وَأَوْعَاثًا ،
وَالَّتِي كَتَبَ بِهَا إِلَى أُمِّهِ ، وَالَّتِي رَتَّاهَا بِهَا . فَلَقَدْ تَفَنَّى أَيْضًا بِهَذِهِ
الْبَطُولَةِ ، فِي تَصَادُقِ لَمْ يَكْتُبْ بِهَا إِلَى ابْنِ عَمِّهِ ، وَلَا إِلَى أُمِّهِ ، وَلَكِنْ نَظَّمَهَا
يَتَفَنَّى فِيهَا بِبَطُولَتِهِ مِنْ خِلَالِ إِحْسَاسِهِ بِالْأُمِّ جِرَاحِهِ الَّتِي سَبَبَتْهَا لَهُ
هَزِيمَتُهُ أَمَامَ الرُّومِ ، وَأَسْرَهُ عَلَى أَيْدِيهِمْ .

يَمُرُّ أَبُو فَرَّاسٍ "بِخَرْشَنَةِ" وَهُوَ أَسِيرٌ بِأَيْدِي الرُّومِ ، وَتَهْجِعُ هَذِهِ
الْمَدِينَةُ ذِكْرِيَّاتِهِ ، وَتَعِيدُ الْيَمِينُورَا مِنْ أَيْمَانِ جَدِّهِ ، فَلَطَالَمَا غَزَا هَذِهِ
الْمَدِينَةَ ، وَلَطَالَمَا سَجَلَ فِي جَوَانِبِهَا انتصاراتٍ بَاهِرَةً ، وَلَطَالَمَا تَرَكَهَا
وَالنَّارُ تَهْبِئُ مَنَازِلَهَا ، وَقُصُورُهَا ، وَتَجِيشُ نَفْسِ أَبِي فَرَّاسٍ بِهَذِهِ الذِّكْرِيَّاتِ
الضَّيْقَةِ ، تَتَفَنَّى بِبَطُولَتِهِ ، مَجْسُداً مِثْلَ الْعَزَّةِ ، وَأَحْاسِسِ الْإِنْتِصَارِ
وَإِنْ كَانَ قَدْ جَدَّ إِلَى جَانِبِ ذَلِكَ مِثْلَ عَرِ الْأَلَمِ ، وَأَحْاسِسِ الْأُنْسِ
وَالْحُزَنِ ، حِينَ رَأَى نَفْسَهُ أَسِيرًا بِأَيْدِي قَوْمِ أَذَانِهِمْ مِنْ قَهْلٍ وَمِثْلَاتِ
الْحُرُوبِ :

إِذَا أَبْنُكَ سَارَى بَرٍّ وَحَنِيٍّ . . . نَمَنْ يَدْعُو لَهُ أَوْ يَسْتَجِيرُ ؟
 حَرَامٌ أَنْ يَمُوتَ قَبْرَ عَمِّينِ . . . وَلَوْ أَنَّ عَلَّمَ بِهِ السُّرُورُ
 وَقَدْ ذُقْتَ الْمَنَايَا وَالرَّزَايَا . . . وَلَا وَلَدٌ لَدَيْكَ وَلَا عَشِيرُ
 وَغَابَ حَبِيبٌ قَلْبِكَ عَنْ مَكَانٍ . . . مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ بِهِ حُفُورُ

وهي أبيات توهك هذه البطولة التي عاش أبو فراس بجسدها فهو لا يزال يرى نفسه — على الرغم من أسره — على استعداد للسرى البرء والهجرجاهدا ومواصلات قتاله الذي عشقته نفسه وثاق إلى قلبه ، وتعلقت به روحه وإن كانت تخيم على الأبيات ظلال قاتمة أضفاها عليها إحساس الشاعر بفقد أمه التي كانت سنداً ، وعونه ، بدعاتها ، صلاحها ، والتي ذاقته من الرزايا ماذا فت حين مات زوجها ، وابنتها في الثالثة من عمره ، وحين أسر وحيدها التي كانت تعقد عليها أملها ، وتطيّب به رجاءها ، وأيماناً نسي التفتى بهطلته يشرك أبو فراس معه في بكائه لأنه فضا عليها ، وأخلاقها وشيئها ، ومآلات أعمالها من صيام ، وقيام ، وإجارة لمهوى وأغاثة مسكين ، مستجير :

لَيْبِكَ كُلَّ يَوْمٍ صَمْتُ نَفْسِي . . . مُصَابِرَةٌ وَقَدْ حَسَى الْهَجِيرُ
 لَيْبِكَ كُلَّ لَيْلٍ قَمْتُ نَفْسِي . . . إِلَى أَنْ يَبْتَدِيَ الْفَجْرُ الْغَمِيرُ
 لَيْبِكَ كُلَّ مَضْطَهَدٍ مَخُوفٍ . . . أَجْرَنِيهِ وَقَدْ قَلَّ الْجَمِيرُ
 لَيْبِكَ كُلَّ مُسْكِنٍ فَقِيرٍ . . . أَخْتَبِيهِ وَمَا فِي الْعَظْمِ نِيرُ (١)

(١) ديوان أبي فراس الحمداني — تحقيق الدهان ج ٢ ص ٢١٦ وما بعدها .

إِذَا مَا وَفَّكَ اللَّهُ أَمْرًا تَخَافُهُ . . . فَمَا لَكِ سَأَ تَقِيَهُ مُقْبِلٌ
 وَلَئِنْ هُوَ لَمْ يَنْصُرَكَ لَمْ تَلْقَ نَاصِرًا . . . وَلَئِنْ جَلَّ أَنْصَارُ وَعِزُّهُمْ
 وَلَئِنْ رَجَائِهِمْ وَطَنِي بِفَضْلِهِ . . . عَلَى قُبْحِ مَا قَدَّمْتَهُ لِحَبِيسٍ (١)

وتتوت أم أبي فراس وهو في أسره ، فمحزنة موتها حزنا بالغا ، وبغيت
 ذلك في عذبة ، ويكي الفارس الأسير أمه في شعره فخر أسى ، ولوعة :

أَيَا أُمَّ الْأَسِيرِ سَقَاكَ غَمٌّ . . . بِكَرٍّ مِنْكَ مَا لَقِيَ الْأَسِيرُ
 أَيَا أُمَّ الْأَسِيرِ سَقَاكَ غَمٌّ . . . تَحِيرُ لَا يَقِيمُ وَلَا يَسِيرُ
 أَيَا أُمَّ الْأَسِيرِ سَقَاكَ غَمٌّ . . . إِلَى مَنْ يَلْقَا بَأْسَ الْبَشِيرِ ؟
 أَيَا أُمَّ الْأَسِيرِ لِمَنْ تَرَسَّى . . . وَفُوتَ الذَّوَابُ وَالشَّعُورُ ؟

والأبيات وإن كانت يخيم عليها الأسى ، وتفشاها الكآبة ، إلا أن ما يسدور
 فيها من معان تربيته ببطولة أبي فراس علاقة ، وصلة فداؤه ، لأن
 به " يا أم الأسير " وتكراره لهذا النداء هو في حقيقة الأمر تغن بالبطولة
 لا بكاء ، فإبراده " للأسير " معرفة دلالة على إحساسه بالبطولة التي أرسه على
 الصمود حتى أسر ، وكان في مقدوره أن ينجو لو أن نفسه تقبل الفرار ، وتقره
 ونداءاته المتكررة في هذه الأبيات تغن على مسامح الناس لأنه يعلم أن أمه
 قد ماتت ، ولن تسمعه ، وفوق ذلك فما يفصل بينهما من بعد مكانى كفى
 بأن يجعلها لا تسمعه ، فالأبيات وإن كانت في ظاهرها بكاء ، على تلك
 الراحلة إلا أنها في بواطنها تغن بالبطولة ، والانتصارات ، التي يوعدها
 ما تلا هذه الأبيات من أبيات أخرى :

(١) ديوان أبي فراس - تحقيق الدهان ج ٢ ص ٣١٣ - ٣١٨ .

ولو رد يوما حمزة الخير حزنها . . . إذا ما علثها رنة وعيسل
ثم يأخذ أبو فراس بعد هذه الوصايا ، التي يلقي بها إلى أمة ، الحزينة
الباكية ، يأخذ في التهنين عليها والتخفيف ، من أحزانها بطريق آخر
غير طريق الوصية ، فيشتغل لها ببطلته وشدته على الأعداء يوم لقاءهم
وعزته ، وأنفته وهو في أسرهم ، وثباته الشديد لجهوشهم وصبره العظيم نفس
مواجهة الموت غير هياب ، ولا وجل ، بعد أن عود نفسه على لقائه ، وعدم
الخوف منه ، وإنه ليعلم أن أمه ليسعداها أن تسمع عن ابنها هذه الفاخر
والكأرم فنجأ إلى ذلك التغنى في محاولة للتخفيف - كما قلت - عن
هذه الأم البائسة ، الحزينة :

وما أشرى يوم اللقاء مذمم . . . ولا موقى عند الأسار ذليل
لقيت نجوم الأفق وهن صوارم . . . وخضت سواد الليل وهو خيول
ولم أرح للنفس الكريمة خلة . . . عشيبة لم يحطف علي خليل
ولكن لقيت الموت حتى تركتها . . . وفيها وفي حد الحسام قلسول

ويتبع أبو فراس تغنيهم هذا بأهيات ذاتية أيضا يتجلى فيها إيمانه بالله
كما تجلى في قصيدته السابقة ، وتتجدد من خلال هذه الأهيات ثقته في الله
سبحانه وتعالى ، وهو طريق ثالث من طرق التخفيف عن هذه الأم الباكية

الحزينة ، ومحاولة التهنين من مصابها ، وخطبها الجليل :

ومن لم يوق اللغوه مسرق . . . ومن لم يحز الله فهو ذليل
ومن لم يرده الله في الأمر كله . . . فليس ليخطوني إليه سيميل
وإن هو لم يدلك في كل مملوك . . . ضللت ولو أن السماك ذليل

المكلومة • الباكبة • ولا وصية وقتئذ إلا الصبر والتحمل به :

فما حَسَرْتَنِي مِنْ لَنْ يَخِلَّ مَوَاقِفِي أَقُولُ بِمَجْزَى مَرَّةٍ وَيَقُولُ ؟ !
وَأَنْ وَرَاءَ الْمَتَرَامَا بَكَوْهَا عَلَى وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ طَوِيلُ !
فَمَا أَطَا لَا تَعْدِينَ الصَّبْرَانَةَ إِلَى الْخَيْرِ وَالنَّجْحِ الْقَرِيبِ رَسُولُ
وَمَا أَطَا لَا تَحْطِلِي الْأَجْرَانَةَ عَلَى قَدْرِ الصَّبْرِ الْجَبِيلِ جَزِيلُ
وَمَا أَطَا فَكُلِّ حَلِيمَةٍ تَجَلَّى عَلَى عِلَاتِهَا وَتَنَزَّلُ

وما هذه النداءات المتكررة من الشاعر لأمه إلا صرخات نفسه الجريحة وأتات قلبه المكلوم حين يناشد أمه أن تتحمل بصبر يعجز هو عن التحمل به كثيرا فما بالناس بأم عجوز قد حطمتها السنون ، والخطوب ولكن أبا فراس لا يجد بدا من مناشدة أمه التحمل بالصبر رحمه بها وخوفها عليها ، فما أخذ من ضرب الأمثال لأمه ، لعلها تهدي نفسها ، وتطيب خاطرها ، وتتخذ من الصبر جنة تنبها منهة أحزانها ، ونتيجة آلامها فذكرها " بأسا " بنت أبي بكر (رضى الله عنه) ذات النطاقين و " بصفة " عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ صبرت كل منهما ، واجبة الأجر من الله ، تاركة الأمر له سبحانه ، فليكن لها فيهما الأسوة الحسنة والقُدوة الطيبة ، والمثل الصالح :

أَمَا لِلْيَتَامَى ذَاتِ النِّطَاقِينَ "أُسُوَّةٌ" وَبِمَكَّةَ "وَالْحَرْبِ الْعَوَانِ تَجُولُ ؟ !
أَرَادَ ابْنُهَا أَخَذَ الْأَمَانَ فَلَمْ تَجِبْ وَتَعْلَمُ عَلِمًا أَنَّهُ لَقَيْسُ !
تَأْسَنُ كَفَاكَ اللَّهُ مَا تَحْذَرُنِي فَقَدْ قَالَ هَذَا النَّاسُ قَبْلَكَ قَوْلُ
وَكُنْ كَمَا كَانَتْ بِأَحَدٍ "صِفَةُ" وَلَمْ يَخَفْ مِنْهَا بِالْبَكَاءِ غَلِيلُ

أَقْلَبُ طَرَفِي لَا أَرَى غَيْرَ صَاحِبِي . . . يَهْلُ مَعَ النِّعَمَاءِ حَيْثُ تَهْلُ
وَصِرْنَا نَرَى : أَنَّ الْمَتَارِكَ مُحْسِنٌ . . . وَأَنَّ صَدِيقًا لَا يَضُرُّ خَلِيلُ
وَلَيْسَ زَمَانِي قَادِرٌ بِي وَحْدَهُ . . . وَلَا صَاحِبِي دُونَ الرِّجَالِ مَلُولُ
تَصَفَّحْتُ أَقْوَالَ الرِّجَالِ فَلَمْ يَكُنْ . . . يَا أَلِيَّ غَيْرَ شَاكٍ فِي الزَّمَانِ وَصُولُ
تَكُلُّ خَلِيلِي هَكَذَا غَيْرَ مُنْصِفٍ . . . وَكُلُّ زَمَانٍ بِالْكَرَامِ بِمُحْسِلُ

ويستطرد أبو فراس في تجسيد الغدر ، وخيانة العهود ، والتكرار للذم
فهذا ذكر أن هذه شتم كانت في الناس من قبله ، ويضرب المثل تلوا الشلل
على ذلك ، وما أراه إلا محاولا أن يخفف عن نفسه تلك الآلام ، وهذه
الأحزان :

نَعَمْ وَغَتِ الدُّنْيَا إِلَى الْقَدَرِ دَعْوَةً

أَجَابَ إِلَيْهَا عَلِمٌ وَجْهٌ

وَقَبْلُ كَانَ الْقَدَرُ فِي النَّاسِ شِمَةً . . . وَذَمُّ زَمَانٍ وَاسْتِلَامُ خَلِيلُ

وَفَارَقَ عُسْرُ بْنُ الزُّهَيْرِ شَقِيقَةً . . . وَخَلَّى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَقِيلُ (١)

ولكن أنى لأبي فراس أن يخفف عن نفسه آلامها ، وأحزانها ، فيها هبوطا
سرعا ما يعود إلى أحزانه ، وآلامه ، فأوبى أخرى تعود إليه أحزانه
وآلامه ، حين يتذكر قلة الصادقين المخلصين في أصحابه ، وحين يتذكر
أمه التي طال بكاءها من أجله ، ولسوف يطول ما بقيت على قيد الحياة
وبأخذ أبو فراس — على عادته في وصية هذه الأم البائسة ، الحزينة

(١) كان عسرو بن الزهري معاديا لأخيه عبد الله ، فقد قام ضده ، وعذب أصحابه
وكذلك فارق عقيل بن أبي طالب أخاه " عليها " كرم الله وجهه " في خلافته

والآلام ، وتضويع خطوبه ، ومعاينه التي تكالبت عليه ، من أسر ، وجراح
واشتياق ، وغربة ، وتنازع أصحاب ، وغدر خلان :

مصابين جليل والعزاء جميل . . . وطني يأن الله سوف يديل
جراح ، وأسر ، واشتياق وفريقه

أحمل إني بعدها لحصول !
وإني في هذا الصباح لصالح . . . ولكن خطيبي في الظلام جميل !
وما نال مني الأسر ما تنهانيه . . . ولكن دأب الجراح عليل !
جراح تحامها الأساء مخوفه . . . وسقمان : باد شيئا ودخيل
وأسرأفاسهم وليل نجومه . . . أرى كل شعير غمرهن يسزل
تطول بين الساعات وهي قصيرة . . . وفي كل دهر لا يسرك طبول

بعد هذه الاستفتاحية التي تفيض حزنا ، وألما ، حين يجسد أبو فراس
الأمه ، وجراح جسده ، وجراح نفسه ، وأسر ، وغربته ، واشتياقه لأهل
النائم - أقول بعد هذه الاستفتاحية - يأخذ أبو فراس في ذكر ما كان
من أصحابه الذين تناسوه ، وما بقوا على عهدهم ، فيذكر ذلك في أبيات
تفيض لوعة ، وأس ، أكثر من سابقاتها ، ويظهر أبو فراس من خلالها
وقد اكتنفه حزن عميق لأصحاب ماله مع النعماء حيث مالت ، متكرهين
له حين تباه به دهره ، وكبا به جده ، وتسلل نفس الشاعر حسرات إثر
وفاء ظهرها ، وخداغ . بانت حقيقته ودعواه :

تناساني الأصحاب إلا عصية . . . ستلحق بالآخرى غدا وتحول !

ومن ذا الذي يقف على العهد ؟ إنهم
وإن كثرت دعواهم ، لقليل !

لَوْلَا الْعَجُوزُ "بَنْبَجٌ"	••	مَا خَفَتْ أَشْيَابَ النَّبِيِّ
وَلَكِنْ لِي عَمَّا سَأَلْتُهُ	••	لَتَمِنَ الْقَدَا نَفْسُ أَبِي سَعْدٍ
لَكِنْ أَرَدْتُ مَرَادَهَا	••	وَلَوْ أَنْجَذْتُ إِلَى الدُّنْيَا
وَأَرَى مُحَامَاتِي عَلَيْهِ	••	بِهَا أَنْ تَقَامَ مِنَ الْحَبِيبِ
أَسْتُ "بَنْبَجٌ" حَرَّةٌ	••	بِالْحُزْنِ مِنْ بَعْدِي حَرَّةٌ
لَوْ كَانَ يَدْفَعُ حَادِثٌ	••	أَوْ طَارِقٌ يَجْعَلُ نَيْسًا
لَمْ تَطْرُقْ نَوْبَ الْحَسَا	••	بِأَرْضِ هَاتِيكَ التَّقِيَّةِ
لَكِنْ قَضَاءُ اللَّهِ وَالْبَـ	••	أَحْكَامُ تَنْفُذِ فِي الْهَيْسَةِ
وَالصَّبْرُ يَأْتِي كُلَّ ذِي	••	رِزْقٍ عَلَى قَدَرِ الرِّزْقِ
لَا زَالَ يَطْرُقُ "مَنْجَجًا"	••	فِي كُلِّ قَادِيَةٍ تَحْصِيَّةِ
فِيهَا التَّقَى وَالِدَيْنِ مَجَّتْ	••	مُحَوَّنٍ فِي نَفْسِ زَكِيَّةِ

ثم يختتم أبو فراس قصيدته بوصف تلك الأم التي تغنى في الأبيات السابقة بجمال صفاتها ، وعظيم سجاياها ، من نقا ، وثقى ، وجمال نية ، وأخذ أبو فراس بعد ذلك في وصيته لأنه بأن تتجمل بالصبر في مواجهة خطيئها ، فالصبر خير عدة عند الخطوب :

يَا أَتَا لَا تَحْزَنْ نَيْسَ	••	وَتَقَى يَغْضِلُ اللَّهَ نَيْسَ
يَا أَيْمًا لَا تَهَامِسْ	••	لِلَّهِ الْطَائِفَ خَفِيَّةِ
كَمْ حَادِثٌ عَنَّا جَلَا	••	وَكَمْ كَفَانًا مِنْ بَلِيَّةِ
أَوْصِيكَ بِالصَّبْرِ الْجَمِيَّةِ	••	بَلِّغْ فَإِنَّ خَيْرَ الْوَصِيَّةِ (١)

وتثقل العلة بأبي فراس وهو في أسره ، وتزداد الآم بجراحه ، فيكتب إلى أمه يعرضها أيضا بقصيدة "لامية" يستهلها ، بالهكا ، وتجسد الأحرار

(١) أبو فراس الحمداني - تحقيق د. إبراهيم السامرائي - ١٨٢ و ١٨٣ .

أتمرت أنت على رؤسهم منسبان
فرض على لكل دار وقفتهم
لولا تذكر من هويت يحاجس
ولقد أراء قبيل طارقة النكوى
وتكان كل مهتو وجتر كنى
نغر الزمان عليه بعد أيتهم
فأقيم للمبررات فوق هسبان
تقيس حقوق الدار والأجفان
لم أهلك فيه موافد الثبران
ماوى الجسان ومنزل الفيسان
ل منقبي وسجال كل حيسان
حلل القنا وكل شعير كان

ثم يهجم أبو فراس عن يميني * ولعن يتشوق * إنه يئس من بالشام من أحياء * إنه يئس آلته *
وذويه * وقد نأت به الدار عنهم * وجد به المقام * وصلت بيته * وبينهم قتل الدروب وشاططا
حيحان :

يا واثقان منى على الدار اطلبها
منع الوقوف على الشايل طبارق
فله إذا وثت الدامع أو همت
انا ليجمعا البكاء وكلف
ولقد جعلت الحب يترعدا ميسى
غيري لها إن كنتما تنقسان
أمر الدوم يخطي وثنا ميسى
صيان دتيمى فيه أو صيان ميسى
يئس على شجن من الأشجان
ولغيره عنائ تنهمر لكان

ولا يترك أبو فراس نفسه فريسة للأحزان * ونها للآلام * وأنا يتخلص من هذه الآلام * وذلك
الأحزان يتذكر آمجاد * وأيام مودده * فياخذ في التفتي ببطولته وما حطم من سببه
وما قاد من جهاد * وما ملأ به الدنيا كرا وجودا :

مالي جيزت من الدروب وإن شيا
ولقد سررت كما غنت عسايرى
وأجرت في مجرى عيول قارصا
يرى بنا خطر البلاد ميسى
بلد لعنك لئسك أول زواره
إنا لنلق الخطيب فكله وفي كثره
ولطالما حطمت صد رمتك
أخذ المبهج بعشما أعطاني
زنا وهنائى الذى عنائ ميسى (١)
وحسنت بها أعلت نيران ميسى
صدق الكهنة قائما للإحسان
مع سيد قن أغر حجسان
يخفي عدا الخطوب ميسان
ولطالما أرهت أنف ميسان

(١) صرى : * وهنائى الذى عزانى *

ولطالما قدت الجياد إلى الوُفَى
وأنا الذي ملأ البسيطة كلَّها
إن لم تكن طالت بيتي فإن ليس
فمن بما ساء الأعداء موقريسي

قَبَّ البَطُون طَوَّلَةَ الأَرْسَانِ
نَارِي وَطَلَّبَ فِي السَّمَاءِ وَخَانِيْسِي
رَأَى الكَهْلُ وَنَجَّدَ الشَّكَّانِ
وَاللَّهْ هَزَّ عِزِّي لِي مَعَ الْأَقْسَرَانِ

ثم يتذكر أبو فراس حاله وما آل إليه مصيره ، فيلقى يهيبين ملؤها الحسرة والألم :
يَحْنِي الزَّمَانُ وَمَا ظَفِرْتُ بِصَاحِبِ
يَدِ يَدِ هُرُخَنْتَ مَعَ الْأَعْدَاءِ خَلَّتِيْسِي
إِلَّا ظَفِرْتُ بِصَاحِبِ خُصَّانِ
وَوَرَّتْ بَيْنَ فِى جَنَّةِ الْإِخْصَانِ (١)

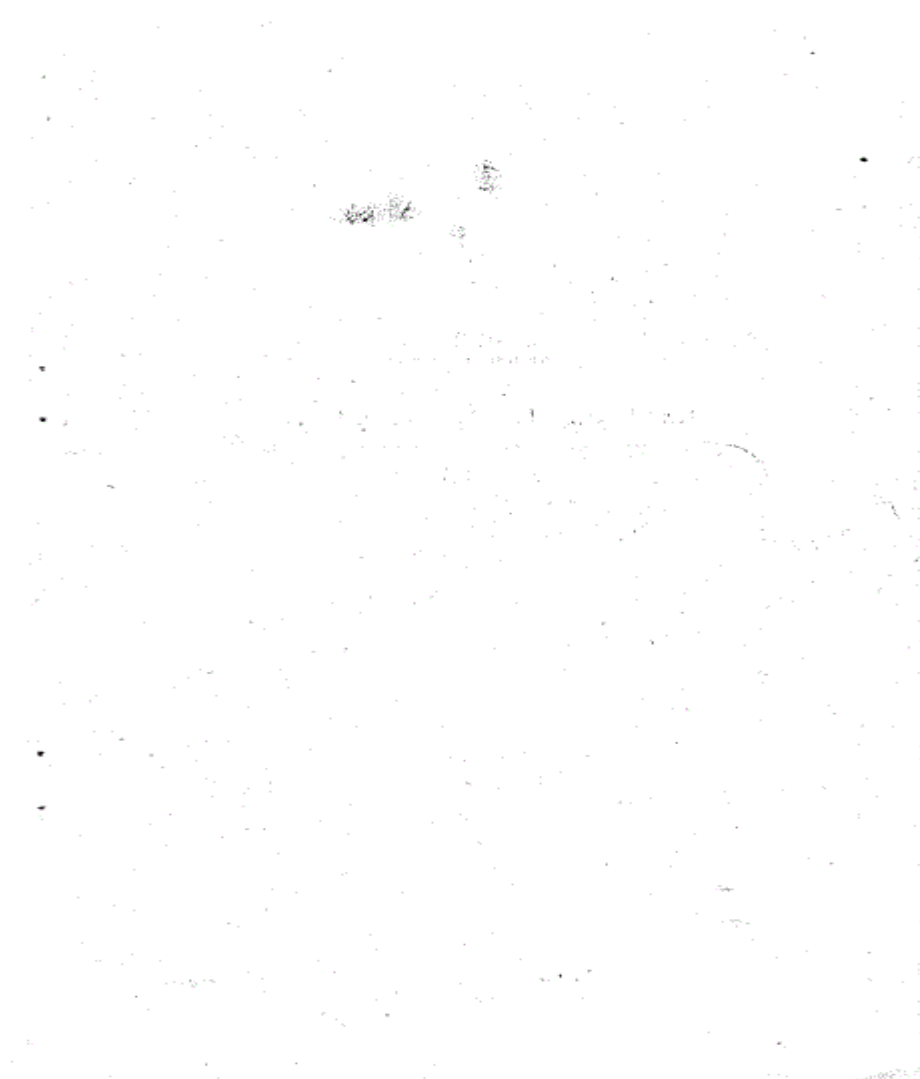
وهكذا تحفل القصيدة بالتنقيص بالبطولة ، والانتصارات ، ومعاني العزة ، والإباء ، والحسرة
على الشرف التليد ، والسوداء ، والسيادة ، وهكذا كان شأن أبي فراس في كل أشعاره .
وهكذا كانت كل كتابات أبي فراس إلى ابن عمه سيف الدولة ، فكل رسائله إليه كانت أشعارا
حافلة بهذه المعاني التي يتغنّى الشاعر من خلالها بما جاز من مجد ، وما وهب من بطولة
وشجاعة ، وما نال من روعة وعزة ، وطو شأن حتى وهو بين أظهر الروم .
كما كانت أشعاره - إلى جانب تغنيته بنفسه - تغنيها بأمجاد قومه ، وما خرهم ، وطولانهم ،
وانتصاراتهم . وثملا كاتب أبو فراس من أسر ابن عمه سيف الدولة ، فقد كاتب كذلك أمه . تلك
المجوز التي تركها " ينجح " تقاسي امرأة فراقه . كاتبها يحزنها ، صنادعها الصبر ، والثقة
بفعل اللطيف ، صرخ أبو فراس وصاها ، لأنه في شعره ^{بغير} كرس ، وحسرة ، على الرغم من أنه
دعوة إلى التجمل بالصبر ، والتسك بالإيمان ، فقد كان ذلك الصبر مصدر عن نفس المهمل
جرح هزتها ، وأسرها على يد الروم أهداء العرب ، والإسلام على الرغم من هذا الجرح
وذلك الألم إلا أنه يوصي أمه بالثقة الكاملة في رحمة الله سبحانه وتعالى .

من أشعار أبي فراس الذاتية التي كاتب بها أمه من أسره قصيدته " الهاتية " التي
يتغنّى فيها بصبره ، وجلده ، ولتص لنفسه فيها المذر ، حين طلب الفداء ، فما طلب ذلك
ولا التمس ، إلا رحمة بأم عجوز ، أسقمها أسره ، وقت في عذرها بماء ، وتتوعد في هذه
القصيدة نغمات إهانة جميلة ، يجسد أبو فراس من خلالها إهانة العدو يد بالله ، ورساء
بقتائه سبحانه وتذره ، وثقته الكاملة برحمة الله بعباده ، حين يلهم ذوي الناصب منهم
الصبر الجميل . يقول أبو فراس مستهلا هذه القصيدة :

(١) ديوان أبي فراس الحمداني - تحقيق السامرائي ص ١٧٤ ، ١٧٥ .

الفصل الثالث

الشرك الوطني ، والإحسان ببطولة الانتفا



الفصل الثالث

الشريف الرضی ، والإحسان ببطولة الانتفا

هو أبو الحسن محمد بن الطاهر ذي المناقب أبي أحمد الحسين بن موسى بن محمد ، بن موسى ، بن إبراهيم ، بن موسى الكاظم ، بن جعفر الصادق بن محمد الباقر ، بن علي زين العابدين ، بن الحسين بن علي ، بن أبي طالب ، رضی الله عنهم ، المعروف بالموسوي (١) .

ولم يذكر لنا من أرواحا للشريف نسب أمه إلا أننا نقع في ثنايا شعوره على بعض إشارات يشتم منها أن أمه لا ينتهي بها نسبها إلى آل البيت كما هو الحال عند أبيه . فالشريف يقول عن هذه الأم ، وهو يحدد رثائهم :

شَهِدَ الْخَلَائِقُ أَنَّهَا لِنَجِيَّةٍ يَدْلُهُلُ مِنْ وَلَدَاتِ مِنَ النَّجِيَّةِ (٢)

فهو في هذا البيت يصرح بأن أمه قد حازت النجاة بمن ولدت من رجال أماجد ، نجيا ينتهي بهم نسبهم إلى آل البيت . ولو كانت

(١) وقفيات الأعيان - لابن خلكان - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - مكتبة النهضة المصرية ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م ج ٤ ص ٤٤ .
(٢) ديوان الشريف الرضی . دار بيروت للطباعة والنشر - بيروت - ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م المجلد الأول ص ٢٨ .

تلك الأم نجية أصلاً لما أُنسبها أبناؤها تلك النجاية ولما احتاجت إلى شهادة من أحد ثبت لها ذلك ، فالمعهود أن الأبوين هما اللذان يكسبان أبناً هما شرف نسبهما ، وليس العكس صحيحاً ، ومن المعهود أيضاً أن شرف النسب ليس في حاجة إلى من يشهد له يشرف نسبه .

ونقع في شعر الشريف على إشارة أخرى لعلها تزيد مذهبنا إليه وهي فخره بالانتساب إلى علي (كرم الله وجهه) أبا ، وإلى فاطمة الزهراء (رض الله عنها) أما وذلك في قوله :
أين الوص ، وأمت خير والسدة بنت الرسول الذي ما بعده رسول^(١)

وأما فخره بأنه أنها ابنة لآبائهم ، فخره كرماً ، ناصرين للحق ودعاة للهدى والصلاح ، وكاشفين للقم ، وذلك في قوله :

آباؤك الغر الذين فجّرت بهم بنابيع من النعمان
من ناصر للحق أو داع للسُّبُل الهدى أو كاشف الغم
نزلوا بمنزلة السّام من العلى وعلموا على الأتباع والأطهار
من كل سبيل الدين إلى الهدى وسدد الأقوال والآراء
يرجى على النظر الجديد تكرباً ويخاف في الإطراق والأغصان
دجوا على أهر القرون وخلفوا طرقاً معبدة من العلم^(٢)

(١) ديوان الشريف الرضي - المجلد الثاني ص ١٨١ .

(٢) ديوان الشريف الرضي - المجلد الأول ص ٢٨ .

فلا يحمل ذلك الفخر على أن تلك الأم كانت شريفة النسب — من آل البيت — بل هي معان وصفات عامة يتوقع من أي بار أن يضيفها على نفسه . ومن الجائز أن ينتهي نسب هذه الأم إلى آباء متشبهين إذ أن هذه الصفات التي رُكِّرت عليها الشرف الوض في فخوره بأمة — قد أكثر الشيعة من استخدامها وإضافتها على أنفسهم خاصة سواتهم .

والواقع أن كون أم الشريف لا تنتسب إلى آل البيت — لا ينقص من قدر ابنها — ولا يقلل من إحسانه بالانتساب . فانتسابها نسبته من جهة أبيه — إلى " علي " (كرم الله وجهه) جعله يستثمر ببطولة أبيه في نفسه — فمماش حياته يتفنن بهذه البطولة — بطولة النسب الشريف — والحسب النبوي — وكان ذلك يقتضيه التنفي ببطولته الحربية وقدرته على القتال — واستخدام السيف في الدِّب عن أحقية الطالبيهة ضد من غصبهم الخلافة — في رأيه — ورأى كل شيء حتى اليوم . إذن فبطولة الشريف تكمن في إحسانه ببطولة الانتساب — فهو يستثمر أن نسبه كقول بأن يرفعه فوق العالمين — وأن يجعله في صفاء الخلق — بها هو ذا يخاطب الخليفة القادر بالله بقوله :

عَلَّمْنَا أُمُورَ الْمُؤْمِنِينَ فَأَنْتَ بِنَا فِي دَوْحَةِ الْعُلَمَاءِ لَا تَنْفَرُ
مَا بَيْنَنَا بَيْنَ الْفَخَّارِ تَقَارُوتُ أَهْدَأُ وَلَا تَأْ فِي الْعَالِ مَحَرُ
إِلَّا الْخِلَافَةَ مِنْزَلَهُ فَإِنَّكَ بِنَا أَنَا عَاطِلٌ مِنْهَا وَأَنْتَ مَطْشَرُ (١)

(١) المصدر السابق — المجلد الثاني ص ٤٢ .

فهو يتساوى مع الخليفة في عراة الأصل ، ولكن الخليفة يستعير
حلية زائلة هي الخلافة .

هكذا كان الشريف الرض ينظر إلى نفسه ، نظوة دفعه إليها
نسبه الشريف ، الذي ظل يتغنى بإحساس بطولة الانتما إليه ، مجتندا
من خلال ذلك الإحساس ، نبيل شرفه ، وعلو منزلته ورفعة مكانته .

يقول صاحب اليتيمة عن الشريف الرض : " وهو اليوم أبدع أبناء
الزمان ، وأنجب سادة العراق ، يتحلّى مع محتده الشريف ، وفخوره
المنيف ، بأدب ظاهر ، وفنيل باهر ، وحظ من جميع المصائب وانصر
ثم أشعر الطالبين من بني منهم ، ومن غير ، على كثرة شعرائهم
الفلقين ، كالجاني ، وابن طباطبا ، وابن الناصر ، وغيرهم ، ولو
قلت إنه أشعر قريش لم أبعد عن الصدق " (١) .

وشعر الشريف الرض يزخر بالتغنى بالإحساس ببطولة الانتساب
إلى النصب الشريف ، ويزخر كذلك بالتغنى بعبء هذا الإحساس
وباستعداد النفس لتقبله ، وبما ملكه من أسباب ذلك . فتغنى
بالشجاعة ، وقوة النفس ، وعدة اليأس ، والهمة ، والكبر
والإقدام ، والصبر والتجلد ، والإصرار على بلوغ المجد . كما تغنى
إلى جانب ذلك ، بصفته ، ووقاره ، وصون عرضه ، وعش نفسه ،
وهي كلها عوامل الاستعداد النفس عند الشريف الرض ، وعمدة

(١) يتيمة الدهر للثعالبي ج ٣ ص ١٥٥ .

الإحساس ببطولة الانتفا* إلى النسب الشريف مثلاً في آل البيت (رضي
الله عنهم) .

تفتى الشريف الرض بشجاعة يومتها واحدة من عدد الإحساس
ببطولة الانتفا* ، يقول مجسداً هذه الشجاعة ، والقدرة على القتال :

وَيَوْمَ وَغَسَّ عَلَى الْأَعْدَاءِ هَوْلٌ	تَازَرَبَهُ السَّرَاعُ مِنَ الْبَطَالِ
رَمَتْ فِرْوَجَهُ حَقَّقَتْ تَقَرَّرِي	بِأَيْدِي الْجُرْدِ وَالْأَسَلِ الظَّمَا
فَمِنْ غَلَبَ كَانَهُمْ أَسْوَدٌ	عَلَى قَبَّ ضَوَائِرَ كَالظَّبَّاءِ
وَمِنْ يَغِيثُ كَأَنَّ مَجْدَهُ بِهِمَا	يَمْرُونَ الْأَكْفَ عَلَى الْأَحْيَاءِ
نَوَاحِلَ لَمْ يَدْعُ ضَرْبَ الْهَوَادِي	بِهَا أَبَدًا مَكَانًا لِلْجَلَاءِ
وَمِنْ هَاؤُ تَرْجِيحُ فِي الْعَوَالِي	وَعَارِ قَدْ أَقَامَ عَلَى الْمَرَا
وَأَخْرَمَ مَالَ كَالنَّشْوَانِ مَا لَبَسَتْ	بِهَامِي شَابِيِبِ الطَّنْجَلَاءِ
وَعُدَّتْ وَقَدْ خَبَّاتِ الْحَرْبُ عَنْهُ	إِلَى سِلْمِ الرِّقَائِبِ وَالْمَطَّاءِ
فَيَوْمَ لِلْمَكَايِمِ وَالْمَطَّاءِ	وَيَوْمَ لِلْحَمِيَّةِ وَالْإِبْطَاءِ

وهكذا تجسد الأبيات شجاعة الشريف الرض ، وثباته عند اللقاء
وقباده/ كَانَهُمْ الْأَسْوَدُ جَمَارَةً ، وبسالته ، كما تجسد الأبيات إلى
جانب - هذه الشجاعة القتالية - وجهاً آخر من وجوه الشجاعة
وهو الصفع ، والعفو ، الذي يتبعه الكرم والعطاء ، فشجاعته
ليست شجاعة الفاسمين بل شجاعة رجل يأوي إلى أصل كرم ، ويستند
إلى نسب عريق .

و يواصل الشريف الرضي تغنيه بشجاعته ، و قدرته على القتال
وصبره في مواجهته ، و يقول مخاطبا بها الدولة :

كفاه نواب الأسياس كاني	طهر العزم مَحْبُودُ الخاس
أمن الذهب لا يوكس حشاه	لأمنه على الداء المعناس
أقام منازل الأبطال حاسي	تفلل كل مشهور الفناس
أزاه الحرب يفتنق العوالس	ويفتنق التجميع من الدماس
إذا ما قيل مل رأيت ينسه	نوار تشرتب إلى اللقاس

و يتوالى تغنى الشريف الرضي بشجاعته ، و تأكيده هذه الشجاعة
المقترنة بسداد الرأي ، و الحكمة فهو اصل تغنيه مكملا خطابه لبها الدولة :

فجيتي تجدني سيف عزم	بصم غريمه ، و زناد را
وأشهر شارباً في كل نحاس	شروع القل في ينبوع ماس
إذا علفت يدك به جفاظا	ملأت يدك من كنز الغناس
يعاطيك الصواب بلا نفاق	و يحضك السداد بلا رياس
جرك يوم تبعته لحنارب	و قود يوم تبعته لـ (١) راس

والشريف الرضي - يشغله - كما قلت - التفتن بشجاعته
و قوته ، و جراته على الأعداء فكل هذه من عدد الإحساس بهطولة

(١) ديوان الشريف الرضي - المجلد الأول من ص ١٤ - ١٢ .

الانتها إلى النصب الشريف ، فالنصب الخامل لا يعد إذا عد الرجال ،
وإنما النصب في حاجة إلى رصيد من الكارم الشخصية تنس عتده
إحساسه بالانتها إلى ذلك النصب ، وتقويه . لذا فالشريف الرضى
حريص على التفتن بهذا الرصيد من الكارم التي هن من عوامل الاستعداد
النفسى ، ومن أسباب الإحساس ببطولة الانتها ، والشجاعة أولى هذه
العوامل ، وأهمها ، لذا زخر شعر الشريف الرضى تفتنا بهـ
وتجسيدا لها :

لغام المطايا من ضايك أعذب	ونبت القياض نبتك أشهى وأطيب
ومال عند البغي باقلب حاجة	وعند القنا والخيل واللبل مطلب
أحب خليل الصفيين صبار	وأطيب دأرى الخبايا المطنكب
ذلّل لرب الدهر من كان حاضرا	وحرب لدى الأيام من يتفكر
ولن من ظهور القد قيمات مقة	وفوق مئون اللاحقيات مرسكب
لتاس عيار الخيل في كل غسارة	وتروى العوالي والحديد المذرب
أساكت بعض الناس والقول نافع	وأغند عن أشياء والضرب أنجسب
وأطمعن في العزائس مغامر	جوى على الأعداء والقلب قلسب
وعندى ما حول الله ساريسح	وأشمر عسال وأبيض مفسب (١)

وهي أبيات تفيض من خلالها مشاعر الشريف الرضى ، وإحساساته
ببطولته الحربية ، تلك البطولة التي يرى الشريف أنها من عدد الإحساس

(١) ديوان الشريف الرضى - المجلد الأول ص ٧٩ .

ببطولة الانتفا إلى النسب الشريف .

وتتكرر هذه المعاني ذاتها كثيرا في تغني الشريف الرضي بشجاعته
وقدرته على القتال وعشقه له ، مادام كان ذلك في سبيل شرفه ، ومجده :

مَشَايَ إِذَا صَهَوْتُ أَوْ غَارِبَ وَمَنَآيَ إِذَا زَاغَتْ أَوْ تَغَارِبَ
فِي كُلِّ يَوْمٍ تَنْتَضِي عَزْمَةً وَتَمُدُّ أَعْنَاقَ الرَّجَا مَآرِبَ
قَلْبٌ يَصَادِقُنِي الطَّلَابَ جِرَاءَةً وَبَيْنَ الْقُلُوبِ صَادِقٌ وَمُكَوَّارِبُ
مَا مَدَّ هَيْبَ إِلَّا التَّحَمُّ بِالْقَنَاءِ بَيْنَ الصُّلُوعِ وَاللَّزْجَالِ مَذَاهِبُ
وَعَلَى فِي هَذَا الْعَقَالِ خَافِضَةً إِنْ لَمْ يَسَاعِدْنِي الْقَضَاءُ الْغَالِبُ
مَالِي أَخَوْفَ بِالرَّدَى فَأَخَافُكُمْ هَيْبَاتُ لِي فِي الْخَلْقِ بَعْدَ عَجَائِبُ
وَالْعَزْمُ يَطْرَحُنِي بِكُلِّ مَفَازَةٍ مُتَشَابِهٌ فِيهَا زَيْنٌ وَغُكَّارِبُ
أَعْطَى الْهَجِيرَ مَرَادَهُ بَيْنَ صَفْحَتِي وَتَكْدُ سَمْعِي بِالصَّيْرِ جَنَادِبُ
إِذَا أُنِمْ صَدْرٌ مَجْدِي بِالْقَنَاءِ وَيَقْرَعُنِي أَوْ تَقُومُ مَنَادِبُ

وبكل الشريف الرضي تغنيه بنفسه ، وما وهب من قدرة على القتال
وصبر على الخطوب ومواجهة للموت في ميادين القتال ، والنفال :

وَعَلَى تَضَمُّرِ الْجِيَادِ لِفَسَادَةٍ فِيهَا خَضِيبٌ بِالْذَّمِّ وَخَافِيبُ
أَيْضًا ، وَذُفْيَانِ الْخُطُوبِ تَوَغُّبِي وَالْعَزْمُ مَا غِيرَ وَالرَّهَاجُ سَوَالِيبُ
أَنَا أَكَلَةُ الْمَغْتَابِ إِنْ لَمْ أَجْنِبْهَا عَمُوا بِخَضْرَاهَا الْعُقَابُ الْغَائِيبُ
وَكُنَّا فِيهَا الرِّهَاجَ أَرَاتِيكُمْ وَكُنَّا فِيهَا الْقَيْسَ عَقَّارِبُ

قد عز من ضنت يدها بوجهه - إن الدليل من الرجال الطالِب^(١)

وهكذا يختتم الشريف الرضّ تغنيه ببطولته الحربية بهذه الحكمة التي هي في الوقت نفسه تغني بعمزة النفس التي لازمة من لوازم الشجاعة والبطولة . والشريف الرضّ عاش عزيز النفس ، عفيفا - وقد حملته التجل والتعفف - على حد تعبير زكي مبارك - " على هجر أبواب الملوك ، والوزراء ، فلم يمدح إلا عن حب ، أو مدارة ، ولم يره أحد يزاحم الشعراء ، والأدباء على أبواب السلاطين " (٢) .

وترتبط الشجاعة بعمزة النفس كثيرا في تغني الشريف الرضّ ، ونفس تجسده لكل عدة من عدد إلهام ببطولة الانقاء عنده :

بناني والمنان إذا نبت يس	يس أي ورجلس والركاب
وسايفة لأن السر فيهما	زال الماء لئمة الحباب
من اللقي يسط الميب عنها	إذا نبت لدى الروع العباب
إذا أدوت تجنبت الموضيس	مجا حبا وقبعت الكماب
ومشرفة الفذال تشرقوا	كما عسلت على القاع الذباب
مجلية تقي بها يدها	كما جلس لغايته المع ^(٣) اب

(١) ديوان الشريف الرضّ - المجلد الأول ص ٨٤ .

(٢) عمقوة الشريف الرضّ - زكي مبارك ، مطبعة حجازي بالقاهرة ١٣٧١ هـ / ١٩٥٢ م - الطبعة الرابعة ج ١ ص ٤٢ .

(٣) ديوان الشريف الرضّ - المجلد الأول ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

و يتكرر هذا المعنى كثيرا في شعر الشريف الرضي إذ يربط - كما
قلت بين الشجاعة ، والبطولة الحربية ، وبين عزة النفس بوصفهم
عدتين من عدد الاستعداد النفس للإحساس ببطولة الانتماء . يقول
مخاطبا أباها :

وَأَنَا الضَّارِبُ عَنْ عَلَاكَ يَقُولُ	مَاضٍ الدَّرَارُ وَلَا الْجَزَارُ الصَّقَلُ
يُدْخِلُ الْجَوَارِحَ وَهُوَ سَاكِنٌ غَمِيدٍ	وَلَقَلَّمَا يَنْقُصُ يَنْقُصُ يَنْصَلُ
هَيْهَاتَ بِلْحَقٍ بِالصِّمِيمِ كَدَّرَ	أَيْدَا وَيُزَيُّ بِالْبَحَارِ الْجَدُولُ
مَاضٍ كِدَّرَ الذَّبَابُ كَصَّارِمِ	خَلَعَ الْجَلَاءُ عَلَى غِيَاءِ الصِّقَلِ
وَسَائِنَا الظُّلُمَا يَكْتُمُ شَخْصَهَا	أَنَّ أَضَا الْعَارِضِ الذَّهْلُ
لَيْسَ التَّغَرُّدُ بِالْعَلَا طِبَاعَةَ	إِنَّ الْعُلَى دَرَجٌ لَيْمَنُ يَتَوَقَّلُ
نُظْمٌ وَتُثَرِّقُ طُمَحَتِ الْهَيْهَاتَا	صَعْدَا وَيَعْنُو لِأَخِيرِ الْأَوَّلِ
وَحَدِيثُ فَضْلٍ ضَارِبٍ بِمَرْوَتِهِ	فِي الْأَرْضِ يُنْقَلُ الْمِطْلُ الْبَسْرُ
لَوْلَاكَ مَا سَمَحْتُ بِقَوْلِ هَيْهَاتِي	قَدَرِي أَجَلٌ مِنَ الْقِيَمِ وَأَفْضَلُ ^(١)

والأبيات وإن كانت تنفرد بالقصاحة ، والبلاغة ، وحسن التأني
إلا أن الشريف الرضي قد تفنن ببيانته ، وبلاغته ، وفصاحته على
أنها سيوف تدب الجوارح وهي مفردة ، فهي لا تعدو أن تكون
كلمات ولكن لها فعل السيوف في ميادين القتال ، وهذا ملح من ملامح
شخصية الشريف الذي لا يرى نفسه إلا مقاتلا حتى لو كان في ميادين

(١) المصدر السابق - المجلد الثاني من ١٥٨ ، ١٥٩ .

الكلام ، ثم يربط الشريف - على عادته - بين الشجاعة ، والهمة
وجلال القدر في ختام هذه الأبيات ، فهو يرى أنه أكبر ، وأجل
من أن يكون مادحا لأحد ، ولولا أن المدح أبوه لما سمحت همة
بمدحه ، وبذكرنا الشريف الرضّ في هذا الموقف بأبي فواس الحمداني
الذي تغنى من خلال شعره بأنه لم يكن مادحا ، ولا هاجيا ، كما
يذكرنا بأبي الطيب المتنبي الذي ترفع عن مدح كثير من الوزراء خوفا
من أن يحط مدحه لهم من قدره ، أو يخسر من بطولته . ومثلا تغنى
الشريف الرضّ بشجاعته ، وقدرته على القتال ، وصبره في مواجهة الموت
فقد تغنى كذلك بقوة نفسه على أنها هي الأخرى عدة من عدد الإحساس
ببطولة الانتفا :

يَطُولُ عَسَا الْعَيْسِ مَا دُمْتَ قَوْقَهَا وَمَا دَامَ لَيْسَ عَزَمَ وَرَأَى وَمَذْهَبُ
وَهَوْنٍ عِنْدِي مَا يَغْلِي مِنَ الصَّدَى ظَنًّا تَجَانِي مَوْرِدَ الْمَاءِ لُغَيْبُ
فَمَا أَنَا بِالْوَانِي إِذَا كُنْتُ صَادِيكَا وَلَا الْمَاءُ يَغْطِيَنِي قَوَى يَوْمَ الْهَرَبِ
وَمَا الْوَرْدُ بَعْدَ الْوَرْدِ بَلَّا لِفُلْسِي وَإِنْ بَلَّ ظَنًّا الدَّاعِيَاتِ مَشْرَبُ (١)

وهكذا ، ومن خلال هذه الأبيات يجسد الشريف الرضّ قوة نفسه
وشدة عزيمته ، وصبره وجلاده في مواجهة الحياة ، وهذه كلها من
عدد الاستعداد النفس ، والإحساس ببطولة الانتفا التي تحققت
لشريف الرضّ بما ورثه عن أهله ، وبما أضاف إليه من صيد شخصي

(١) ديوان الشريف الرضّ - المجلد الأول ص ٨١

ومقومات للكلام والمحامد التي يمتلكها هو نفسه .

ويشتق الشريف الرضي بهذه المعاني ذاتها مجداً إياها حين يتحدث عن أمر نقابة الأشراف ، ويتذكر ما كان من قوته حين تولاهما :

وَلَكِنَّ الْحِمَّةَ نَسَّ تَابَسَ	قَوَارِي لِلرَّجَالِ عَلَى الشَّكَاوِسِ
وَأَنْظَرُ سَعَةً وَعَظِيمَ عَسَارِ	رَضَى مِنَ الْمَنَازِعِ بِالْكَفَايِ
وَلَوْ أَنَّ رَيْتَ أَمَامَ سَهْمِي	وَلَكِنِّي أَنْقَبْتُ عَنْ شَفَائِي
فَمَا سَهْمِي السَّيِّدُ مِنَ النَّوَابِي	وَلَا بَاعِي الطُّوِيلِ مِنَ الضَّعَائِي
وَلِي أَنْفُ كَأَنْفِ اللَّيْلِ بِأَهْسِ	شَيْمِي لِلْمَذَلَّةِ وَاشْتِهَائِي
وَقَدْ عَرَفَ الْعَدَى وَبَلَّوْا قَدِيمَا	مُحْطَايَ إِلَى الْمَنَابِ وَأَزْدِ لَاتِي
لِي الْعَزْمُ الَّذِي قَدْ جَرَسُوهُ	يَقْدُ مَضَارِبَ الْبَيْضِ الْخَفَائِي
وَوُضِعَ الْجَاشُ وَالْأَقْسَامُ زَلَّ	يُزَلُّ لَهَا الرَّدَى يَوْمَ الْيَقَائِي (١)

فالحمة ، والهبة ، وطول الباع ، والأنفة ، والعزم ، ووسط الجأش كلها من مقومات قوة النفس وأسبابها ، وقوة النفس واحدة من عدد الاحساس بطولية الانتقام عند الشريف الرضي . وذلك وإلحاح جانب التنشيط بالمشجاعة والقوة والقدرة على القتال ، وقوة النفس فقد تغنى الشريف الرضي بعدة البأس والحلم بوصفها أيضاً عدس من عدد استمداده النفس للإحساس بالطولية الذاتية عند ، بطولية

(١) المصدر السابق - المجلد الثاني ص ١٥ و ١٦ .

الانتساب إلى النسب الشريف :

قَدْ قُلْتُ لِلْعَادِي عَلَى يَوْمَيْهِ
فَحَذَّرَ إِنْ طَرَفَ عَلَيْكَ صَوَاعِقُ
أَوْفَى الصَّبَاحِ فَشَقَّ كُلَّ دُجْنَةٍ
أَنَا مَنْ عَلِمْتُ عَلَى الْمَكَاشِجِ مَرْهَفُ
وَأُبَيَّتُ أَنْ أَعْطَى الْأَعَادِي مَقْوَدِي
مَنْ بَعْدَ مَا أَوْضَعْتُ فِي طَرَفِ الْعِلَا
وَسَحَبْتُ مِنْ خِلْعِ الْخَلَائِفِ طَارِفَا
وَوَلَيْتُ فِي السَّنِ الْقَرِيبَةِ أَسْرَتِي
بِحَبَابَةٍ عَمَتْ بِغَيْرِ تَكْشِيرٍ
حَلَمَ كَحَاشِيَةِ الرَّدَا' وَدُونِكُ
فَلَيْتُنْ عَلَوْتُهُمْ فَلَيْسَ يَنْكَسِرُ

مَهْلًا نَمَا يَلْحُو الْقِتَادَةَ لَأَحْسَى
وَحَذَّرَ إِنْ هَبَتْ عَلَيْكَ رِيَّاحِي
وَعَلَا الزَّيْفُ فَتَغَرَّ كُلُّ نَبَاحِ
نَابِ وَشَاكِهِ فِي الْخِصَامِ سِلَاحِي
أَوْ أَنْ تَدْرَعَ عَلَى الْهَوَانِ لِقَاحِي
وَأَضْرَ بِالْأَعْدَاءِ طَوْلَ كَفَاحِي
لَحَظَاتِ كُلِّ مَعَانِدٍ طَوَّاحِ
فَوَكَاتَ فَايِدَهُمْ إِلَى إِسْلَاحِي
وَصَوَامَةٍ أَدْمَتْ بِغَيْرِ جَبَرٍ
يَأْسَ يَدُ عَوَائِلِ الْأَنْبَاحِ
أَمَا عَلَتْ غِرْدُ عَلَى أَوْضَ (1)

وهكذا يرتبط الحلم بغدة الرأس عند الشريف الرضّ ، كما ارتبطت
عنده الشجاعة بالعقو والصفح والكرم . فالْيَأْسَ والحلم من عَسَسَدِ
استعداد الشريف الرضّ النفس للإحساس ببطولته الذاتية ، وسهلاً
يحتدل ميزان الحقوى في النفس البشرية ، والأمر فيهما كالأمر في
الصبيحة والعفو تماماً يكمل كل منهما الآخر ولا غنى لأحدى المكونتين
عن أختهم .

(1) ديوان الشريف الرضّ - المجلد الأول ص ٢٥٢ - ٢٥٣ .

برصهها مكرهه

ومثلما ارتبطت الشجاعة بعزة النفس عند الشريف الوض من مكارم النفس ، وعدتين من عدد الإحساس بالبطولة الذاتية ، فكذلك ارتبطت عند الشريف الهمة بعزة النفس أيضا فالهمة ضرب من ضروب الشجاعة لأنها شجاعة المرء في مواجهة الحياة ، وأعيانها :

إِنِّي لَتَحَقِّقَ مَا وَجَّهَسَ هَيْتِي	بَيْنَ أَنْ يَرَوِيَ عَلَى يَدِي بِأَسَادِي
مَا يَلْقَى رَفِيقِي أَنِّي أَرَى	صَقْدِي يَهْدِي بِيَدِي الْمَالِ يَتْلِي عَفَادِي
وَالْمَالُ أَهْوَى مَطْلِبًا مِنْ أَنْ أَرَى	ضَوْعًا أَرَامِي دُونِكِي وَأَرَادِي
وَيَنَاضِلُ عَثْرَتِي بِهَ أَهْوَائِي	فِي مَلِكِي وَفِي مَعْرِي الْأَجْدَادِ
خَلَقْتُ عَرَفَ جَوَادِي بِتَجِيعِي	وَالسَّهْقِ فِي تَلْقَى الرَّدَى لِيَجُودِي (١)

وهكذا يرى الشريف الوض أن الحسب الشريف يضمن لصاحبه السبق على من تمتوث به أحسابه ، شريطة أن يكون الحسب متفلا ، لا غافلا فالصحيح أن يجد سلكا للسبق في هذه الحياة . لذا كان الشريف الوض حريصا على التفتي بهذا الرصيد الشخص من الكلام التي هي في حقيقة الأمر عدد ، وأصحاب من عدد الإحساس بالبطولة الذاتية وأصحابه . ومن عدد الإحساس ببطولة الانتفا التي تفتي بها الشريف الوض ، وجسدها من خلال أفعاله الإقدام ، والإقدام كالبهمة ضرب من ضروب الشجاعة سواء في ميدان القتال ، أو في ميدان الحياة :

رَدِي مَسْرُورٌ وَلَا تَمَانِي قَمَا يَتَأَي بِمَوَاسِي أَنْ تَخَانِي

(١) المصدر السابق - المجلد الأول ص ٣٣٨ .

فَطُورًا تُعَرِّضِينَ عَلَى زَلَالٍ وَ طُورًا تُعَرِّضِينَ عَلَى ذُعَابٍ
وَمَنْ يَشْرَبُ بِصَافٍ غَيْرِ رَشَقٍ يَرِدُ يَوْمًا بِرَنَقٍ غَيْرِ صَافٍ^(١)

والصبر والتجلد مما يجبل بالإنسان أن يتحلل بهما ، وأن يكونا من عُدده في مواجهة الحياة وخطوبها ، ولقد تحل بهما الشريف الرضي وكانا عُدّة من عُدّد إحساسه ببطولته الذاتية ، بطولته الانتفا إلى النسب الشريف الذي يصله بال بيت النبوة الذين ضربوا المثل في الصبر والتجلد فالشريف الرضي في رثائه لأمه يتغنّى بصبره ، وجلاله في مواجهة ذلك الخطب بعيد ومتجللا بهما ، سائرًا دموعه ، حتى لا يشتت أعداؤه حسين برونه متطلعا جزعا ، ضعيفا خائرا القوي ، والمزينة :

أُبَكِّيكَ لَوْ نَعَى الْغَلِيلُ بِكَائِسٍ وَأَقُولُ لَوْ ذَهَبَ الْقَالُ بِدَائِسٍ
وَأَعُوذُ بِالصَّبْرِ الْجَمِيلِ تَعَزِّيسًا لَوْ كَانَ بِالصَّبْرِ الْجَمِيلِ عَزَائِسٍ
طُورًا تَكَثَّرَتِ الدَّوْعُ وَتَكَارَتْ أَوَى إِلَى الْكُرُومِ وَحَيَائِسٍ
كَمْ عِبْرَةٍ مَوْهَتْهَا بِأَنَابِلِيسٍ وَسَتَرَتْهَا مَتَجَلَّلًا بِرِدَائِسٍ
أَبْدَى التَّجَمُّلَ لِلْعَدُوِّ وَلَوْ دَرَى بِعَطْلِي لَقَدْ اشْتَقَى أَعْدَائِسٍ
مَا كُنْتُ أَذْ خُرْقِدَاكَ رَغِيصَةً لَوْ كَانَ يَرْجِعُ مَيِّتَ بَغِيصَةٍ

ويذكر الشريف الرضي صبره في مواجهة فقد أمه ، بصبره في مياد بين القتال وسط رفاته ، وصحه الذين وهبوا كما وهب الشريف القسوة

(١) ديوان الشريف الرضي - المجلد الثاني ص ١٥

والشجاعة ، والصبر والجلاد ، فما أخذت الثغنى بهؤلاء الرفاقي
وصبرهم ، وما ذلك إلا امتداد للثغنى بصبره وجلاده :

لو كان يدفع ذا الحسام بقوة لشكست عصي وراي ليواني
بعد بين على القراع غيبا أو ظل الرياح لكل يوم لقياني
قوم إذا برهوا بأغياي السرى كحلوا الميون يأتيد الظلماي
يمشون في جلق الدروع كأنهم صم الجلايد في غد ير الما
ببرقي أذراع ورعد صوايم وغام قسطة ومهل د مكا^(١)

والعفة ، والنقا ، والطهر ما تغنى به الشريف الرض بوصفها
من عدد الاستعداد النفس للإحسان بطولته الذاتيه - بطولته
الانتها إلى من كانت العفة ، والطهر أول سجاياهم وأهم محامدهم
وأعظم صيد لهم في هذه الحياة . ولقد يكر الشريف الرض في تغنيوه
على هذه المحامد ، والمكارم مجسدا لها لعله أنها أول أسباب
بطولته ، وأجل مقوماتها :

أرايك من مشي ما أرايا وما هذا البياض على عابا
لئن أبغضت من شيب رأس فائن ميفض منك الشبايا
يدم البيض من جزع مشيبي ودل البيض أول ما أغابا
وكانت سكرة فصحت بنهيا وأنجب من أين ذاك الشرايا
يميل بين الهوى طريا وأنأى ويجديني الصبا غلا فابسا
ويتعرق العفاف كأن يسي وبين ما بين منه هبابا

(١) ديوان الشريف الرض - المجلد الأول ص ٢٦ .

نصليت عن الصبا وما حبيبها وأبدلني الزمان بهم حجابها
ولما جد جد البين بيننا وهبت له الظمائن والقياسا
وما رويت من جزع جنايا ولا رويت من دمع جنايا (١)

وهكذا يربط الشريف الرضي بين علته وقوة نفسه ، فبدون هذه القوة لا يستطيع الإنسان أن يكون عفيفا . ويتكرر التفتيش بالعفة في شعر الشريف الرضي كثيرا . فهي صفة متأصلة فيه ورثها عن قومه ونشأها في نفسه ، تدفعه إليها دائما غيرته على عرضه وأصالته محتدة :

يشكو الحبيب إلى شدة شوقه وأنا المشوق وما بين جنايس
وإذا همت بمن أحب أمانتي حصر يعوق وعفة تنهايس
لله ما أغت عليه جوانجيس والشوق تحت حجاب قلبي عسان
ما مربوق في فردج غمايس إلا وأعدى القلب بالخفقان
وإذا تحركت الرياح تحركت بين الضلوع غوايس الأشجان
أجمت لحظ عفة وسجيسنة أن لا أجم اليقن في الأجان
غير أن دون العرض لا أسوييس والعرض غير عقيلة الإنسان
وأذود عن سمع اللام كائيس عشو أخاف عليه حد سينان
لن بقطة الذئب الخبيث فإن جرى سفه فعندى نومة الطرسان
حدث على الأحباب لا أشكو الذري يشكو ولا أنس الذي ينسان (٢)

(١) المصدر السابق - المجلد الأول ص ١٢٠

(٢) ديوان الشريف الرضي - المجلد الثاني ص ١٧٠

وهكذا يربط الشرف الرضى بين العفة والغيرة ، والبطولة
والشجاعة ، وكلها من عدد الإحساس بالبطولة الذاتية التي يستثمرها
في نفسه بطولة الانتماء إلى نسب شريف ، يمتلك أصحابه هذه الصفات
ويوشها منهم جيل بعد جيل .

وحننا تغنى الشرف الرضى بالعفة ، فقد تغنى بغنى النفس
وما العفة إلا ضرب من ضروب غنى النفس ، فعفاف المرء وكسره لشهوته
وامتلاكه لنفسه ، وكبحه لجماحها ، دليل على الاقتناع بالبيع ، والقناعة
بالحلال ، وذلك معنى من معاني غنى النفس الذي تغنى به الشرف
الرضى على أنه عدة من عدد الاستعداد النفس لتقبل الإحساس بالبطولة
الذاتية في نفسه ، بطولة انتماؤه إلى آل البيت الذي غنت أنفسهم
عن زخارف الحياة ، ومتعها :

تَمَلَّيْ الدُّنْيَا إِلَى كُلِّ شَيْءٍ	وَأَمِنَ مِنَ النَّجْمِ الْبَعِيدِ مَنَالُ
وَتَلَيَّ أَيْدِي النَّوَائِبِ ثِيَابِي	وَلِى مِنْ غَفَائِي وَالتَّقِيعِ مَنَالُ
إِذَا عَزَنِي مَا فِي الْقَلْبِ غِلَّةٌ	وَجَعَلْتُ وَصْبِي لِلْفَلِيلِ بَلَالُ
أَرَى كُلَّ زَائِرٍ مَا خَلَّاهُ جَوْشَنُ	تَوَابَا وَكُلَّ أَلَا مَنَادِي آلُ
وَمَثَلِي لَا يَأْسُ عَلَى مَا يَفُوتُنِي	إِذَا كَانَ عَقْبِي مَا يَكُنُ زَوَالُ (١)

(١) الصدر السابق - المجلد الثاني من ١٤٥ -

وغنى النفس لا يتعارض مع الإصرار على بلوغ المجد ، ونيله عند الشريف الرض ، فنفس الكريم لا تثنع بما حققت من مجد ، وما حازت من فخار ، أما غنى النفس فمقصود على الزهد في كل ما كان زائلا في هذه الحياة مهما غلا ثمنه . لذا فالشريف الرض يتغنى كثيرا بإصراره على بلوغ ما يلقى به لأجله حديثا من مجد مهما كلفه ذلك ، ومهما عانى في سبيل تحقيق هذه الغاية النبيلة التي تعد من عدد البطولة في النفوس الزكية الكريمة :

دَعَيْتُ أَطْلُبُ الدُّنْيَا فَإِنِّي	أَرَى السَّمْعُودَ مِنْ رُوقِ الطَّلَاحِ
وَمِنْ أَتَى لِأَجَلِهِ حَدِيثًا	وَمِنْ عَانِي لِمَا جَلَّ أَكْبَابًا
وَمَا الْمَقْبُورُونَ إِلَّا مِنْ دَهْتِهِ	وَلَا مَجْدًا وَلَا جَدَّةً أَصَابًا
فَلَا وَاللَّهِ أَتْرَكُهَا خَلِيًّا	وَلَمَّا أَجْنَبَ الْأَسَدُ الْفَضَائِلَ
وَأَرْكَبُهَا مَحْصَنَةً شَبُوهًا	تَمَانِعَ غَيْرِ فَارِسِهَا الرُّكَّابِ
إِذَا نَهَضَتْهَا أَرْنَتْ جَمَاحًا	إِلَى أَمَلٍ تَجَانِبُنِي جَذَابًا
فَإِنَّمَا أَمَلُ الدُّنْيَا عَنَلَاءٌ	وَأَمَّا أَمَلُ الدُّنْيَا مَصَابِ
سَجِيَّةٌ مِنْ رَى الْأَيَّامِ حَسَنِي	أَشَابَ جَمَاعًا شَبَابًا (١)

وطبعي أن يتغنى الشريف الرض بقوة ، وعزيمه ، وهو بصدد التغنى بإصراره على بلوغ المجد ونيله ، لذا يبرط الشريف هذا بهذا لصلتهما الوثيقة وبحاجة من يغنى المجد ، ويهفو إليه إلى القوة وشدة

(١) ديوان الشريف الرض - المجلد الأول ص ١٤٣ و ١٤٤

الغزمية وصدق الإصرار .

ويكثر الشرف الرضى من تغنيه بإصراره على بلوغ المجد ، ونيله ، يدفعه إلى ذلك إحساسه ببطولة الانتما إلى نسب شريف ، وإحساس بالانتما إلى مثل ذلك الشرف يدفع بصاحبه دائما إلى مزيد من المجد ومزيد من العزة ، والسيادة ، فالبطولة تمنع صاحبها من الاقتناع بما حقق من مجد ، وما حاز من فخار بل البطولة في ذاتها تطلع دائم إلى المزيد مهما اختلفت مناحس البطولة ، وتشعبت مسالكها . لهذا فالشرف الرضى بيد وحيها على التغنى بإصراره على بلوغ المجد ، بل على الإكثار من التغنى به بوصفه عدة من عدة الإحساس ببطولته الذاتية كما قلت من قبل :

رَدِي بِأَجْيَادِي وَأَذْنِي بِرَجَيْسِ	سَتَرَعَيْنَ أَرْضَ الْحَيِّ بَعْدَ قَلِيلِ
أَلَا إِنِّي قُلِّي إِلَى الْمَجْدِ طَوِيَةً	وَعِنْدَ الْقَنَا يَوْمًا شَفَا غَلِيلِي
إِذَا مَا اتَّخَذْتُ اللَّيْلَ دِيَارًا حَصُونَةً	فَأَهْوُونَ بِخَطْبٍ لِلزَّمانِ جَلِيلِ
عَلَى دَمَائِي الْبَدَنُ إِنِّي لَأَثَرُ بِهَا	وَعِيْلًا يَشُقُّ الْأَرْضَ بَعْدَ وَهْلِ
فَأَخَذُ حَقِّي أَوْ يَتَوَرَّعَارَهَا	مِنَ الْقَاعِ عَنْ أَرْضِي يَشْتَرِي قَيْلِ
وَمَا حَاجَتِي إِلَّا الْمَعَالِي وَقَلَمًا	يَضِيعُ رَجَائِي وَالطَّمَعُ رَسُولِي
وَإِنِّي لَتَرَاكَ الْبَلَاءُ إِذَا تَبَيَّنَتْ	عَلَى وَمَا ذُو نَجْدَةٍ يَذْلِيلِ

ويؤكد الشرف الرضى في تغنيه هذا على الربط بين الإصرار على بلوغ المجد والقوة - كما رأينا له منذ قليل - لا تقتناه - كما قلت

بحاجة طالب المجد إلى هذه القوة التي تمكنه من بلوغ ما يريد ، ومن تحقيق ما يأمل :

وَأَنْتَ مَعْبُودٌ نَاعِدِي مَنْ أَرَادَهُ	بِأَيْضِ طَائِفَةِ الشُّفَرَاتِ صَقِيلِ
إِلَى الْمَجْدِ دُونَ الْبَيْعِ رَمَتْ عَزَائِي	وَالْعَزَّ دُونَ الْفَيْدِ بَانَ تَحْوِيلِ
أَسْمُ الْهَوَى نَفْسًا عَزُوفًا عَنِ الْهَوَى	وَقَلْبًا لَصِيمَ الْحَبِّ غَيْرَ قَبُولِ
وَأَمْنَعُ وَدِّي النَّاسَ إِلَّا أَفْلَسَهُ	لَا مَنَ مِنْ طَاغٍ عَلَى صَوِّ وَلِ
وَأَعْدُو مِنْ عَقْلِي خَيْبًا أَصُونَهُ	وَأَقْدَى كَثِيرِي مِنْهُمْ بِقَلْبِ
وَأَحْطِمُ سِرِّي فِي الصَّلَاحِ مَخَافَةَ	أَلَمْ يَأْنِ يَوْمًا أَنْ أَدْبَحَ وَخَيْلِي
نِدْبِي عَلَى شَرِّ الْهَيْمِ مَهْنَدُ	إِذَا شَاءَ أَشْفَى الْهَيْمَ دُونَ مَقِيلِ
وَأَنْتَ أَيْمَى أَنْ أَدْلَ وَفِي بَسْدِي	عَنَانِي وَلَمْ يَقْطَعْ عَلَى سَيْلِي
وَكُلُّ دَمٍ/إِذَا مَا حَمَلْتَهُ	وَإِنْ أَثْقَلَ الْأَقْوَامَ غَيْرَ تَقِيلِ (١)

وهكذا يظهر إصرار الشريف الرضي على بلوغ المجد ، فهو عاشق له ، نحله عشقه للمعز ، ففى الوقت الذي لم يشغل فيه نفسه بعشقه النساء فنفسه عنه عزوف ، وقلبه لضميه غير قبول .

ومن عدد الإحساس ببطولة الانتما التي تغنى بها الشريف الرضي إلى جانب كل ما سبق - الوفا ووصون المعرض ، وهذا من أسباب العفة التي تغنى بها الشريف الرضي كثيرا ، ومن مقوماتها ، وكل إنسان يجعل

(١) ديوان الشريف الرضي - المجلد الثاني ص ١٥٠ ، ١٥١ .

به أن يكون عفا ، وقورا ، صائبا لعرضه ، فما بالناس برجل ينتهي به
 نسبه الى بيت النبوة ، ويحسن دائما ببطولة الانتساب الى هذا النسب
 الشريف ، وهو حريص على التفنى بهذه البطولة وبعدة الاحساس
 بها ، والوقار ، وصون العرض من أهم عدد ذلك الاحساس :
 أنا المرء لا عرض قريب من القدي ولا في للباغي علي^(١) يقال
 وما العرض الأخير محو من الغنى يصاب وأقوال العداة يقال
 وقور فان لم يحق جاهل^(٢) سالت عن العوراء كيف تقال^(٣)
 وهكذا تفنى الشريف الرض بكل عدة من عدد الاحساس ببطولته
 الذاتية ، بطولة الانتساب الى النسب الشريف ، ولم يتحرك واحدة من تلك
 العدد الا وجدها من خلال تفنيه بها لأنها أسباب بطولته ، ومقومات
 الاحساس بها الى جانب ما ورثه عن اهله وذويه .
 والاحساس ببطولة الانتساب قد دفع الشريف الرض الى التفنى بابيه ،
 وقومه اولئك الذين ينتس اليهم ، ويشعر ان الاحساس بالانتساب اليهم
 بطولة في حد ذاته ، لذا يكثر تفنيه بابيه ، وقومه ، وما جازوا من مجد ،
 وشرف ، وعز ، وسوء .
 تفنى الشريف الرض بابيه كثيرا ، وهذا من طبعه لأنه اول من
 يحس بالانتساب اليه ، ومن خلال تفنيه بهذا الأب جسد الشريف بطولته
 أبيه ، ومناقبه ، هذه البطولة وتلك المناقب التي تكمن في انتساب ذلك
 الأب الى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، والى " علي " " كرم
 الله وجهه " .

(١) ديوان الشريف الرض المجلد الثاني ص ١٢٥ .

يَغْفِرُ إِلَى الْأَيَّامِ أَنَّكَ لِي حَمِيٌّ
وَعِظُّكَ مِنَ الْأَيَّامِ أَنَّكَ لِي أَبٌ
أَبْعَدَ الْبَيْنِ وَالْوَصَى تَرْوَقُنِي
مُنَاسِبٌ مِنْ يَغْفِرُ لِمَجْدٍ وَيُنَاسِبُ
يُقَرِّبُغْنَلِي كُلَّ يَادٍ وَحَاضِرٍ
وَيَحْمَدُنِي هَذَا الْعَظِيمُ الْحَقِيبُ (٥)

وهكذا تجسد الأبيات احساس الشريف الرضي ببطولة انتشائه
الى مثل ذلك الأب حين يرى أن كل ياد ، وحاضر يقرب بغنله
وحين يجد أن كل عظيم حاسد له على ذلك النسب الشريف .

(١) ديوان الشريف الرضي المجلد الثاني ص ٨٣

والشريف الرضی فی كل اشعاره التي يتفتق فيها بأبيه يجسد
شيم ذلك الأب وفائله التي اكتسبها جميعا بانتسابه الى بيوت

النبوة :

وأبي الذي حصد الرقاب بسيفه	في كل يوم تصادم ونطاح
ردت اليه الشمس يحدث ضوءها	صباحا على بعد من الصباح
سائل به يوم "الزبير" مشرا	يختال بين ذوايل وصفاح
واسأل به "صغين" إن زهره	أودى بكبحي "أمة" النطاح
واسأل "شراة النهر" إن غاتهم	ضربوا بمنزلي اليد بين وقاح
كم من طيعين يوداك مرسل	وحريم عزيا لظمان مباح
ومناقب بيض الوجوه خبيثة	أبدا تكاثر السن المباح
من قاس ذا عرف به فكانما	وزن الجبال القود بالأشباح (1)

وتظهر من خلال هذه الأبيات نزعة الشريف الرضی الشيعية
وعداؤه لسنى أمة ، وبغضه لهم ، ذلك البغض الذي ظل يكتف في نفسه
لهم ، حتى بعد أن بعد عهدهم ، وزالت دولتهم فيها هوذا يذكر
مواقع الإمام عليّ معهم ، وحرره لهم وهو بعدد التفتي بشجاعة أيمه
وقدرته على القتال ، وما ذلك إلا تجسّد لبطولة "عليّ" (كم الله
وجهه) الحرية ، وبطولة أبنائه وأحفاده الذين هم في الوقت نفسه
أجداد وآباء للشريف الرضی .

(1) ديوان الشريف الرضی - المجلد الأول ص ٢٥٢ .

ولا يمل الشرف الرضى النفس بأعجابه ، ومناقبه ، فأعجابه
الأب ، ومناقبه هي في الوقت نفسه أعجابه ، ومناقب لأبنائه ، ويركز
الشرف الرضى في نفسه بهذا الأب - وكما قلت من قبل - على حسد
الرجال له ، فذو المناقب محسود في كل زمان ، ومكان :

وَأَيُّ الَّذِي حَسَدَ الرِّجَالُ قَدِيمَهُ إِنَّ الْمُنَاقِبَ آيَةُ الْمَحْسُودِ
ذُو الْمَنِّ وَالشُّرَفِ جُمِعَتْ بِهِ كَهَاءِ أَخِيَّةِ الْعُلَى وَالْجُودِ
أَحَدًا أَخِيصَهُ رِقَابٌ عِدَائَتِهِ مِنْ سَيِّدٍ بَلَغَ الْعُلَى وَمُسْكُودِ (١)

ومثلما تغنى الشرف الرضى بأبيه مجسداً بطولية ذلك الأب ، ومناقبه
وأعجابه ، فقد تغنى كذلك بقومه مجسداً أيضاً مناقبهم ، وأعجابه هم
وشرف نسبهم الذي يحس الشرف الرضى بطولية الانتساب إليه :

أَنَا ابْنُ السَّابِقِينَ إِلَى الْعَالِي إِذَا الْأَسَدُ الْبَعِيدُ ثَنَى الْبَيْطَا
إِذَا رَكِبُوا تَفَاهَتَ الْفَهَائِي وَطَلَّ يَحْمُضُ جَمْعُهُمُ الْفَقَا
تَمَانِي مِنْ أَبَاءِ الْقَدِيمِ نَسَام أَمَّا عَلَى تِلْكَ الْكَبِيرِ نَسَامَا
شَأُونَا النَّاسُ أَخْلَاقًا لِدَانَا وَأَيَّانَا رَطَابًا وَاعْتِيَلَا

وهكذا يجسد الشرف الرضى من خلال هذه الأبيات شجاعة قومه
وبسالتهم وكثرتهم ، وإبائهم ، ويؤكد الشرف الرضى هذه الأعجابه
بتعدد يدها خفياتها إليها أعجابه أخرى ، ومناقب حازها قومه :

(١) المصدر السابق - المجلد الأول ص ٢٨٧ .

وهكذا يجسد الشريف الرضّ من خلال هذه الأبيات شجاعة قومه
وصالتهم وكثرتهم ، وإياهم ، وجميل أخلاقهم ، وكلها عدد للبطولة
ومقامات لها ، ودوافع للإحساس بها في نفس الشريف الرضّ ، ويؤكد
الشريف الرضّ هذه الأمجاد بتدورها مضيقاً إليها أمجاد أخرى ، ومناقب
حازها قومه :

وَنَحْنُ النَّازِلُونَ بِكُلِّ ثَغَرٍ نَرِيقُ عَلَى جَوَانِبِهِ الدِّمَاءَ
وَنَحْنُ الْخَاضِعُونَ بِكُلِّ هَوَلٍ إِذَا دَبَّ الْجَبَانُ بِهِ الْفَسَادُ
وَنَحْنُ الْلَابِثُونَ لِكُلِّ مَجْدٍ إِذَا شَقْنَا أَدْرَاعًا وَارْتَدَّ
أَقْنَعُنَا بِالتَّجَارِبِ كُلِّ أَمْرٍ أَيْ إِلَّا أَعْوَجَا جَا وَالتَّسَوَا
نَجْزِي إِلَى الْعِدَاةِ سَلَفَ جَيْشِي كَمَنْزِلِ اللَّيْلِ يَتَّبِعُ اللَّسَوَا

وهكذا يكثر الشريف الرضّ من استخدام " نحن " و " نا " التي
ترددت كثيراً في هذه الأبيات إيماناً في التفتي ببطولة قومه ، ومساعدة
بأسهم ، وخوضهم للأهوال ، وإراقتهم الدماء ، وجرحهم الجيوش ، وكلها
من عدد البطولة التي استشعرها الشريف الرضّ في قومه وقومه .

ويضيف الشريف الرضّ إلى هذه الأمجاد التي حازها قومه ، أمجاداً
أخرى تتمثل في حلمهم ، وإياهم وغوهم وصفحهم :

وَمَنْ كُلِّ أَغْلَبَ سَتَحْمِيْنِ إِنْ أَنْتَ لَدَدْتَهُ بِالذِّلِّ قَاءَ
إِذَا مَا نِيْمَ نَمْرُ صَفْحَتِهِمْ وَقَامَ عَلَى بَرَانْتِهِ إِيَاءَ

وَأَنْ تُؤَدِّيَ بِهِ وَالْحَلَمُ بِهِنَا
وَنَأْبَى أَنْ يَنْتَالَ النِّصْفَ مِنَّا
صَفَا كَرَمًا إِلَى الدَّاعِي وَنَا
وَأَنْ تُعْطِيَ مَقَارِعَنَا السَّوَا
وَلَوْ كَانَ الْعَدَا يَسُوعَ قَيْنَا
لَا سَمْنَا الْوَرَى إِلَّا الْعَمْدَ (١)

ومن خلال ذلك الشعر الذاتى/بغير حساسة ، وإحساسا بالطول
والعزة ، والكرامة بجسد الشريف الرضى مناقب قومه ، ومفاخرهم
وأجدادهم ، وأجدادهم متفنيا بما ملكوها حازوا من شيم ، وسجايا
هى فى الواقع عدة بطولتهم ، ومقومات عزهم وسؤددهم .

ويظل الشريف الرضى متفنيا بقومه ، معددا مناقبهم ، ومفاخرهم
من سعى ، وكده ، وجسده ، واجتهاده فى هذه الحياة ، ومن جسد
حقوقه ، وعز حازوه ، وبرماهم ، وسؤددهم ، وكرمهم ، وجودهم
وغضبهم لشرفهم ، ثم يختتم هذه المناقب ، وتلك المفاخر بأعظمها قدرا
فى نظره - وهو انتساب قومه إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :

وَلَمْ أَرَ كَالْأَرْبِ وَأَمِيَّاتِ
تَخَوَّنَا الْهَارَ مَزْجِيَّاتِ
بَنَا الدُّنْيَا يَحَادَا وَاقْتَرَابَا
وَتَمَلَّكْنَا الضَّائِقَ وَالْعَقَابَا
وَأَعْظَمَ مِنْ عَابِ الْهَرَجِ حُرْمِ
وَعَلَبَ كَالْقَوَاضِي مِنْ قَرَيْشِ
فَمَا وَلَدَ الْآجَارِ مِنْ تَيْمِ
وَأَنَّ الْمَجْدَ قَدْ عَلِمْتَ مَعْدَا
نَظِيرَهُمْ وَلَا الشَّعْرَ الرَّقَابَا
وَدَارَ الْعِزِّ وَالنِّسْبِ الْقَرَابَا

(١) ديوان الشريف الرضى - المجلد الأول ص ١٦ ، ٢٠ .

لَا طَوْلَ لَهُمْ - إِذَا رَكَبُوا - رِيحًا
وَأَغْرَزَهُمْ - إِذَا سَلُّوا - عَطَاً
وَأَعْلَاهُمْ - إِذَا نَزَلُوا - قَبَاً
وَأَوْحَاهُمْ - إِذَا غَضِبُوا - ضَرَاباً
وَأَلَصَّهُمْ بِهِ غُرَّتَا كَبَابٍ (١)

و يركز الشريف الرضي دائماً في تغنيته بقومه على انتها* نسبهم إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فذلك هو أعظم مفاخر قومه ، وأجل مناقبهم ، وذلك سر بطولته ، وأساسها ، بطولة الانتماء إلى ذلك النسب الشريف :

الْمَجْدُ يَعْلَمُ أَنَّ الْمَجْدَ مِنْ أَيْسٍ وَلَوْ تَادَيْتُ فِي غَيٍّ وَفِي لَيْسٍ
إِنِّي لِمِنْ مَعْشَرٍ إِنْ جُمِعُوا لِمَلِكٍ تَفَرَّقُوا عَنْ نَبِيٍّ أَوْ وَصٍّ نَبِيٍّ
إِذَا هُمُتْ فَفَتَحَتْ مِنْ شِبَا هَمْسٍ تَجَدَّدَ فِي مَهَجَاتِ الْأَنْجَمِ الْقَهْبِ
وَإِنْ عَزِمْتَ فَعَزَّيْ بِسُجَيْلٍ قَسَدِي تَدَسَّ سَالِكُهُ فِي أَعْيُنِ النَّكُوبِ (٢)

والإبيات فيها مغالاة ، وبالعبارات أشبه بمغالاة أبي الطيب وبالعناية في شعره بأهم صباه وشبابه ، ولا عجب فأبيات الشريف الرضي هذه من قصيدة نظمها وله من العمر عشرين سنين لكنها مؤثر إلى أن ذلك الصبي قد استثمر بطولته وهو ابن العاشرة ، وربما قيل ذلك ، وعرف أن هذه البطولة إنما تكمن في انتها* نسب قومه إلى نبي الله (صلى الله عليه وسلم)

(١) ديوان الشريف الرضي - المجلد الأول من ٩٤ ، ٩٥

(٢) المصدر السابق - المجلد الأول من ١١٢ ، ١١٣

والى " على " (كرم الله وجهه) .

وظل الشريف الرض - وكما قلت من قبل - يركز في تغنيه بقويمه
على شرف نسبهم وما يستتبعه من فضائل ، وأمجاده ، وفاخره :

إِنَّا نَعِيبُ وَلَا نَعَابُ	وَنَصِيبُ مِنْكَ وَلَا نَصَابُ
أَلِ النَّبِيِّ وَمَنْ تَقْلَبُ	سَبَّ فِي حُجُورِهِمُ الْكِتَابُ
خُلِقَتْ لَهُمْ سَمَرُ الْقَنَابِ	وَالْبَيْضُ وَالْخَيْلُ الْعِرَابُ
نَاقَتِي حَبَاكَ إِنَّا الْـ	أَيَّامُ غُصْنٍ أَوْ نَهَابُ
مَنْ لَدَى رَدِّ الْمَوْتِ لَا	يَصْفُو لَهُ أَبَدًا شَرَابُ
وَتَطْرُقُ حَيْثُ السَّمَاءُ	حُ الْغَمْرِ وَالْحَسْبُ اللَّيَابُ
فِي حَيْثُ لِلرَّاجِسِ الشَّوَا	بُ نَدَى ، وَلِلْجَانِّ الْعَقَابُ
قَوْمٌ إِذَا غَبَرَ الزَّمَانُ	نُ قَنَمُهُمْ كَرِيمًا وَطَابُ
وَإِذَا حُمِرُوا وَالْخَيْلُ فِي الْأَجْبِ	فَالِ تَابُوا أَوْ أَجَابُوا

ويكمل الشريف الرض تغنيه بقويمه - فنما جيهم مجسداً مناقبهم
وفماخرهم متفننا بأمجادهم ، وفضائلهم :

أَبْنَى عَدُوِّي إِنَّمَا	سَالَتْ بِحَيْلِكُمُ الشَّمَابُ
وَشَرَفْتُمُ بِالطَّمَنِ وَالْذَّنْبِ	حَا ضِرَامٌ أَوْ ضِرَابُ
مَا كُنْتُمْ إِلَّا الْبَحُورُ	وَتَوَالَدَتْ فِيهَا الذُّفَابُ
وَقَوْمٌ بِالْبَيْضِ حُرُورُ	سَقَى شَاعَ فِي اللَّيْلِ الشَّبَابُ

وَالْيَوْمَ تَنْتَبِلُ الْمَيِّتَ فِي يَوْمِهِ وَتَنْتَبِلُ الرُّقَابَ
كَتَمْتَ دِمَاءَكُمْ الظُّلُمِ كَالْغَيْبِ يَكْتُمُهُ الْخُفَابُ^(١)

وأحاسيس الشريف الرضّ ببطولة الانتساب إلى النسب الشريف يجعله لا يكتف عن التغنى بقومه الذين أورشوه ذلك المجد والشرف ، ولا يكتف كذلك عن تجسيد أجدادهم ، ومفاخرهم من سبق إلى المعالي ، وحرص على المجد ، وإياهم ، وشمم ، وعجاجة عند اللقاء ، وانتساب إلى نسب شريف ، وحسب بنيف ، هو الانتساب إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وآل بيته :

قَوِيَ أَنْسُوفُ بَنِي " مَعَدَّة " وَالذَّرَى مِنْ وَاضِحٍ فِيهِمْ وَبَيْنَ ضَمَاحِ
السَّابِقُونَ إِلَى عِلَسٍ وَمَفَاخِيرِ وَالْفَالِبُونَ عَلَى نَدَى وَسَمَاحِ
ذَهَبُوا بِشَأْوِ الْمَجْدِ ثُمَّ تَلَفَتْ كُفُورًا هَزَبُوا إِلَى الطَّلَاحِ وَالطَّلَاحِ
شَوْسَ الْحَوَاجِبِ مَنُفِقُونَ فِي الرِّضَى مَا شَتَّتْ مِنْ بَغْيِ الْوَجُوهِ صِبَاحِ
وَرَثُوا الْمَالِي بِالْجَدِّ وَبَعْدَ هَذَا بِضَرَابِ مَرْهَقَةٍ وَطَعْنِ رِمَاحِ
وَقِيَادِ مَخْطَفَةِ الْخُصُوفِ كَأَنَّهَا الْـ حَقِيقَانِ تَحْتَ مَجْلِسِ دَلَاخِ
يَغْبِقُنَ لَيْلًا بِالْعَمِيقِ وَتَسَارُ يَصْبَحُنَ بِالنَّارَاتِ كُلِّ صَبَاحِ
ضُوءٌ يَحْدِرُ دَوْحَةً نَبِيَّةً فِي مَنْصِبِ وَارِي الزَّنَادِ صَرَاحِ
يَنْصُ إِلَى أَفْعَاصِ خَيْرِ أَرْبَعَةٍ لَيْسَتْ بِعَشَائِرِ الْقُرُوعِ فَسَوَاحِ^(٢)

(١) ديوان الشريف الرضّ - المجلد الأول ص ١١٧ ، ١١٨ .
(٢) ديوان الشريف الرضّ - المجلد الأول ص ٢٥١ .

وهكذا يرى الشريف الرضي أن قومه حازوا المكام ، والفضائل ، ولكن أعظم هذه المكام ، تلك الفضائل ، في نظره - هو انتسابهم إلى بيت النبوة ذلك الانتساب الذي استشعر الشريف الرضي بطولته من خلاله ، بطولته الإحساس بالانتساب إلى ذلك النسب الشريف ، الذي ظل الشريف الرضي يتغنى به من خلال أشعاره التي يجسد من خلالها هم قومه ، وسجاياهم التي تتفق وانتسابهم إلى آل البيت :

أَنَا ابْنُ الْفَرْعِ مِنْ أَعْلَى نِيَّزَارِ	وَمِنْ يَزُنِ الْأَسَافِلِ بِالْأَعَالِي
تَمَاسُ كُلِّ مَتَّحٍ أُرْسِي	جَرَى طَلْقَ الْجَمِّحِ إِلَى الْمَعَالِي
مِنْ الْقَوْمِ الْأَلَنِ مَلَكُوا رِقَابَ الْـ	أَوْ آخِرَ وَاخْتَلَوْا قَسَمَ الْأَوَالِي
إِذَا يَحْمَلُوا الْخَطَا سَحَبُوا رِقَاقَ الْـ	يَبْرُدُ عَلَى الرِّقَاقِ مِنَ النَّعْمَالِ
وَأَنْ قَسَمَتْ بِبُيُوتِ الْمَجْدِ حَاوَزُوا	فَنَاءَ الْبَيْتِ ذِي الْعَمْدِ الطَّوَالِ
وَأَنْتُمْ لَأَعْنَفَ بِالْمَذَاكِبِ	مَحَاضِرَةٍ وَأَقْرَعَ بِالْعَوَالِي
أَفْظَ مِنَ الْأَسْوَدِ فَإِنْ أَنَا لَوَا	رَأَيْتَ أَرْقَى مِنْ بَيْتِي الْعَجَالِ
يَخْفَ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ الْأَمَّادِي	وَقَدْ أَثْقَلَنَ أَثْقَانِ الرَّجَالِ (١)

والأبيات تجسّد لبطولة قوم الشريف الرضي ، وأمجادهم ، وما تحلوا به من شيم وسجايا ، يكمل كل منها الآخر فبهم أباة ، شجعان ، أصحاب قتال ، أصحاب حروب ، وهم إلى جانب ذلك أفظ من الأسود بأسا ، وعدة ولكن في الوقت نفسه ذوي رحمة ورقة قلب ، وهكذا تكون

(١) المصدر السابق - المجلد الأول ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

البطولة ، ويكون كمال النفس البشرية ، غاليأس ، والشدّة مطلوبان
في وقت لا يحتاج إلا إليهما ، وكذلك اللين والرحمة مطلوبان في وقت
لا يجدى فيه اليأس والشدّة شيئاً .

وهكذا يحرص الشريف الرض على تجسيد مفاخر قومه ، ومناقبتهم
تلك المفاخر والمكارم التي حازوها لا ينسابهم إلى بيت النبوة من جهة
ولعظم نفوسهم ، وامتلاكهم لوصيد شخص من المكرمات والفضائل من
جهة أخرى ، هذه المكرمات ، وتلك الفضائل الذي يعد الطهر والجود
والذود عن العرض من أهمها وأعظمها .

يتغنى الشريف الرض بهذه الفضائل التي حازها قومه وهو بصدد
رثاء أبيه :

الظاهر ابن الطاهرين ومن يكن	لأب ال جدم النبوة بعظم
من معشر تغدوا المكارم طمعة	ويودا من الشريف الأعر الأقدم
من جأيد أو ذائد أو عاقبر	أو ماطر أو منيع أو مرفيع
وقبوا على المجد المشيد همومهم	وتهاوتوا بالنائل التهنيد
عيسى ألق تقابلت شعبانك	في المجر عجر مقيم ليقوم
بتماويون المكرمات ولادة	من بين جد في المكارم وابنهم (١)

(١) ديوان الشريف الرض - المجلد الثاني ص ٢٩٤ .

وهكذا لا تستطيع فجعة موت الأب أن تسكت ذلك الابن الذي عاش يستشعر البطولة بانتسابه إلى أب ينتهي نسبه إلى بيت النبوة فتفتى وهو في خضم أحداث هذه الفجعة بقومه وشرف نسبهم كما تغنى بأمجاد أبيه الفريد وما أثره :

أعطى القيادة يارن لم يخطم	إن ابن موسى والبقا إلى مدى
وقضى العود غير موسى	ومن رحيض الثوب غير مد نسي
ضم اليدين إلى يافى الدرع	وحماه أبهى غرضه وتنايه
إن الفنى قدى لطرف المجد	وغنى عن الدنيا وكان شجى لها
خيطا يؤسس في الرجال وأنعم	ملا الزمان مناسحا وجراحتا
فبلغن أبعد غاية المستند	واستخدم الأيام في أوطار

وتسيطر الأحزان على الشريف الرضى لحظة حين يتذكر أن أبيه الذى مات لم يكن رجلا ككل الرجال بل كان سيفا عذبا ، وجيلا أسمى ، وأنه لم يحزن عليه وحده ، ولم يفقده وحده ، بل حزنه عليه المكارم والعلى حين أحدث بفقد :

ودفنت هضب متاع ويليسلم	اليوم أغدت المهند في الشرى
من بين أجود بعده أو أجدم	وغدت عرائين العلى وأكفها
مطر الندى أما ولم يتدفيم	متلج كرم إذا سئل الجدا

وهل الشريف الرضى بعد تجسده لأجداد أبيه ، وبما هو إلى تقرير

حقيقه يراها ماثلة أمام عينيه ، و هي أنه لن يتساوى أب مع أبيه في بطولاته
و أمجاده ثم يعود مرة أخرى إلى ما كان فيه من أحزان لفقدته مثل ذلك
الأب الكريم :

هَلْ مِنْ أَبِي كَأَبِي لَجَّحَ مُلَيَّةً أَعْيَا وَشَمِبَ عَظِيمَةً لَمْ يَسْلَامِ
إِنَّ الْخُطُوبَ الطَّارِقَاتِ فَجَعَنَنْسَا بِحَسَنِ الْأَبِ وَجَنَّةِ الْمُسْتَقِيمِ
يُجَاهِلُ فِي الْغَائِبِينَ مُؤَخَّرٌ وَ مُحَفِّزٌ فِي السَّابِقِينَ مَقْدَمٌ
الظَّاهِرِينَ الظَّاهِرِينَ وَمَنْ يَكُنْ لِأَبٍ إِلَى جِذَمِ النُّبُوَةِ يَعْظُمُ (١)

والأبيات ليست في الرثاء بقدر ما هي في التنفى بأمجاد ذلك الأب
ومناقبه ، تلك التي ورت الشرف الرض كثيرا منها كانت له عدة من تعدد
الإحساس ببطولة الانتفا إلى ذلك الأب الشريف وإلى بيت النبوة الذي
أنجبته .

ومثلما اتخذ الشريف الرض من موت أبيه مجالا للتنفى بأمجاد ذلك
الأب ومآثره ، فقد اتخذ كذلك من موت جده الحسين بن علي (رض الله
عنه) مجالا تنفى من خلاله بأمجاد قومه ، وذويه ، التي هي نفس
الوقت نفسه أمجاد له ، إذ أن بطولته التي يستشعرها في داخله تكمن
في الإحساس بالانتفا إلى هؤلاء القسم .

لذا كان الشريف الرض يتخذ من ذكرى " عاشورا " مجالا يكسب
فيه سبط رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لا من أجل الهكاه ، وإنما
(١) ديوان الشريف الرض - المجلد الثاني ص ٢٦٠ وما بعدها .

لجسد من خلال ذلك البكاء ما أثر قويه - كما قلت - ، تلك المآثر
التي تتشغل في عقولهم ، وصونهم عرضهم ، وبلوغهم المجد ، وسبقهم
إلى العلى :

كربلا لا زلت كربا وبسلا	مالقى عندك آل الصطفى
كم على كربك لما صعدوا	من دم سأل ومن دمع جرى
كم حصان الذيل يروى دمها	خذاها عند قتيل بالظما
تسبح التراب على أعجالها	عن طل تحريميل بالذما
ضجف لفلاة قهقريه	نزلوا فيها على غير قيسري
لم يذوقوا الماء حتى اجتمعوا	بجدي السيف على ورد المردى
نكف الشمس شمسائهم	لا تدانها ضيا وعلسى
وتنوش الوحش من أجسادهم	أرجل السبق وأيمان الندى
ووجوها كالصايح قمين	قمر غاب ونجم قد هوى
غير تهن اللبالى وغندا	جابر الحكم عليهم اليلسى

ويأخذ الشريف الرضى - بعد هذه الأبيات - في مناجاة الحسين
بن على (رض الله عنه) متفتحا بنسبه الشريف :

يا قتيلا قهر الدهر بيه	عمد الدين وأعلام الهوى
قتلوه بعد علم منوهم	أنه خامس أصحاب الكم
وصريحا عالج الموت بيل	شد لحين ولا مسدد ردا
غسلوه بدم الطمئنين وما	كفوه غير بوغاة الثورى

مَرْهَقًا يَدْعُو وَلَا غَوْلَ لَهُ يَا أَبَيسَ رُوحِي جَدِّ مَصْطَفَى
وَيَا أَبَيسَ رَفَعَ اللَّهُ لَهَا عَلَمًا مَابِينَ نِسْوَانِ السُّورَى
أَيُّ جَدِّ وَأَبٍ يَدْعُوهُمْ جَدِّ يَجِدُ أَتَى بِهَا
يَا رَسُولَ اللَّهِ يَا قَاطِلَةَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُرْتَضَى (١)

وهذه الأبيات الأخيرة بما فيها من أنات ألم ، وفترات أسمى وحزن ، لم تكن بكا ، كذلك بقدر ما كانت مثيرا يثير به الشريف الرضى حمية الشيعة يلهب قلوبهم بالثورة على من اغتصبوا "عليها" (كرم الله وجهه) وأبنائه حقهم .

يقول د . شوقي ضيف عن هذه القصيدة : " إن الشريف قد عكس بوصف كلماتها بحيث لا تعلو على أفهام العامة ، ولتكون سالحة ، لكى يردد ها الناحية " (١) . ويحرص الشريف الرضى على أن يتخذ من ذكرى " عاشورا " كل عام مجالا يتغنى فيه بأمجاد قومه ، ويثير حمية الشيعة بهذا التغنى الذى يجمد فيه شيم آل البيت ، وسجاياهم وبأملكوا من مجد ، وحازوا من مؤدد ، وشرف :

يَا بَيْمَ عَاشُورَا كَمْ لَكَ لَوْحَةً تَتَرَقَّى الْأَحْشَاءُ مِنْ إِيْقَادِهَا
مَا عَدَّتْ إِلَّا عَادَ قَلْبِي غَلَّةً حَرَى وَلَوْ بِالْفَتْحِ فِي إِتْرَادِهَا
يَسْلُ السَّلِيمُ ضَيْفَةً أَنْسَا وَهُ خُشُّوا الْعَيْنَ تَعَوَّدَ بِعِدَادِهَا

(١) عصر الدول والإمارات ص ٣٧٤

يا جَدِّ لا زالت كتاب حَسْرَةٍ تَفْشِي الضَّمِيرَ بِكَرِّها وَطَرادِها
 أَبداً عَلَيْكَ وَأَدَمَّ مَسْفُوحَةً إِنَّ لَمْ يَرَوْحِها الْبِكاُ بِغادِها
 هَذَا الثَّنَاُ وَمَا بَلَغَتْ وَإِنَّمَا هِيَ حَلْبَةٌ خَلَعُوا عِذارَ جَوادِها
 أَأَقُولُ جادُكُمْ الرِّيحُ وَأَنْتُمْ فِي كُلِّ مَنْزِلَةٍ مَعَ بِلادِها
 أَمْ أَسْعَيْدُ لَكُمْ عَلا بَدا أَحْسَى أَيْنَ الْجِبَالُ مِنَ النِّسِ وَيُهادِها ؟
 كَيْفَ الثَّنَاُ عَلَى النَّجْمِ إِذَا سَمَتْ فَوْقَ المُنُونِ إِلَى مَدَى أَبْعادِها
 أَغْنَى طُلُوعَ الشَّمْسِ عَنْ أَوصافِها بِجَلالِها وَضِيائِها وَبِعادِها ^(١)

وهكذا لا تأتي هذه الأبيات في البكا - كما قلت - بقدر ما تأتسى
 في التفتيش بجود آل البيت وكرمهم ، وعلاهم ، وسمو منزلتهم ، وعشرف
 نسبهم وهذه كلها من عدد البطولة عند هؤلاء القوم الذين يحس الشريف
 الرضى ببطولة الانتفا بهم .

ويكرر كل " عاشورا " تفتيش الشريف الرضى بجده الحسين بن علي
 (رضى الله عنه) إيماناً في تجسيد إحساسه ببطولة الانتفا إلى هذا
 الجد الذي عاش حياته مناضلاً لرفع رايه الدين موداً نفسه موارد الموت
 مستطيلاً على الأزمان ، حتى لقى به شهيداً في ساحة القتال :

لِلَّهِ مَلَقٌ عَلَى الرِّيحِ عَطَشٌ بِهِ فَمَ الرَّدَى بَيْنَ إِقْدَامِ وَتَحْصِيرِ
 تَحْتَوِ عَلَيْهِ الرِّيحُ ظِلًّا وَتَسْتَرْهُ عَنِ النُّواظِرِ أَدْبَالِ الْأَعْيَيرِ

(١) ديوان الشريف الرضى - المجلد الأول ص ٣٦٤ .

تهايه الوحش أن تدنو لصرعه
 ومورد غمرات الضرب غرته
 وستطيل على الأزمان بقدرها
 أغرى به ابن زياد "لؤم عنصروه
 وود أن يتلاص ما جئت بسده
 تسبي بنات رسول الله بينهم
 وقد أقام ثلاثا غير مقصور
 جرت إليه المنايا بالصاد يسر
 جنى الزمان عليه بالمقاد يسر
 وسعيه "ليزيد" غير مكشور
 وكان ذلك كسرا غير مجبور
 والد ين غنى المبادى غير مستور

ثم يأخذ الشريف الرض بعد هذه الأبيات التي يكي فيها جده
 "الحسين" ، ويثير من خلالها جمية الشيعة ويتغنى بمواقف "الحسين"
 (رض الله عنه) النضالية ، وشجاعة القتالية - يأخذ - نفس
 تجسيد أمجاد جده الشهيد ، وتهديد "بنى أمية" بيوم يقتل فيه
 منهم لذلك الفقيه :

إن يظفر الموت منا بأين منجبة
 يلقن القنا بيمين شان صفحة
 من بعد مائدة أطراف الرمان به
 والنقع يسحب من أذ الله ولسه
 في قبلي شرقي باليدي تحميه
 بني أمية ما الأسوان نائمة
 والبارقات تلوى في مفاهيمها
 إنى لأرقب يوما لاخفاء لسه
 وللصوامر ما شاءت من ههنا
 فطالما عاد ريان الأظانيير
 وقع القنا بين تميم وتغوير
 قلب قسح ورأي غير محصور
 على الفزالة جيب غير مبزور
 برقا تدل على الأكام والقصور
 عن شاهر في أفاض الأرض موزور
 والسابغات تطن في المضامير
 عربان يلق منه كل مفكور
 من الرقاب شراب غير مسكور (١)

(١) ديوان الشريف الرض - المجلد الأول ص ٤٥٨ - ٤٥٩ .

وهكذا تجسد الأبيات بطولة الحسين بن علي (رضي الله عنه) وأبجاده ، و مناقبه ، هذه البطولة ، وتلك الأمجاد التي يحس الشرف الرضي أنها بطولة له فالفقيد جده ، لذلك - وكما قلت آنفا لم يكن رثاء الشرف الرضي لأبيه ولقبه خاصة الحسن بن علي (رضي الله عنه) إلا تغنيا بأبجاده ، وتمدادا للفاخرة والمناقب التي حازها آل البيت الذ بن يحس الشرف الرضي بطولة الانتما إليهم ، تلك البطولة ، وذلك الإحساس اللذان يدعما دعهما إلى التغنى بأبجاده قومه ما استطاع إلى ذلك من سبيل ، ذلك التغنى الذي ينفس الشرف الرضي من ورائه تجسد بطولته الذاتية التي يستشعرها في داخله والتي يكتفها له إحساسه بالانتما إلى قوم شجعان ، أباة ، أعزة طاهرين ، ينتهي بهم تبهمهم إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وإلى " علي " بن أبي طالب (كرم الله وجهه) .

والشرف الرضي حركهم ، يسهه أن يتكرر الدهر له ، ويسهه أيضا أن يسلم مقاده لهذا الدهر ، ويحسد لدهه في مقاومة الزمن ، والحياة مقاومة أعدائه وقتالهم .

لذا نجد الشرف الرضي كلفا بالتغنى بتكرار الدهر له ، وبتمسير أحوال الناس ، وأخلاقهم ، وكلفا - تما لذلك - بالتغنى بمسا وهب من قوة ، وشجاعة ، وصبر ، وجلاد ، في مقاومة الزمن ،

والحياة ، فهذه القوة وتلك الشجاعة ، وهذا الصبر ، وذلك الجلال
من عُدته التي خلقت عنده الاعتماد النفس للإحسان ببطولته
الذاتية بطولية الانتماء إلى أصحاب نسب شريف تجسدت شجاعتهم
وتجلت بأسهم في معاداة الزمن لهم ، ومقاومتهم إياه ، وصبرهم
على مكائده ، والشاعر امتداد لهم في هذه الحياة ، فهو غرض للدهر
كما كان أهله ، وكذلك كل شريف في كل زمان ومكان .

تغنى الشريف الرض - كما قلت - بما أصاب الناس في زمنه
من نفاق ، وخداع ، ورياء ، وتغنى - تبعاً لذلك - بصبره ، وحزمه
وعزمه في مواجهة أولئك الذين تبدلت أخلاقهم :

إِذَا قُلَّ مَالِي قُلَّ صَاحِبِي وَإِنْ نَمَا فَمَنْ لِي مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ أَهْلٌ وَمَرْحَبٌ
غَضِبَ الْمَرْءُ عَزَّ وَالْفَقِيرُ كَانَتْ لَدَى النَّاسِ مَهْنَةُ الْيَلَاطِينِ أَجْرَبُ
تَطَالِبَتْنِي نَفْسِي بِكُلِّ عَظِيمَةٍ أَرَى دُونَهَا جَارِي دَمٍ يَتَصَبَّبُ
وَبَأْمَرِي الدَّلَالُ أَنْ لَا أُطِيعَهَا وَأَعْلَمُ مِنْ طَرَفِ الْعِلْمِ أَيْنَ أَذْهَبُ
إِذَا كَانَ حَيُّ الْمَرْءِ لِلشَّيْءِ ضَيْعَةً فَأَضِيعُ شَيْئاً مَا يَقُولُ الْمُؤَنِّسُ
أَنَا السَّيْفُ إِلَّا أَنِّي فِي مَعَاشِرٍ أَرَى كُلَّ سَيْفٍ فِيهِمْ لَا يَجُورُ
وَلَا عَلَّمْتُ بِالْغَيْبِ إِلَّا طَلْعَةً مِنَ الْحَزْمِ لَا يَخْفَى عَلَيْهَا الْغَيْبُ
أَجْرَبُ مِنْ أَهْوَاءٍ قَبْلَ نَوَاقِيسِهِ فَيُصَدِّقُ مِنْهُ الْقَدْرُ وَالْوَدُّ يَكْذِبُ
تَغْيِيرُ لِي أَخْلَاقِي مَنْ كُنْتُ أَصْطَفَى وَتَغْيِيرُ لِي أَهْلَامِي مَنْ كُنْتُ أَصْحَبُ

فالشريف الرض يرى أن الفتن له من جميع الناس أهل جذبهم إليه

ماله • ولكن الفقير يعتمد على الناس ككل الناس وهذا من نفاق الناس
 وخذاعهم إلا إنه سيف قاطع • وذو نفس عظيمة تتوق دوما إلى المعالي
 ولن يستطيع خداع الناس أن يعتمد على الحق • أو أن يعتمد على الحق
 فإن له من حزمه ما يستطيع أن يستكشف به ستر الغيب • وهكذا يتخذ
 الشريف الرضى من مصائب الزمن له مجالا يجسد من خلاله ما وهب
 من عدد الاستعداد النفس • والإحساس بالطولة الذاتية عنده
 بطولة الانتماء إلى النسب الشريف • والمحدث الكريم • مثلما اتخذ
 من قبل - من حمية موت أحيائه مجالا جسد فيه ذلك • ويكمل
 الشريف الرضى تغنيه بقوته في مواجهة الزمن بأبيات حكيمة يستقى فيها
 حكمته من تجاربه الخاصة • ومعرفة بالناس • والزمن كما يستقيها من
 إحساسه بطولته :

وليس نسيجي أن في القلب لوصة	ولكنني أبكي زمانى وأنسب
وما نافع عند البعيد تقويس	ولا ضايرى عند القريب التجنب
قريب الفقى دون الأنام صدقته	وليس قريبا منه من لا يقرب
وما في نجاد السيف زين لحاميل	ولا الزمن إلا للفق بين يخرب
أخو الحرب من للسيف فيه علامة	وللطعن في جنبه طرق وملعب
وحسب غلام شاهدا بشجاعية	تعيظ العدى أن القنايته تعذب
إلى غاية تجرى الأنام لنحوها	فما في بطيئ مشيه ومقرب
يغر الفقى ما طال من حيل عسره	وترخى النماها برهة ثم تجذب (١)

(١) ديوان الشريف الرضى - المجلد الأول ص ٨٠، ٨١ •

فالأبيات تجسيد لشجاعة الشريف الرضي ، وعزة نفسه ، وإيثاره
وتعففه وكلها من عدد استعداد النفس للإحساس ببطولته - كما
قلت من قبل - وتتردد هذه المعاني ذاتها كثيرا في شعر الشريف
الرضي مما يدل على مقاساته من زمنه ، وصنوده أمام مصائبه ، ونكباته :

إِنْ كَانَ فَقِيرًا الْقَرِيبَ مَبَاعِدُ	أَوْ كَانَ مَالٌ فَالْبَعِيدُ مَقَارِبُ
وَأَرَى الْفَتَى مَطَاعِنًا بِشَرَائِبِهِ	أَعْدَاءَهُ وَالْمَالُ قَوْنٌ غَالِبُ
يَشْكُو تَهْدِي الصَّاحِبَ وَمَا دَرُ	أَنْ يَهْدِيَ الْمَاءُ الرَّمْثَ شَارِبُ
مِنْ أَجْلِ هَذَا النَّاسِ أَبْعَدُ الْهَوَى وَضِيَّتُ أَنْ أَتَى وَمَالِي صَاحِبُ	
وَأَرَى اللَّيَالِي إِنْ غَدَرْنَ فَإِنَّهُ	مُسْنٍ أَصْحَابُ لَنَا وَحِبَائِبُ
الذَّنْبُ لِي أَسَى جَزَعْتُ وَتَوَنَّنْتُ	عَنْ دُمُوعِ الْعَيْنِ وَهِيَ سَوَاكِبُ
دُنْيَا تَفْرُو وَلَا تَسْرُوَذَا السُّورَى	كُلُّ بَجَائِدِهَا وَكُلُّ عَائِبُ
تَلْقَى لَنَا طَرِيقًا فَإِنْ هِيَ أَعْرَضَتْ	تَزَعَتْ وَلَوْ أَنَّ الْجِبَالَ جَوَارِبُ
هَيْبَاتٍ يَأْدُنِيَا بِرَفْقَةٍ صَادِقُ	أَرْجُوهُ فَكَيْفَ إِذَا بَرَّقَ كَاذِبُ
وَالنَّاسُ أَمَا قَانِعٌ أَوْ طَالِبُ	لَا يَنْتَهِي ، أَوْ رَاغِبٌ أَوْ رَاهِبُ
وَإِذَا نَعِمْتُ فَكُلُّ شَيْءٍ مُمَكِّنُ	وَإِذَا شَقِيتُ فَكُلُّ شَيْءٍ عَارِبُ

وهكذا يتحسر الشريف الرضي على ما آل إليه حال الناس في زمنه
وإن دل هذا التحسر منه على شيء فإنما يدل على عزه نفسه ، وإيثاره
وحبه للمجد ، وشغفه به ، وحرصه عليه ما استطاع إلى ذلك سبيلا
وهو يعلم أن الدنيا لن تستطيع أن تجذبه إليها ، أو أن تفرقه وتخدعه
فله من عراقة أصله ، ونبل محتده ما يجعله في حضي منها ، لذا فهو

بتأجيلها مناجاة القادر عليها ، الواقع من نفسه ، والآوى إلى ركن
شديد من أصالة عرف ، وشريف نسب ، وصدق إيمان ويقين :

هَيْهَاتَ يَادُنْيَا وَبِرُّكَ صَادِقٌ أَرْجُو ، فَكَيْفَ إِذَا وَرُّكَ كَذِبٌ

وهو بيت بجسد الشريف الرضي من خلاله عزرة نفسه ، وزهوه
وقناعته ، وترفعه ، وإباءه ، إلى جانب إحساسه ببطولة الانتصاف
إلى نسب شريف ، ومحتد أصيل :

ويخلص الشريف الرضي من تحسره على ما آل إليه حال الناس نفس
زينة ، ذلك التحسر الذي جسده في الأبيات السابقة - يخلص
منه - إلى التغنى بنفسه من جديد حين يواجه أحد الباغين عليه
بحله الذي عرف عنه وكان عدة من عدد إحساسه ببطولته الذاتية ، كما
يتغنى بمزلة نفسه ، وإبائه اللذين يغرضان عليه أن ينأى بنفسه عن كل
مكان يحس أن الضيم ربما يلحق به فيه :

قَدْ قَلَسْتُ لِلْبَاغِي عَلَى وَدَنَةِ	من فضل أخلاص ذري ود وأئيب
أَحْذَرُ مِثْلَ غَضَةِ الرِّجَالِ فَإِنَّهَا	تُدَمِّسُ وَتَقْدِرُ أَنْ يَقُولَ الْعَائِبُ
الْبَيْدَ بِأَيْدِي الْمَطْنِ فَإِنِّي	لِلْقَمِيمِ إِنْ أَسْرَى إِلَيَّ مَجَانِبُ
وَمِجَاهِلُ الْقُلُوبِ أَطْيَبُ مَنَزِلُ	عِنْدِي وَأَوْقَى الْوَاعِدِ بِنَجَائِبِ (١)

(١) ديوان الشريف الرضي - المجلد الأول ص ٨٥ ، ٨٦ .

ويظل الشريف الرضئ يردد هذه المعاني ذاتها ، مركزاً على
تغنيته بنفسه ، التي تختلف عما حولها من أنفاس لأناس عاشوا للمطامع
وأذلهم الرجا في الوقت الذي سمت فيه نفس الشريف الرضئ عن كل
ما يهينها ، أو ما يذلها يدفعها إلى ذلك السوأة عرقها ، وشرف
نسبها :

فَالِإِ وَالْعَامُ عَلَى رِجَالٍ دَعَتْ بِهِمُ الْمَطَامِعُ فَاسْتَجَابُوا
وَلَمْ أَرَ كَالرَّجَاءِ الْيَوْمَ شَيْئًا يَدُلُّ بِهِ الْجَاهِلِيْمُ وَالرَّقَابُ
وَكَانَ الْغَيْبُ لَوْ ذَلُّوا وَنَالُوا فَكَيْفَ إِذَا وَقَدْ ذَلُّوا وَخَابُوا
يُرِيدُونَ الْفَنَى وَالْفَقْرَ خَيْرَ إِذَا مَا الذَّلُّ أَغْيَاهُ الطَّلَابُ
وَبَعْضُ الْعَدَمِ مَأْثَرَةٌ وَفُخْصَرُ وَبَعْضُ الْبَالِ مَنْقَصَةٌ وَعَوَابُ

ثم يتبع الشريف الرضئ هذه الأبيات التي يتحسر فيها على حال
الناس ، ويهدل أخلاقهم في زمنه بأبيات يتفتنون به في القصيدة السابقة
من إياها ، وعزة نفس ، وتأني عن أي مكان يها إلى فيه :

بَنَانِيْسٍ وَالْعَنَانُ إِذَا نَبَتْ سِ رِيسُ أَرْضٍ وَرَحْلِيْسٍ وَالرَّكَابُ
وَسَابِقَةٌ كَأَنَّ السَّرْدَ فِيهَا زَلَالُ الْمَاءِ لَمَعَهُ الْحَبَابُ
مِنَ اللَّائِي بِحَاطِ الْعَيْبِ عَنْهَا إِذَا ثَلُثَتْ لَدَى النَّوْعِ الْعِمَابُ
إِذَا أَدْعَتْ تَجَنَّبَتْ الْمَوَاصِيْسَ مَعَاجِمَهَا وَقَهَقَتْ الْكِمَابُ
وَمُفْرِقَةُ الْقَذَالِ تَمُرُّ رَهْمًا كَمَا عَصَلَتْ عَلَى الْقَاعِ الذَّنَابُ
مَجْلِيَّةٌ تَفُوقُ بِهَا يَدَاهِمَا كَمَا جَلَى لِفَايَةِ الْعُصَابُ

وهدنعه ذلك التفتى بنفسه إلى التعرض لحاسديه ، أولئك
الذين ألقوا به عيوسهم حين لم يجدوا لنفسه الأبهة عيبا :

وَأَيْنَ مَقَامٍ مِثْلِي فِي الْأَعْدَاءِ	مَقَامُ الْبِدْرِ رَتْنِجِيهِ الْكَلَابِ
رَمَوْني بِالْمَيُوبِ مَلْفَقَاتٍ	وَقَدْ عَلِمُوا بِأَنَّ لَا أَمَّابَ
وَأَنَّ لَا تَدْنِسِي الْمَخَارِيزِ	وَأَنَّ لَا يَرْمِيَنَّ التَّكَايِبَ
وَلَمَّا لَمْ يَلَاقُوا فِي عَيْبَا	كَسَوْني مِنْ عَيْبِهِمْ وَعَابُوا (١)

و يستحق الشريف الرض أعدامه كاشفا عوارهم ، متغنيا بما أحقنهم
عليه ، من فضائله وأمجاده ، ويأخذ الشريف الرض قبل تعرضه
لهؤلاء الأعداء الحاقدين ، في التفتى بنفسه إلى جريت الحياة وعرفت بها
واشتد فيها عودها ، وحلت عند الخلفاء محلا كريما ، ونزلت منهم
منزل المحب إليهم وذلك لما ملكت من مجد ، وعز وسؤدد :

فَالآنَ إِذْ نَبَذَ الشَّيْبُ شَبِيحِي	نَبَذَ الْقَذَى وَأَقَامَ بَيْنَ تَأْوِيْدِي
وَفُورَتْ مِنْ بَيْنِ الْقَرِيحِ تَجَارِيحِي	وَعَسَا عَلَى قَمِيصِ السَّيْنِ عُمُودِي
وَلِهَيْبَتِي فِي الصَّغْرِ الْعَلَى مَحْتَوِي	أَطْوَأَتْهَا بِتَيَّامِ الْمَوْلَى سُودِي
وَصَفَّتْ فِي أَيْدِي الْخَلَائِفِ رَاهِنِي	لَهُمْ يَدِي بِوَثَاقِي وَعُقُودِي
وَحَلَلَتْ عِنْدَ هَمِّ مَحَلِّ الْجَنَّةِ	وَنَزَلَتْ مِنْهُمْ نَزْلَ الْمَسْجُودِي

(١) ديوان الشريف الرض - المجلد الأول ، ١٢٥ ، ١٢٦ .

ثم يتبع الشريف ذلك التفتي بنفسه بالتعرض لأعدائه وحاسديه
والمحاملين عليه ، راداً عليهم بغضائهم ، وأما جاده :

ففر المدد ويريد ذم فضائلي	هيهات أليهم فوقك بالجلوس
ههنا فكم أسكت قبلك كاشحاً	بمناقبي وعلى فضل وزيد
بال أربع النصف من متحامل	أو أطلب الإجمال عند حسود ؟
أم كيف يراهم وليس ينتجبي	أترى الرزم تكون غير ولود
فلا نهين إلى المال نهضة	مل الزمان تن بطول قعودي
اجع أملك إن هست بفعلية	وتغاب عن عدل وعن تفنيد
وإذا التفت إلى المواقب بدلت	قلب الجرى بمهجة الرعد يسد

وهكذا تتخلل هذه الأبيات حكمة الشريف الرض ، تلك الحكمة
التي يستقيها الشاعر دائماً من خبرته بالحياة ، وتجربته فيها ، ومعرفته
لها ، وهن حكم يسوقها الشريف متفنناً من خلال لها بهمة ، وفضله
وصبره ، وجلاده ، في سبيل الحفاظ على مجد ورثه ، وعمل
ما استطاع على الحفاظ عليه ، متحملاً في سبيل ذلك ما لم يستطع تحمله
إلا كل من وهب نفساً كبيرة ، وهمة عالية ، وقدرة عظيمة على التحمل
والصبر .

ويؤكد الشريف الرض - كثيراً - على تحسره ما أصاب الناس

(١) ديوان الشريف الرض - المجلد الأول من ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

في زمنه من تبدل في أخلاقهم وبما أصابه به زمنه من خطوب وتكبات
ذلك التحسر الذي يظهر - كما قلت - إياها الشريف الرضي ، وعزة
نفسه ، والذي يتخذه الشريف الرضي بفتح بهذا الإياه ، وذلك المهمة
التي يتردد تغنيه بها كثيرا في أشعاره بوصفها عدة من عدد البطولة في
النفس البشرية أيا كان منح هذه البطولة ، ومهما اختلف طرقها
ومسالكها :

ما للزمان يذود نسي عن مطلبه	و يبريغي عن طار في وتيلادي
بحنوعلى إذا أقيمت كأنس الد	أسرار في أحشا كل بيلادي
عادات هذا الناس ذم مفضل	وملام مقدام وعدل جواد
ولقد عجب ولا عجب أنسه	كل الوري للفاضلين أعادي
وأرى زمان يستلين عريكتي	وأرى عدوي يستجر عنبادي
أظنني ألقى إلهك بدا وما	يحيي وبهتك غير ضرب الهادي
أسمي لكل عظمة فأنا لهبا	عزما يهوت هواجس الحباد
عزما قويا لا يهاور رقبته	للخطيب في الإصدار والإبراد
ما زال يشهد لي إذا استنطقته	بالجود في ليلي لسان زنادي ^(١)

وهكذا يتخذ الشريف الرضي من الحديث عن الزمن مجالا يتغنى
من خلاله بفضله وعدة عن كنهه ، وطلبه لكل عظيم ، وحزبه ، وعزمه
وكرمه ، وكلها عدة الإحساس ببطولته الذاتية - بطولة الانتباه إلى

(١) ديوان الشريف الرضي - المجلد الأول ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ .

النسب الشريف ، والأصل الكريم الذي يأبى على صاحبه إلا أن يكون
صبوراً ، جسوراً في مواجهة الصائب ، والنوازال ، وتقلبات الزمن ، ونكباته
ويتولى الشريف الرض نقابة الأشراف ، ويضيق صدره بها ، وأمورها
وما تتكلفه من التشدد وإقامة الهيئة فيها ، ويلقى الشريف الرض
من قومه وهو نقيب لأشراف ما يسوءه ، فيذكر ذلك متحسراً على ما كان
منهم ، متخذاً من ذلك الموقف مجالا يتغنى من خلاله بنفسه صبوراً
جلدا عزيزاً ، غفاً ، طاهراً ، حليماً ، عفواً :

عَسَتْ يَدِي فِي أَمْرٍ مَنِ لَيْسَ	وَأَيْنَ يَنْزِعُ كَفِّي وَأَنْتَ كَافِي
كَهَانِ أَتَيْتُ حَرْبَ لَقْوِي	وَذَلِكَ لِي مِنَ الضَّرِّ كَافِي
حَطَمْتُ صَعَادَ هَمِّ حَقِّ اسْتَقَامُوا	مَجَازَةً بِهِمْ حَدِّ الثَّقَانِي
فَصَرْتُ لَدَيْهِمْ غُضًّا رَجِيئًا	يُورَامُونِ يَحْتَلِ حَصَّ الْقِذَافِي
وَأَكْذَبُ بِالتَّصَوُّنِ يَدَ عِيٍّ	وَالْجَمُّ تَأْتِيهِمْ بِالْعَفَافِي
وَلَوْ أَنِّي أَطَعْتُ الرُّشْدَ يَوْمًا	لَأَبْدَلْتُ التَّحَامِلَ بِالتَّجَانِي
وَأَعْضَيْتُ اللَّوَاظِظَ عَنْ ذَنْبِي	وَبوضَعَهَا لِعَيْنِي غَيْرَ خَافِي

ثم يكمل الشريف الرض تغنيه بنفسه مقارنا بين أفعاله ، وأفعاله
قومه ، ليجسد فضائله وشيمه وسجاياه ، التي تشهد له بالبطولة التي
يستشعرها في نفسه بإحساسه بالانتماء إلى بيت شريف يحتم على أبنائه
أن يكونوا مثالا للحكم ، والعفو :

أَدَاؤِي دَائِهِمْ فَيَزِيدُ حَبِيثًا وَلَيْسَ لَدَائِي ذِي الْبَغْضَا شَافِي

حَنُوتٌ عَلَيْهِمْ وَلِسَرَّ حَايَ عَلَى جَانٍ وَإِنْ بَعْدَ التَّلَاقِ
فَمَا تَلَّى وَإِنْ جَهَلُوا بِقَسَائِ وَلَا حَلَّى وَإِنْ قَطَعُوا بِهَيَايَ
فَمَا تَغْنَى الْقَوَادِمُ مِنْ جَنَاحِ تَحَامَلُ إِنْ قَعْدَنَ بِهِ الْخَوَافِ (١)

ويظل الشريف الرضى متخذاً من ذلك الموقف الذى وقفه قومه معه حين تولى نقابة الأشراف مجالا - يجسد من خلاله فضائله ، وشماله ويتفتى فيه بحلمه ، وأسه ، وبما نال من مجد وحقق من فخار :

بَنَى عَمَّ وَفَزَّ عَلَى يَمِينِي مِنْ الضَّرَاءِ مَا لَقَيْتَ شَيْئًا لَيْسَ
أَعُوذُ عَلَى عَقُوبَتِكُمْ بِحِلْمِي إِذَا خَطَرَ الْعُقُوقُ لَكُمْ بَيْتًا
أُرْوِي مِنْ يَدِي لَكُمْ مَقَامِي أُرْوِي مَنْ يَقُولُ لَكُمْ مَالِي
وَمَنْ يَحْصِي الْحَرِيمَ مِنَ الْأَعَا وَمَنْ يَخْفَى مِنَ الدَّاءِ الْغَمَامِ
يُشَاهِدُ دُونَكُمْ يَوْمَ النِّبَا وَبَرَّ عَنْكُمْ يَوْمَ النَّصَامِ
سَأُلْغِ بِالْقَلْبِ وَالْبَعْدِ عَنْكُمْ مَا لَغَ لَيْسَ تَبْلُغُ بِالْأَلَامِ
فَمَنْ لَا يَسْتَقِيمُ عَلَى التَّصَافِي جَدُّ بَرٍّ أَنْ يَقُومَ بِالتَّقَالِي
وَأَحْسَبُ أَنْ سَيَنْفَعُنِي انْتِصَارِي إِذَا مَاعَادَ بِالضَّرِّ اخْتِصَالِي
أَكِيدُ أَبْعَدُ أَنْ رَفَعَتْ مَنَارِي وَأُرْسَتْ فِي مَقَاعِدِهَا جَالِي ؟
وَعَدَّ الْمَجْدُ أَطْنَابِي إِلَيْهِ وَدَعَّ عَلَى جَوَانِبِهِ جَالِي
وَتَمَّ عَلَاؤُكُمْ بِمَعْدِنِ نَقْصِي تَمَّ الْحَضْرِيَّةُ بِالْقَرَالِ
وَمَا أَفْضَلِي عَلَى قَوْمِي بِخَايِ كَمَا فَضَّلَ الْقَبِيحَ عَلَى الْإِتْمَالِ

(١) ديوان الشريف الرضى - المجلد الثاني ص ١٥ ، ١٦ .

وَأَيُّ إِنْ لَحِقَتْ أَيْنَ جَلَالًا قَهْذَى النَّارِ مِنْ ذَاكَ الذَّبَالِ
وَأَيْنَ الْقَطْرِ إِلَّا لِلْفَوَادِ وَأَيْنَ التَّوَدُّ إِلَّا لِلْهَوَالِ (١)

وهكذا يطول تغنى الشريف الرض بنفسه ، وبأبيه مجسدا
فضائلهما وشاغلتهما ، متخذا من تدل أخلاق الناس مجالا لهذا
التغنى الذى يظهر فيه إحساس الشريف الرض ببطولته الذاتية ،
بطولة الانتماء إلى بيت كريم ، ونسب شريف يقتض من ينتسب إليه
أن يكون كذلك ، وأن تتوفر فيه عدة الإحساس بتلك البطولة ، وقوماتها
من شجاعة ، وإقدام ، وحماية حس ، وصون عرض ، وامتلاك مجد
وبلوغ علال ، وحياسة فضل ، وفخار ، وجلال ، تظل هذه
المعانى تتردد فى شعر الشريف الرض وهو يتخذ مواقف حساده معه
مجالا للتغنى بها ، وتجسيدها :

يَقْرُبُ عَيْنِي أَنْ أَرَى مَحْسَدًا	فَمَا حَسَدَ الْحَسَادِ غَيْرَ نَبِيلِ
وَمَا صَانَحَتْ يَوْمًا يَدِي يَدَ غَادِرٍ	وَلَا ضَاقَ خُلُقِي عَنْ مَقَامِ نَزِيلِ
وَأُولَ لَيْلٍ لَيْلٍ لَيْلٍ أَصُولِيهِ	وَأُولَ غَدَرٍ الْمَوَدِّ وَخُلُوفِ
عَدُوِّي مِنْ أَوْطَانِ الْعَجْزِ مَرْكَبًا	وَلَكِنْ ظَهَرَ الْعَزَمُ غَيْرَ ذَلُولِ
نَسِيمٍ مِنَ الدُّنْيَا يَطِيبُ لَنَا عِشْقِي	وَأَيَّ أَوَامٍ بَعْدَهُ وَغَلِيلِ
تَنْفِيهِ اللَّيَالِي نَفْثَةَ الظِّلِّ لِلْفَسَقِ	بِنُعْمٍ وَمَا إِنْعَامُهَا بِجَزِيلِ
تَدَاعَتْ لِي الْأَهَامُ حَتَّى رَمَيْتُنِي	بِمَا كُنْتُ أَخْشَى مِنْ لِقَا بَخِيلِ

(١) ديوان الشريف الرض - المجلد الثانى ص ١٧٦ ، ١٧٧ .

وَلَا يَدُّ لِي أَنْ أَغْلِبَ الْعَارَ بِعَدَّةٍ وَيَارَبَّ عَارِ دَامَ غَيْرَ غِيَا هَلْ
يُظَنُّ الْفَتَى أَنْ التَّطَاوُلَ دَائِمٌ وَكُلَّ صُعُودٍ يُخَفِّبُ يَنْكُرُوْ لْ
أَأَرْجُو ذِيَابَ السَّيْفِ ثُمَّ أَخَافُهُ وَأَرْضٌ بِسُخْطِ الْمَجْدِ قَوْلُ عَدْوٍ^(١)

وهكذا تزخر الأبيات بمشاعر المزة ، والإيحاء ، تلك المشاعر التي
جسدها الشريف الرضي من خلال حديثه عن حساده ، والحادق بمن
عليه بدقوعا في ذلك بإحساسه ببطولة الانتقام إلى أصل كريم ، ونسب
شريف ، لا يدانيه أصل حساده العاجزين ، أولئك الذئبين يقتلون الس
أصل للثمن ونسب الشريف . ويتعرض الشريف الرضي لذكر حساده ، وأعدائه
كثيرا - حاطا من قدرهم ، فاضحا عوارهم ، مقابلا بين خطه من قدرهم
والتغنى بنفسه التي لا يمل التغنى بها وهذا شيء طبيعي من رجز
يستشعر البطولة في نفسه :

أَنَا مَنْ عَلِمْتُ وَلَيْسَ يُطْفِئُ سَطَوَتِي غُلُوًا مِنْ يَطْفِئُ إِلَيَّ وَيُجْهِلُ
يُغْفِ الْمَدَى إِذَا غَلَعَتْ وَقَلْبُهُ يَغْلِي عَلَيْهِ مِنَ الضَّغَائِنِ بَوَّجِلُ
وَيَزِيغُنِي عَمَّا أَجْنُ مَفَاتِيحُ لَا وَالْأَوْرَقُ الْمَادَى لَا يَمُكِّنُ لِسْرًا
أَجْلُو عَلَيْهِ نَاجِدِي وَلَوْ اجْتَلَسَ مَا بَيْنَ أَضْلَاعِي آيَاتُ يُلْقِنُ لِسْلَا
فَعَلَامَ أَزْجَرُ بِالْوَعْدِ وَأَجْسَرُ وَالْأَمُّ أَطْلُبُ بِالْدُّخُولِ وَأَطْلُبُ
مَا لِي قَنِعْتُ كَأَنْ لَيْسَ مَهْنَدِي يَهْدِي وَلَا جَدِي النَّيِّ الْمُرْسَلُ^(٢)

(١) الصدر السابق - المجلد الثاني من ١٥٢ .

(٢) ديوان الشريف الرضي - المجلد الثاني من ١٥٥ ، ١٥٦ .

وهكذا يفصح الشرف الرض عن سر بطولته التي يستشعرها في نفسه
بطولة الانتفا إلى بيت النبوة ، ونسب رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

ويبلغ الشرف الرض أن كلاما ما ينكره جرى في دار أحد أسد ثائمه
فكتب إليه يشكو الواشين ، أولئك الذين نالوا منه في غيبته ، ويتخذ
من ذلك الموقف مجالا يتغنى من خلاله بنفسه ، وعرضه ، وشرفه
وكرم أصله ، الذي هو سر بطولته التي يستشعرها في داخله - كما
قلت - :

ما رقص الواشون في ولفقوا	قل لي فيما حاسد أو مشفق
في كل يوم ظهر داري مغربا	لكلامهم وجبين دارك مشرق
والى متى عودي على أيدى بهم	ملقني ينوب دايما ومحرق
كم يسبك الذهب الحصى مرة	قد لاح جوهره وبيان اليريق
يحلو لهم عرض فيستر طونسه	و يحل عرضهم الدليل فييصق
نفضوا عيونهم على وإنما	وجدوا حصا في الأديم فمزقوا (١)

والأبيات - وإن كانت في الواشين من حساد الشرف الرض - إلا
أنها تجسد لشاعر المزة وأحاسيس السيادة والشرف ، والبطولة ،
بطولة الانتفا إلى النسب الشرف الذي يجسده الشرف الرض في
قوليه :

(١) المصدر السابق - المجلد الثاني من ٨٢ ، ٨٣ .

كَمْ يَشَبُّكَ الذَّهَبُ الْخَفِيُّ سِرَّةً قَدْ لَاحَ جَوْهَرُهُ وَبَانَ الرُّيُوتُ

وقوله :

نَفَّضُوا عَيْنَهُمْ عَلَىَّ وَإِنَّمَا وَجَدُوا مَصْحًا فِي الْأَدِيمِ فَمَزَقُوا

وهكذا كان يتخذ الشريف الرضي من شكايته دهره وشكايته الناس في زمنه مجالا يتغنى من خلاله بشيئه ، وسجاياءه ، وما حقق من أمجاد وحاز من فضائل ، ويكاثم تدفعه كلها إلى الإحساس ببطولته الذاتية ، بطولته الانتباه إلى النسب الشريف المتثل في انتباهه لآل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

ويواصل الشريف الرضي الاستغناء في النقاية حتى أغنى منها ، وردت إلى من خطبها ويتخذ الشريف من هذه المناسبة مجالا يشكو فيه دهره لا بفرض الشكوى فحسب بل لينفذ من خلالها إلى ما يقصد من تفنن بنفسه ، وتجسيد لمكارمه :

تَطَاطَ لَهَا ، فَيُوشِكُ أَنْ تَجْلِسَ	وَلِئَلَّكَ الزَّمَانُ إِلَى عَتَايَ
وَلَا تَكُلِ الزَّمَانُ إِلَى عَتَايَ	خَيُّوْكَ بِالْيَدَيْنِ يَحِثُّ شَمْلًا
يَعْرِى الْغَارِبُ الْأَعْلَى وَيُحْدِى	فَقَدْ تَكَ مِنْ زَمَانٍ كُلِّ فَقْدٍ
أَمْثَلِي يُسْتَضَامُ وَمَا تَرَى لِي	إِذَا عَرَضَ الْعِيَانُ بِحَبِّكَ سَلَامَ

فَحَسْبَكَ قَدْ حَمَلْتَ عَلَى مَطْلِقٍ غَاثَكَ حَمْلًا وَشِجَاكَ حَمْلًا (١)

والأبيات برغم ما تحمل من تحسروا ألم ، من فعل الزمن إلا أنها
تحمل أيضا من الاعتزاز بالنفس والتمتع بها أكثر مما تحمل من هذا التحسر
وذلك التألم .

وليلة القهر على الخليفة الطائع كان الشريف الرضي يجالسه فسى
داره ، لكنه استطاع النجاة في الوقت الذي سلبت فيه شباب أكثر القضاة
والأعراف ، وغيرهم ، وامتنعوا ، ويذكر الشريف ذلك في شعر يندم
فيه الزمان ويتقنى - على عادته - بحزبه ، وعزمه :

مَنْ لَنْ يَبْلُغَ عَيْشٍ غَيْرَ فَاخِلَةٍ	تَكْفِي عَنْ قَذَى الدُّنْيَا وَتَكْفِي
أَخًى مِنْ بَاعِ دُنْيَاءٍ وَخُرْفَةٍ	يَصُونُهُ كَانَ عِنْدِي غَيْرَ مَقْبُولٍ
قَالُوا : أَتَنْجِعُ بِالْذُّونِ الْخَسِيسِ	قَنْعَتْ بِالْذُّونِ بَلْ قَنْعَتْ بِالْذُّونِ
إِذَا ظَنَّنَا وَقَدْ رَنَا جَرَى قَسْدَرٍ	يَنْأَزِلُ غَيْرَ مَوْهِمٍ وَمُظَنَّنُونَ
أَعْجَبَ لِمَسَدَةِ نَفْسٍ بَعْدَ مَا يَمُوتُ	مِنْ التَّوَاتُبِ بِالْأَبْكَارِ وَالْمَعُونِ
وَمِنْ نَجَائِي يَوْمَ الدَّارِ حِينَ هَوَى	غَيْرِي وَلَمْ أَخْلُ مِنْ حَزْمٍ يَنْجِيَنِ
مَرَّقَتْ يَشْنَاهَا مَرِيقَ النَّجْمِ مَنَكُورًا	وَقَدْ تَلَا قَتَاصًا رِيحَ الرَّدَى دُونِي
وَكُنْتُ أَوَّلَ طَلَاغٍ تَنْهَبُهَا	وَمِنْ وَرَائِي شَرٌّ غَيْرَ مَا مَمُونِ

(١) ديوان الشريف الرضي - المجلد الثاني ص ٢٤٢ .

والأبيات بيد وفيها تحسر الشريف الرض على تقلب الزمن وتنكسه
للإنسان ، وفيها - إلى جانب ذلك - تغن بحزبه ، وصواب
رأيه ، فبطولة الشريف الرض تأبى عليه أن يخضع للأحزان وأن يستسلم
للأسى ، ويظهر ذلك جليا في ختام هذه القصيدة حين يتغنى بشجاعته
وقوته ، وطمأنه ، وضراجه ، وكأنه يرى في الزمن عدوا لابد من بنازالته
والانتصار عليه :

أَنْ تَهَيَّبَ بِنَ الْبَقَا وَأَتَمَّهَا	فَلَمْ أَبَايَ بِهَا مِنْ لَا يَأْقِيَنِي
تَوَقَّعُوهَا فَقَدْ شَبَّتْ بِوَارِقِهَا	بِعَارِضِ كَصَرِيمِ اللَّيْلِ مَدَّ جَوْنِ
إِذَا عَدَا الْأَقْفُ الْغَرِيْبُ مَخْتَمَرَا	مِنَ الْغَيَارِ قَطَنُوا بَيْنَ وَطَنَيْنِ
لَتَنْظُرَنَّ مُشِجَا فِي أَوَائِلِهَا	يَهَيَّبُ بِنَ النَّعْجِ أَحْيَانَا وَيُبْذِئُنِي
يَأْقِدَامُ غَضْبَانَ كُظْنَهُ ضَعْفَانُكُ	فَمَا لَ يَخْلُطُ بَضْرِيَا بِمَطْمَعُونَ
فَإِنْ أَصَبَ فَمَقَادِيرُ مَعْجَسَرَةٍ	وَإِنْ أَصَبَ فَعَلَى الطَّيْرِ الْمَيَامِينِ (١)

وهكذا يجسد الشريف الرض من خلال هذه الأبيات شجاعته
واقداحه ، وقد رته القتالية في ميادين القتال وكلها من عدد إحساسه
ببطولته الذاتية بطولية الانتماء إلى قوم حملوا أرواحهم على أكفهم فسي
سهل الدين والشرف . وإن كان الشريف الرض قد اختتم هذه الأبيات
ببيت بيد وفيه ضعفه أمام الأقدار ، فمذره في ذلك أنه رأى خليفته
المسلمين نغمه مهينا بعد عز ضعيفا بعد قوة ، ولا تزال صورة ذلك
الخليفة حين قبض عليه ، وخلق ، عالقته بذهن الشاعر لا تهرحه

(١) ديوان الشريف الرض - المجلد الثاني ص ٤٤٦ و ٤٤٨ .

ولا تزال هذه اللحظة ماثلة أمام عينيه .

ولا يزال تنكر الدهر للفاضلين من الناس يؤرق نسيها كالشريف
الرضي ، وإن كان لم يستطع أن يضعفه أمام سطوته ، فكونه يؤرقه شيء ،
أما أن يضعفه وبذلك فهذا شيء آخر ، والشريف الرضي لا يتعثر نفس
أشعاره لدم الدهر ليظهر شكواه وتحسره من ذلك بل كما قلت في أكثر
من موضع — ليتغنى من خلال خوضه لهذه الحوادث ، وتلك التغيرات
بالسجيا الكريمة والخلال الشريفة ، التي حازها وإن كان قد ورت كثيرا
منها من آباءه ، وأجداده ، أولئك الذين يحسن الشريف الرضي ببطولة
الانتساب إليهم ، هذه البطولة التي يجسدها من خلال تغنيه بها وهو
يواجه خطوب الزمن ، ومصائبه :

ومن عجب صدور الحظ	إلى المتعجبين على الخزي
أصف بمن يظير إلى المعالي	وطار بمن يصف إلى الدنايا
تري لهم الزايات أن أباوا	وإن نطقوا رأيت لنا الزايات
غداة هاجر الدنيا وكبد	ولاكيد الفواجير والبايات
وإن ظهورهم لو كان نصف	من الأنعام أول بالولايات
جرت بهم الحظوظ مع القدامى	وأسقطنا الزمان مع الرديات
ففاقوا في المراتب والمعالي	وفقنا في الضرايب والسجايات
لهم عن يالهم نفحات كبد	قراع الدبر زاد عن الخلايات
ذمنا كل مرتجع عطفا	ولم يحطوا بمرتجعوا العطايات
فلولا الله لأرباب قلوب	بقاهر لا يجوز في القضايات (١)

(١) ديوان الشريف الرضي — المجلد الثاني ص ٥٧٨ .

وهكذا ومن خلال شكوى الدهر والناس جسد الشريف الرضى قوته وشجاعته ، وصبره ، وإقدامه وحلمه ، وصفحه وكلها من عسجد الاستعداد النفس ، الإحساس بطولته الذاتية التى يستشعرها فى داخله منذ طفولته ، بطولة الانتماء إلى بيت كريم ، ونسب شريف زانت أصحابه هذه الفكار وتلك المخاللات التى كفلت لهم البطولة ، والسيادة والسؤدد . وإذا كان الشريف الرضى قد واجه مصائب زمنه ، ونكبات دهره ، وتقلب أيامه ، وتبدل أخلاق الناس فيه بصبره وشجاعته ، وعزم وحزم ، فإنه يقف أمام خطب جلل ، وخصية لا يملك لها الإنسان دفعا مهما بلغت به بطولته ، تلك هى قضية الشيب - يقف أمامها - وقد أحس أنه لن يستطيع لها دفعا ، فجسد من خلال الحديث عنها تحسره على ذلك الضعف الذى لا يد له فيه ، وتحسر الشريف الرضى أمام الشيب يعد - فى حقيقة الأمر - بطولة ، لأن إحساسه بطولته هو الذى دفعه إلى هذا التحسر ، ولا يصعب البطل أن يئس أو يتحسر إذا ما واجهته ظروف يدرك أنها أقوى من إرادته الإنسان وعزمته . ومن هنا فإننا لا نعد الشيب شيا به ضعفا ، ولا خورا فى المزيمة ، ولكن ينفى ذلك إحساسه بالبطولة التى عاش يتغنى بها ، بطولة الانتماء إلى النسب الشريف ، بل إننا نرى بكاءه شيا به هذا دليل على تعقله ، وإيمانه وهذه أيضا من عدد الإحساس بطولته .

وإذا كنا نرى الشريف الرضى فى بكائه شيا به يصح ببعض جوانب الضعف فى نفسه ، فالشريف إنسان قبل كل اعتبار ، وهو يحس أنسه

يفارق شيئاً غير هين ، إنه في الحقيقة يفارق قوته وقوته ، ومقومات حياته ، إنه يحس أنه بشيء الذي حل به ينسحب من ميدان الحياة الفسيح ، إلى زاوية ضيقة يقبع فيها بعيداً عن مواجهة الحياة ، وغمر غمارها باقتدار مثلاً عاش خائفاً هذه الغمار ، مقتدراً عليها ، ييكس الشريف الرض شبا به ولكنه يبد ومتأسكاً - إلى حد ما - فشيء الذي زاره لم يخفه لأن شبا به لم يستر عليه فيجزع أن يتم المشيب عليه فهو ممن لا تحيف بهم العيوب :

أَلَا نَ جَوَانِبِي غَمْرُ الْخُطُوبِ	وَأَعْجَلَنِي الزَّمَانُ إِلَى الْمَشِيبِ
وَكَمْ يَقِفُ عَلَى عَجْمِ اللَّهَالِي	وَقَرَعَ الدَّهْرُ جَانِبَ الْكُمُوبِ
نَبَا ظَهَرَ الزَّمَانُ وَكُنْتُ مِنْهُ	عَلَى جَنْبِي مَوْقَعَةٌ رُكُوبِ
وَقَالُوا : الْمَشِيبُ زَارَهُ فَقُلْتُ : أَهْلًا	يَنُورُ ذَوَائِبِ الْفُحْنِ الرُّطُوبِ
وَلَمْ أَكْ قَبْلَ وَسْكَ لِي مُجِيبًا	فَيَعْدُ بِي بِمَلْهَكٍ مِنْ حَبِيبِ
وَلَا سَتَرَ الشَّيَابِ عَلَى عَيْنِي	فَأَجْزَعُ أَنْ يَتَمَّ عَلَى عِيُونِي
وَلَمْ أَنْمِ طُلُوعَكَ بِي لَيْسِي	سِوَى قُرْبِ الطُّلُوعِ إِلَى شُعُوبِ

وعلى الرغم من أن الشريف الرض قد بدأ في هذه الأبيات متأسكاً كما قلت - إلا أنه لم يلبث أن ألم به اليأس ^{ورفع} إلى التشائم :

وَأَعْظَمُ مَا أَلَانِي أَنْ دَهَرِي	يَعِدُّ بِحَاسِنِي لَيْسَ مِنْ دُنُوبِي
أَقُولُ إِذَا ابْتَلَأْتُ أُنْسَ لِنَفْسِي	أَيَا نَفْسٍ أَصِيرِي أَبَدًا وَطُوبِي
دَعَى خَوْفُ الظَّلَامِ كُلَّ أَرْضِي	وَالْهَمَالُ النَّجِيَّةَ وَالنَّجِييبِ
وَجَرَّ ضَوَامِرَ الْأُخْشَاءِ تَجَسَّرِي	كَمَا تَهْوِي الدَّلَالَةُ إِلَى الْقَلْبِيبِ

تَوَسَّعَ فِي الْفِكْرِ مِنَ اللَّغْوِ	مَتَّعَهُ إِلَى الْفَاتَاتِ حَسْبَ
وَلَا إِقْبَالَ لِلرَّجُلِ الْمَهِيْبِ	فَلَيْسَ الْحِظُّ لِلْبَطْلِ الْمَحَامِيْسِ
كَتَبِلَ الرِّزْقَ يُؤْخَذُ مِنْ قَرِيْبِ	وَنِيلَ الرِّزْقَ يُؤْخَذُ مِنْ بَعِيْدِ
كَفَايَةٍ مِنْ أَقَامَ عَنِ الرُّكُوبِ	وَقَايَةً رَاكِبِي خَطَطِ الْمَعَالِيْسِ
عَلَى مَنْوَى مِنَ الْحَدَثَانِ مُوسَى	أَلَيْسَ الدُّهْرُ يَجْمَعُنَا جَمِيْعًا
يَجْرِي مِنْ نَوَائِبِهَا رَغِيْبٌ (١)	كَلَانَا تَضْرِبُ الْأَيَّامُ فَيْسَهُ

وهكذا يدفع اليأس بالشريف الرض إلى أن يقرر أن الناس متساووا
الجزء في هذه الحياة العامل وغير العامل ، الراكب لتحقيق غاياته
والقاعد المتناقل ، الناهض إلى المعالي والمتقاعس عنها ، فهذا وذاك
تصيبهما الأيام بصائبيها ، وهذا وذاك تجمعهما نهاية واحدة ، وهو
مدفوع إلى هذا التحصر بإحساسه ببطولته ، ويتجاوز الشريف الرض
الثلاثين بقليل ، ويرى في رأسه بياضا ، فيخلق وقوته ، وهو يمتنى يومذاك
وبأخذ في التفتي وبكا ، شبابه ، والتفجع عليه ، يقول في ذلك :

لَا يُمَدُّنَ اللَّهُ بِسَرِّ شَيْئَةٍ	أَلْقَيْتُ بِمَنْى وَرَحَّتْ سَلِيْبَا
شَعْرٌ صَحِيحٌ بِهِ الشَّيْبُ غَرَانِقَا	وَالْمَيْشُ بِخَضِرِ الْحَبَابِ رَطِيْبَا
بَعْدَ الثَّلَاثِينَ انْقِرَاضَ شَيْئَةٍ	عَجَبًا أَهْمِيْمْ لَقَدْ رَأَيْتُ عَجِيْبَا
قَدْ كَانَ لِي قَطَطًا يَزِينُ لِمَنْى	شَرَى الثَّنَانُ يَزِينُ الْأَنْبِيَا
فَالْيَمُّ أَطْلَبُ الْهَوَى مُكَلَّفَا	حَصْرًا وَأَلْقَى الْفَانِيَاتِ مَرِيْبَا
إِنَّمَا بَكَتْ عَلَى الشَّيْبِ فَاِنْسَهُ	قَدْ كَانَ عَهْدِي بِالشَّيْبِ قَرِيْبَا

(١) ديوان الشريف الرض - المجلد الأول ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

لو كان يرجع ميت يتفجع وجوى
ولكن حننت إلى "عنى" من بعد ها
وجوى شقت على الشباب جيوسا
فلقد دفنت بها الفداة جيوسا (١)

وهكذا يكن الشريف الرضى شبا به ، كما لو كان يكن إنسانا فارق الحياة ولن يرجع يتفجع وجوى ، ولو كان الميت يرجع يتفجع وجوى لشق الشاعر جيوسه حزنا على شباب راحل ، أملا أن يعود إليه من جديد .

وللشريف الرضى في المناسبة ذاتها ، مناسبة خلق وغرته " بمضى " وقد رأى فيها طاقات من البياض في غير أوانه قوله :

ولم يلبثن غريان اللياليس	نعبقا أن أطرن غراب راسيس
وما زال الزمان بحيف حقيق	نزعت له على ضغي لباسيس
نضا عنى السواد بلا مكرادى	وأعطاني البياض بلا التماسيس
أروع به الظبا وقد أرا نيس	زمولا للغزال إلى الكتاسيس
لمسقط حائل الشعرات عنى	يحد السيف في اليوم الحماسيس
أحب إلى من نومي ردا	كسانيه الشاب وأنى ككاسيس
وأخلق وهو يذكرونى التماسيس	وعود النبع يغمز وهو عاسيس
وددت بأن ما تخفى النواضيس	بدال لى يما جنت النواضيس
ويغضني المشيب إلى لدانيس	وهونى البقا على أنكاسيس
خذوا بأزمى فلقد أرا نيس	قليل ما يلين لكم شماسيس
أليس إلى الثلاثين انتاسيس	ولم أبلغ إلى القليل التواسيس

(١) الصدر السابق - المجلد الأول ص ١٨٠ .

فَمَنْ دَلَّ الْمَشِيبَ عَلَى عَيْذَارِي وَمَا جَرَّ الذُّبُولَ عَلَى غِرَاسِي

وهكذا يتمنى الشريف الرضي أن لو سقط رأسه بحد سيف في يوم قتال ، فذلك أحب إليه من أن ينزع عنه رداء الشهاب . وهو متأثر في ذلك بأبي الطيب المتنبي الذي قال حين ألم به المشيب :

ضَيْفُ أَلَمِ بَرَأْسِي غَيْرُ مُحْتَشِمٍ وَالسَّيْفُ أَحْسَنُ فِعْلًا مِنْهُ بِاللَّحْمِ

فالشريف الرضي يرى - كما يرى المتنبي - أن الموت خير للإنسان من البقاء حتى المشيب - فالمشيب - في نظر الشريف الرضي سوف يخفضه إلى لدائه ، وسوف يحط من قدره بين أهله وأناسه وهذه النظرة من الشريف الرضي تعد بطولية في حد ذاتها ، ويأخذ الشريف الرضي على نفسه العهد بأن يبكي شبابه ما عاش ، وبألا يتمنى عهد ما بقى على قيد الحياة ، فهو لا يبكي شيئاً هيناً ولكن يبكي إحدى عُدَدِ إحساسه ببطولته :

سَأَيْبِي لِلشَّهَابِ بِشَارِدَاتٍ	كَسَادِرَةِ السَّهَامِ عَنِ الْقِيَاسِ
يَعْلَلُ شِدْوَهَا الطَّلَحَ الْمَعْنَى	إِذَا سَقَطَ الْمِصْرُ مِنَ النَّعَاسِ
فَمَنْ يَكُ نَاسِئاً عَهْدًا فَإِنِّي	لِعَهْدِكَ يَا شَيْبَى غَيْرُ نَاسِ
وَكُنْتُ عَلَيْكَ مَعَ طَمَعِي جَزْوَئاً	فَكَيْفَ يَكُونُ وَجْدِي بَعْدَ يَاسِي (١)

(١) ديوان الشريف الرضي - المجلد الأول ص ٥٦١ ، ٥٦٢ .

ويظل الشريف الرضي يبكي شبابه متحصرا عليه ، حزينا أمفيا من
مقدم شيب قد ألم به وهو لا يزال في سن الشباب ، ويذكره شبابه الأخذ
في الرحيل بأهله الراحلين ، فيبكي شبابه ، ثم يخلص من بكائه ، إلى
بكاؤ أولئك الأهل ، ويصوغ ذلك في أبيات تحمل حسرة ، وألما ، وتغيض
أسى ، ولوعة يقول الشريف باكيا شبابه ، متذكرا أيام عزه ، ومؤداه
يوم كان يرقل في أثواب الشباب الغضه :

ولقد أكون من الفوانيس مرة	بأعز منزلة الحبيب الأقرب
أفتادهن بفاحم متخايل	فيريى ويرى لي ويزين بس
وإذا دعوت أجبن غير شواميس	زفت النياق إلى رفا الضمب
فاللوم يلوين الوجوه صايرنا	صد الصحاح عين الطلل الأجرب
وإذا لطفن لهن قال عوانيس	نذب الغضا يربغ ود الرشرب

ثم ينتقل الشريف الرضي بعد هذه الأبيات إلى بكاؤ أهله الراحلين
وقد ذكره رحيل شبابه برحيلهم ، فيبكيهم في أبيات ذاتية تغير أسى
ولوعة ، وقد فجع بهم وهم فروع البجد من ركة ، تقارعت عليهم السنون
فتركتهم شعبا موزقة ، ووسط الشريف بين رحيل الشباب وبيت أهله دليل
على أنه بعد رحيل الشباب موتا ، ولكنه موت غير مباشر :

فلئن فجعت يلهة فينانة	مات الشباب بها ولما يعقب
فلقد فجعت بكل فرع ينادج	من عيص "مذركة" الأعز الأطيب
فوس تقارعت السنون عليهم	فتلن كل فوق كحد المقضب

شعباً مفارقة بطير فضاها
هتف الردى بجمعهم فتابعوا
وردوا وإن بعد هم كظومة
طرق الزمان بكل خطب بعد هم

كالقعب منصدعا ولما يشراب
طلق العطاس بني أبي بني أبي
تمل القوارب عن بلوغ المشرب
فإذا رأيت عجيبة لم أعجب^(١)

وللشريف الرضي في بكا* شياه أبيات ، يجسد من خلالها تحسره
على ذلك الشاب الذي فارقه وهو في السابعة والعشرين من عمره ، وحل^١
به مشيب جعله عرضة لنواجب الأيام ، وخطوب الزمن هذه الخطوب وتلك
النواجب التي ألانت عوده للزمان الكاسر .

قالوا : المشيب لم يعم صباها بالنهس
لودام لن ود الأوائس لم أبسل
لكن شيب الرأس إن بك طالما
وأها على عهد الشباب وطيبه
وأهاله ما كان غير د جنسية
سبع وعشرون اختصن شيبتي
كان المشيب ورا ظل قالص
وأرى المنايا إن رأيت بك شيبه
تعفو إلى ضوء المشيب فتشيد
لو فتدري ذاك الشاب قد يتك

واعقر مراحك للطريق الزائر
يطلوع شيب وبيضاض غداير
عندي فوصل البيض أول غاير
والفخر من ورق الشباب النافر
قلصت صبايتها كظل الطائر
والن عودي للزمان الكاسر
لأخي الصبا وأمام عمر قاصير
جعلتك مربي نيلها المتواتر
وتصل في ليل الشباب الغاير
يسود عيني بل سواد ضائري

(١) المصدر السابق - المجلد الأول - ص (١٨١، ١٨٢)

أَبْيَاضُ رَأْسٍ وَأَسْوَدٌ مَطْلِبٌ صَبْرًا عَلَى حُكْمِ الزَّمَانِ الْجَائِرِ (١)

وهكذا تفتش الحمرّة والكآبة نفس الشريف الرضّ حين يرى المشيب وقد أُمّ به ، فيعلم أنه من اليوم فصاعداً سيكون مرسى لنيل المنايا ، وغرضاً لسهام الخطوب والنكبات ، وهو إحساس شبيه بإحساس البطول إذا ما أحس بدنو هزيمته .

ومن المقطوعات الذاتية للشريف الرضّ في بكاء شبابه مقطوعته التي يقول فيها :

لَجَامٌ لِلْمَشِيبِ شَيْءٌ جَاحِسٌ	وَدَلَّتْ لِي لَأَيَّامٌ وَرَاضَا
أَقْرَبُ إِلَيْهِ وَلَقَدْ أَرَانِي	أَجَادُهُ أَبَاً وَابْتِعَاضَا
تَمَوَّضَتِ الْوَقَارُ مِنَ التَّضَامِي	لَشَدَّ عَلَى الْمَوْحِ بِالِاسْتِعَاضَا
لَوْ عَنِ الْخُدُودِ مِنَ الْفَوَانِي	وَقَطَعَ دُونَ الْحَدَقِ الْبَوَاضَا
فَصَارَ بَيَاضُهُ عِنْدِي مَسْوَدًا	وَكَانَ سَوَادُهُ عِنْدِي بَيَاضًا (٢)

ويمكن الشريف الرضّ شبابه في أبيات يضمنها قصيدة له في الفخر يقول متغنياً وبكياً شبابه :

وَلَيْ الشَّبَابُ وَهَذَا الشَّيْبُ بِطَرْدِهِ يَفْدِي الطَّرِيدَةَ ذَاكَ الطَّارِدُ الْعَجَلُ

(١) ديوان الشريف الرضّ - المجلد الأول ص ٤٧٩ ، ٤٨٠ .
(٢) الصدر السابق - المجلد الأول ص ٥٨٢ .

مَا نَزَلَ الشَّيْبُ فِي رَأْسِي بِمَرْتَحِلٍ عَنِّي وَأَعْلَمُ أَنِّي عَنْهُ مَرْتَحِلٌ
 مِنْ لَمْ يَعْظُهُ بَيَاضُ الشَّعْرِ أَذْرَكَهُ فِي غَرَةِ حَنْفِهِ الْقُدُورُ وَالْأَجَلُ
 مِنْ أَخْطَأَتْهُ سَهَامُ الْمَوْتِ قَهَّدَهُ طَوْلُ الْمَنِينِ فَلَا لَهْوٌ وَلَا جِدْلُ
 وَضَاقَ مِنْ نَفْيِهِ مَا كَانَ مُتَسَعًّا حَقَّ الرَّجَاءُ وَحَقَّ الْعَزْمُ وَالْأَمَلُ (١)

وعلى الرغم من أن الأبيات قد تضمنتها قصيدة جاءت كلها في الفخر
 الذي يتنه الشرف من خلاله على الدنيا كلها بنسبه ، وشرفه ، وحزمه
 وأبيه ، وأمه ، من مثل قوله :

قَوِيَ هَمُّ النَّاسِ لَا جِيلَ سَوَاسِيَةً الْجُودُ عِنْدَ هَمٍّ عَارٍ إِذَا سَاطَلُوا
 أَيْسَ الْوَصْنِ وَأَعْيَ خَيْرٍ وَالْبِدَةِ بَنَتْ الرُّسُولِ الَّذِي مَا بَعْدَهُ رُسُلُ
 وَأَيْنَ قَوْمٍ كَقَوْمٍ إِنْ سَأَلْتَهُمْ سَوَابِقَ الْخَيْلِ فِي يَوْمِ الْوَعْدِ نَزَلُوا
 كَالصَّخْرِ إِنْ حَلَمُوا وَالنَّارِ إِنْ غَشِيُوا وَالْأَمْدَانِ رَكِبُوا وَالْوَهْلِ إِنْ يَذَلُّوا
 الطَّاعِنِينَ مِنَ الْجِبَارِ مَقْتَلَهُ وَالضَّالِّينَ وَذَيْلَ النَّقْعِ مَسْدَلُ
 وَالرَّاكِبِينَ الْمَطَايَا وَالْجِيَادَ مَعَا لَا الْفُكْلَ تَحِيصُهَا يَوْمًا وَلَا الْعَقْلُ
 تَغِيصُ عَيُونَ الْأَعَادِي عَنْ رِيَا جِهَمٍ وَلِلْأُسْنَةِ فَيَهْمُ أَعْيُنَ نَجَجَلُ (٢)

أقول - على الرغم من أن أبيات الشرف الرض التي يبيى من
 خلالها شيا به قد تضمنتها قصيدة في الفخر جاء فيها مثل هذه الأبيات
 السابقة التي تغيب شعورا بالعمة والهنية والضعف إلا أن أبياته في بكاء
 الشباب قد رانت عليها الكتابة ، وتخلل من خلالها اليأس إلى نفس

(١) ديوان الشرف الرض - المجلد الثاني ص ١٢١ .

(٢) الصدر السابق - المجلد الثاني ص ١٨١ ، ١٨٢ .

ذلك الشاعر البطل ، الذي رأى أن شيبه قيد له في حياته
وضيق لمدى رجائه ، وعزبه ، وأمله ولن يحسن ذلك الإحساس إلا من
عاش بطلا كما ، يجد من الشباب عونا ، وعصدا ويرى في الشيب ضياعا
أي ضياع ، ويظل الشريف الرضي يجسد من خلال أشعاره أحزانه
والآلمه ، لشباب ضاع ، وشيب قد حل به :

لَوَّ الشَّيْبَةُ أَنْصَلَ الْأَلْوَانَ	والشَّيْبُ جَلَّ عِثَامَ الْفَتَّانِ
نَهَتْ بَأْعَى الرَّأْسِ بَيْعَاءَ الرَّدَى	وَمِنَ الْمِطْنِ مَنَاطِيتَ الْفَيْطَانِ
الشَّيْبُ أَحْسَنُ غَيْرَ أَنْ غَضَارَةَ	لِلْمُرِّ فِي وَرْقِ الشَّيْبِ الْآبِي
وَكَذَا بَهَامُ النَّاصِرِينَ وَإِنَّمَا	بَسَوَادُهَا تَتَأَمَّلُ الْعَيْنَانِ
لَهْفِي عَلَى زَمَنِ ضَيٍّ وَلَأَنِّي	مِنْ بَعْدِهِ كُلُّ عَلَى الْأَرْمَانِ
أَفْتِنْتُهُ طَاغِيَ الْعَرَامِ كَأَنَّمَا	فِي أُمِّ رَأْسِي تَخُذُ السَّكْرَانِ
يَرْجُو الْفَتَى خُلْسَ الْبَقَا وَإِنَّمَا	جَارَ حَيَاةَ الْعُمُرِ مُخْتَرَةً
مَتَعَرَّضٌ إِمَّا لِلْوَنِّ حَائِثٌ لِيَل	بَيْنَ الدَّوَابِّ أَوْ لِعُمُرٍ فَانٍ (١)

وهكذا يتحسر الشريف الرضي على زمن قد مضى ، وشباب قد رحل
وكان قد أصبح بعد رحيل ذلك الشباب كلاً على الأرمكان .

ويطول بكاء الشريف الرضي وتحسره ، ثم يجد أن لا جدوى من ذلك
الكاء ، فيهدأ قليلاً ، وكأن نظره إلى الحياة قد تغيرت ، فيبدأ نفس

(١) ديوان الشريف الرضي - المجلد الثاني ص ٥١٦ .

مدح الشيب ، اذ يرى أن فيه هداية ، ورشدا ، وكأنه بذلك يهـيـئ
نفسه لتقبل الأمر الذي لا يغرمه :

سـيرى إلى ليل الشبـاب ضلال وشيبي ضياء في السورى وجمال
سواد ولكن البياض سيادة وليل ولكن النهار جلال
وبالمر قبل الشيب إلا مهيب صدق وشيب العارضين مقال
وليس خفاف المر إلا تعلية لمن شاب منه عارر فقال (١)

وهكذا تتغير نظرة الشريف الرضى إلى المشيب ، فيرى أنه ضياء
للمر في حياته ، وسيادة ، وجلال بين أهله ، وذويه ، وبين الناس
كل الناس .

وهذه النظرة إلى الشيب وإن اختلفت - في ظاهرها مع نظرة
الشريف الرضى له قبل ذلك إلا أنها تضيف إلى شخصيته مقومات تضمن
لبطولة الشريف الاستمرارية ، والبقاء ، من ذلك وقاره ، وجلاله
وسيادته ، والشريف الرضى حريص على أن يجسد بطولته من خلال
أشعاره مهما اختلفت مناحس هذه الأعمار ، وأغراضها .

فالشريف الرضى مدفوع في كل أشعاره بإحساسه ببطولة الانتما إلى
بيت كريم ، ونسب شريف يتمثل - كما قلت - في انتسابه إلى بيت النبوة

(١) الحمد والسابق - المجلد الثانى ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

ولعل ما يؤيد ذلك أنه كان في غزله حجازي الهوى ، نجدى
الشاعر ، فلم يتغزل إلا بالحجازيات ، ولم يذكر في غزله إلا تلك البقاع
التي كانت موطننا لأولئك الذين عزيهم الشريف ، وأحس ببطولة الانتصا
إليهم .

ونستطيع القول بأن أشعار الشريف الرض في الغزل ، لم يكن الغزل
فيها حقيقة بل كان ذلك مجالا اتخذته الشريف للتعبير عن حبه لتطبع
الديار ، وتعلقه بها وأهلها ، والا فما معنى أن لا يدبر غزله حول
بغداد ، ورياضها ، وأن لا يشغل باله نساؤها اللائس ملكن قلوب
جل من عاصر الشريف أو سبقه ، واللائس حوين من أسباب الفتنة ما حوين
من رقصة ، وجمال ، وإلحاح بضروب المتعة من رقص ، وطرب ، وغنا ، وغير
ذلك ما يشد كل رجل شغفه الحياة ، وسهرته فتنتها .

إن الشريف الرض قد تأى بنفسه من خلال هذه الأشعار ، عن
بيئة رأى أنها لا تليق بمن كان مثله في أصالة عرفه ، وطيب منيته ، وكسوم
محتده ، فتطلع إلى بيئة أخرى ييشها الواقع نفسه ، وخالف أسواقه
فلم يجد غير تلك البيئة التي تفجرت منها ينابيع إحساسه ببطولته الذاتية
التي يستمدرها ، ببطولة الانتصا إلى قوم أنبتهم تلك البيئة أصالة
الشريف واضحة جليلة من خلال هذه الأشعار التي جسدت إحساسه
ببطولته وإن كانت في ظاهرها تمد غزلا .

أنجد الشريف الرض ليله ، وشم رائحة الشبح فاستطابها ، وهيجت

أشواقه ، وذكرته بمن أحب ، فتغنى بذلك :

ولقد أقول لصاحب نيهته
أو ما سمعت يذوق الأبارق نكهته
فجنى نسيم الشبح من نجد له
آها على نفحات نجد أنهبها
أسقيت بالكأس التي سقيتها
فأوى وقال : أرى بقلبك لسعة
صيف الغرام لفرق من دأبيه
أبتنته كندی وطول تجلدي
أشكو إليه بياض سود مغارقي

فوق الرحالة والمطر رواقسي
خلصت إلى كيد الفقى المقتاتي ؟
حرق الحصى وتحلب الأماسق
رسل الهوى وأدلة الأهواس
أم هل خطبك إلى كف الساقسي ؟
للحب ليس لدائها من راق
إني لأقدم منك في العشاق
وعظيم ما بين من نوى وفراق
ويظل يعجب من سواد الباقي (١)

والشريف الرضي في هذه الأبيات لا يحسن إلى محبوب - كما يفهم من
ظاهر الأبيات بل يحسن إلى هذه الديار التي حمل لها بين جنبيه حبا
جارفا ، لأنها ديار من ينتسب إليهم ، ومن يحسن ببطولة الانتفا لهم .

وإذا كانت الأبيات السابقة قد أنجد فيها الشاعر حقيقة ، ورأت فيها
عيناه رضى نجد ، وخلصت إلى أنفه روائح شيوخها فهبجت فيه كامن
الذكرى حقيقة لا خيالا إلا أن ذكرى هذه البقاع لم تغب عن خاليه و هو
بعيد عن الحقيقة ، والواقع ، إذ طالما زاره طيفها ، وتمثلت له في النوم
بعد وقاد ، حين فصل بينهما بعد مكانى فهو في سواد العراق ، وهذه

(١) ديوان الشريف الرضي - المجلد الثاني من ٧٨ .

البقاع الحبيبة إلى خياله ، الأثيرة لدى نفسه في الحجاز :

يا طيبة البان توى في خياليه لم يهنك اليوم أن القلب موعناك
الما عندك مبدول لشاربيه وليس يرويك إلا مدعين الباكس
هبت لنا من رياح الغور رائحة بعد الرقاد عرفناها برسناك
ثم انتنينا إذا ما هزنا طرب على الشمال تعللنا بذكرالك
أنت النجم لقلبي والعذاب له فما أمرك في قلبي وأهملك

فالشريف الرض في هذه الأبيات يجسد حبه لبقاع تعلقت بها نفسه
وهذا إليها فؤاده فهو يردد ذكرها ، كما يردد الحبيب ذكر من يحسب
فانه يجد راحة نفسية في ترويد أسماء هذه البقاع ، وتلك الأمانة التي
يذكر منها الرض " البان " ، " الغور " و " ذي سلم " و " الجزع " .

والشريف الرض يركز دائما في تغنيه بهذه البقاع على ما تحويه تلك
البقاع من أرواح زكية طيبة ، وهو في هذه الأبيات يجسد ذلك إذ يتغنى
برياح " الغور " تلك التي قد خلصت إلى أنفه وهوائهم " ما يجسد حبه
لهذه البقاع وتعلقه بها ، ذلك الحب الذي يدفعه إلى تلك العالقة
التي يتغذى بها ما ألفه الناس ، وكذلك المحبون .

ويتابع الشريف الرض تغنيه بهذه البقاع ، إذ يضيف إليها " منى " ،
و " تلة " من مشاعر النقاء والصفاء النفس ، ما يجعلنا نستشعر ذلك
الجوالد بن الذي يهفو إليه الشريف ، بوصفه دافعا له في حبه لهذه
البقاع ، وتعلقه بها ما يؤكد أنه إنما يصدر في ذلك الغزل عن إحساسه

ببطولة الانتما* إلى بيت النبوة :

سَقَى مَنَى " ، وَلِيَالِي الْخَيْفَ مَا شَرِبْتَ
إِذْ يَلْتَقَى كُلُّ ذِي دِينٍ وَمَا طَلِبُهُ
كَمَا غَدَا السَّرْبَ بِمَطْوِيٍّ أَرْحَلُنَا
هَامِتِيكَ الْعَيْنُ لَمْ تَتَّبِعْ سَوَاكَ هُوَى
حَقٌّ دَنَا السَّرْبُ مَا أَحْبَبْتَ مِنْ كَسْبِ
يَا حَيْذَا نَقْدَةً مَرَّتْ بِغَيْبِكَ لَنَا
وَحَيْذَا وَقْفَةً وَالرَّكْبَ مَفْتَقِلٌ
لَوْ كَانَتْ اللَّيْمَةُ السُّودَا* مِنْ مَعْدِي

مِنَ الْغَمَامِ وَحَيَاهَا وَحَيَاكَ
مَنَا ، وَيَجْتَمِعُ الْمَشْكُورُ وَالشَّاكِرُ
مَا كَانَ فِيهِ غَيْرُ الْقَلْبِ إِلَّا كَيْ
مَنْ عِلْمُ الْبَيِّنِ أَنَّ الْقَلْبَ بِسَوَاكَ
قَتَلَى هَوَاكَ ، وَلَا نَادَيْتَ أَشْرَاكَ
وَنُطْفَةٍ غِيَمَتْ فِيهَا شَتَاكَ
عَلَى ثَرَى وَخَدَّتْ فِيهِ مَطَاكَ
بِوَمِ الْغَيْمِ لَمَّا أَفْلَتَ أَشْرَاكَ (١)

ويظل الشريف الرضي ذاكرة " مَنَى " حيث التقي بمحبته التي يرمز
بها لأهله فكلما عاد إلى " مَنَى " ، عاد إلى ذكرياته ، وانتفضع
قلبه لهذه الذكرى ، وذلك الحب الذي علق به ، وانطلق يردد لمحبته
وإمام لها ، وإمام على حبها :

أُحِبُّكَ مَا أَقَامَ مَنَى وَجَمْعٌ
وَمَا رَوَعَ الْحَجِيجُ إِلَى الصَّلَاةِ
وَمَا نَحَرُوا بِخَيْفٍ مَنَى وَكَبَرُوا
نَظَرْتُكَ نَظْرَةً بِالْخَيْفِ كَانَتْ

وَمَا أَرَسَ سَكَّةَ أَخْشَاهَا
يَجُودُونَ الْبَيْتَ عَلَى وَجَاهِهَا
عَلَى الْأَذْنَانِ مَشْعُورَةٌ زَاهَا
جَلَا الْعَيْنِ مَنَى بَلْ قَدَاهَا

(١) ديوان الشريف الرضي - المجلد الثاني ص ١٠٧ - ١٠٨

وَلَمْ يَكْ غَيْرُ مَوْقِفِنَا فطَارَتْ بِكُلِّ قَبِيلَةٍ مِنَّا نَسَواَهَا
فَوَاهَا كَيْفَ تَجْمَعُنَا اللَّيَالِي ؟ وَأَها مِنْ تَفَرَّقِنَا وَأَها

ولا يكشف الشريف الرضي بتردد هذه الآهات التي تنبع عن أسى
دفين ، وحزن عميق يتغلغلان في قلبه ، ويخشيان نفسه لبعاده عن
عن أحبائه ، بل راح يقسم لمحبيته بكل شمعة من شمائر الله أنها
مع النفس إن لم تكن هي النفس خالصة =

فَأَقْسِمُ بِالْوُقُوفِ عَلَى " أَلَا لِي " وَبِشَهِدِ الْجَمَارِ مِنْ رِياهَا
وَأَرْكَانِ الْعَتِيقِ وَبِأَنْبِيَاءِهَا وَزَمَنِ وَالْقَلَمِ مِنْ سَفَاهِهَا
لَأَنْتِ النَّفْسُ خَالِصَةٌ فَإِنْ لَمْ تَكُونِيهَا فَأَنْتِ إِذَا مَنَاهَا
نَظَرْتُ بِحُطَيْنِ مَكَّةَ أَمْ خُشَعْتُ تَنُغَمُ وَهِيَ نَاعِدَةٌ طَلَاهَا
وَأَعْجِبْنِي مَلَامِحَ مِنْكَ نِيَّسَهَا فَقُلْتُ أَخَا الْقَوَيْنَةِ أَمْ تَرَاهَا ؟
فَلَوْلَا أَنَّنِي رَجُلٌ حَسْرَامٌ ضَمَمْتُ قَرُونَهَا وَلَشِمْتُ نَاحِيَهَا (١)

ويتردد ذكر " منى " ، ومكة " في أشعار الشريف الرضي كثيرا
فهو يذكرهما كلما ذكر محبته ، أو بالأحرى يذكر محبته ، كلما حل
" بمكة " ، " ومنى " ، فعلى أرضهما التقى بها ، وفي أكتافهما
سعد بلقائهما ، ولا عجب في أن يكثر ذكرهما في شعره .

وفي قصيدة أخرى يذكر الشريف الرضي " مكة " ، ومالغى فيهما من

(١) ديوان الشريف الرضي - المجلد الثاني ص ٥٦٣، ٥٦٤

تبارح الهوى حين علق قلبه بمحبوبة رآها هناك :

عاد الهوى يظيها	سكة للقلوب كما يداها
وخبت عليك متى تها	ريح الغرام وما زهاها
طربا على طرب بها	يا دين قلبك من جواها
إني علقك على يميني	لئلا يقتلني لهاها
راحت مع الزلان قد	لعبت قلبي ما كفاها
ثغني الثواب فمجدني	هذي القريحة من رباها
ترهو على تلك الطبا	فلبت شمري من أباها
وقف الهوى بين يديها	وسرت قلبي مقلتاها
بردت علي كائنات	ظل الغماصة عايشاها
شمس أقبل جدها	يوم النوى وأجل فاهها
وأزود قلبا ظائما	لو قيل : وردك ما عداها
ولو استطاع لقد جرى	مجرى الوشاح على حشاها

ومن هذه الأبيات يظهر حرص الشريف الرضي على تجسيد الغفصة و
ونقاء والتغنى بجميل سمائه ، وحلو صفاته ، وعظيم أخلاقه ، السني
هي من عدد إحسانه ببطولته الذاتية بطولة الانتما إلى أعزاف كال
البيت :

شمس أقبل جدها	يوم النوى وأجل فاهها
وأزود قلبا ظائما	لو قيل : وردك ما عداها

ثم يتذكر الشاعر يوم فراقهما ، فيأخذ في التغنى بذكريات ذلك
الفراق :

يا يوم مفترق الرفا	في ترى تعود لملقاهنا ؟
قالت: صيطرقة الخبا	ل من العقيق علس نواها
فعدى بطيفك مقلعة	ان غيت تطمع في كراهنا
اني شئت من الهوى	جمرا صرنا قياها
يا سرحة بالقاء لسم	يلل بدخير دمس ثراهنا
منوعة لا ظله	يدنو الكس ولا جناها
اذا تدوب عليك	نفس وما بلغت مناها
جسد يقلب للفن	يعدى طيبة سواها
أهن الوجه أجبهنا ؟	وأود لو أني فداها
أحس لها متفقدا	في العايد بين ولا أراها
واها ، ولولا أن يلو	م اللائمون لقلت آها (١)

وهكذا لا يتغنى الشريف إلا بهذه البقاع التي يحوسر على أن يسرد
أسماءها كثيرا في أعماره تلك ، يبدأ بأسماء لمعاده عن هذه البقاع التي
تعلق بها ، وأكن حبها في صدره ، والتي لا تنفك عنه لحظة في صحوه
ونومه ، وإن كان حزنه لا يزال قائما لمعاده عنها ، فها هو ذا يعيد
عنها ومسرح حبها ، ترضه طيبة أخرى سواها ، وهو يعلم

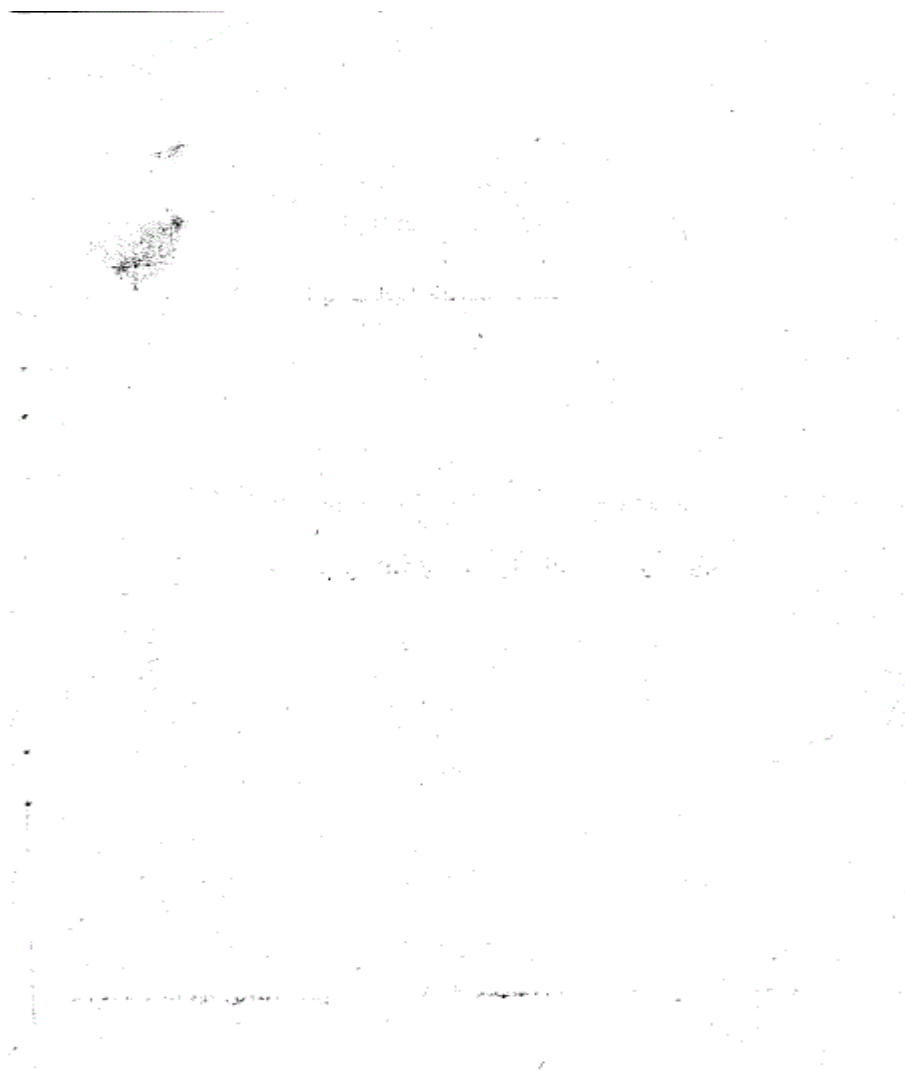
(١) ديوان الشريف الرضي - المجلد الثاني ، ٥٦٦ ، ٥٦٧

أن دواءه هناك في هذه البقاع التي تشده إليها ، وتستحوذ على حبه
لأنها أنجيت من يحس ببطولة الانتها إليهم .

هذه البطولة التي عاش الرض بجسدها حين تغنى بها في كل
أشعاره التي جسدت هذه البطولة من خلال تغنى الشريف الرض بنفسه ،
وأبيه ، وقومه ، وبما وهب من عدد الاستعداد النفس للإحسان
بهذه البطولة ، بطولة الانتها إلى آل البيت ، تلك البطولة التي
استشعرها الشريف الرض - كما رأينا - وهو ابن العاشرة أو ربما
أقل من ذلك ، والتي أضاف إليها من رصيد شخص مميزات كثيرة وأسبابها
عديدة تمثلت في شجاعة ، وقوة ، وشدة بأسه ، وحلمه ، وصفحه ، وعظمه
وكرمه ، وصبره ، وجلاده ، وعفته ، وإيائه ، وصوته لعنوه ، وإن
كانت معظمها موروثه عن أهله ، ولكنه حافظ عليها ، وأضاف إليها
فلم يكن خاملا يعيى على تراث آباءه ، وأجداده ، بل كان مـسـلـا
ما استطاع على المحافظة على هذا التراث الذي كفل له الإحسان ببطولته
الذاتية وعلى أن يضيف إليه ما استطاع إلى ذلك من سبيل .

الباب الثاني

العناصر الفنية في الشعر الذاتي في القرن الرابع



مقدمة :

عند دراستنا للشعر الذاتي في القرن الرابع ، خلال فصول الاستواب
الثلاثة السابقة * استطعنا أن نتبين أن كل شاعر من شعراء ذلك القرن
كانت له ذاتية خاصة فيما يتحدث فيه ، وفيما يتخذه اتجاهها لفكره .

وإذا كان قد ظهر أنه قد ربط بين أكثر من شاعر اتجاه ذاتي عام إلا أنه
كان لكل منهم اتجاه خاص يتفرع عن ذلك الاتجاه الذاتي العام الذي ربط
بينهم .

فالعتبي وأبو فراس الحمداني والشريف الرضي ، ربطت بينهما ذاتية
البطولة ولكن بالمعنى العام لهذه البطولة ، ثم كان لكل واحد منهم
اتجاه خاص يميز بطولته عن بطولة زميله .

وشعراء الانحلال الخلق ربطت بينهما هذه الذاتية بوصفها اتجاهها
عاما ، ثم تفرعت عن ذلك الاتجاه الذاتي العام اتجاهات ذاتية خاصة
تندرج كلها تحت ذلك الاتجاه الذاتي العام ، وإن اختلفت فيما بينهما
اختلافا ظاهريا ، مينا .

وكذلك مثلما حدث مع شعراء القرن الرابع ربطت بينهم ذاتية العقيد
النفسية بوصفها اتجاهها عاما أيضا ثم تفرعت عن ذلك الاتجاه العام اتجاهان
خاصان تمثلان عقدة الشعبية ، والقشيع عند مهيار الديلمي ، وعقدة
الفقر عند الاحنف العكبري شاعر بني ساسان ، أو شاعر المكديين في القرن
الرابع .

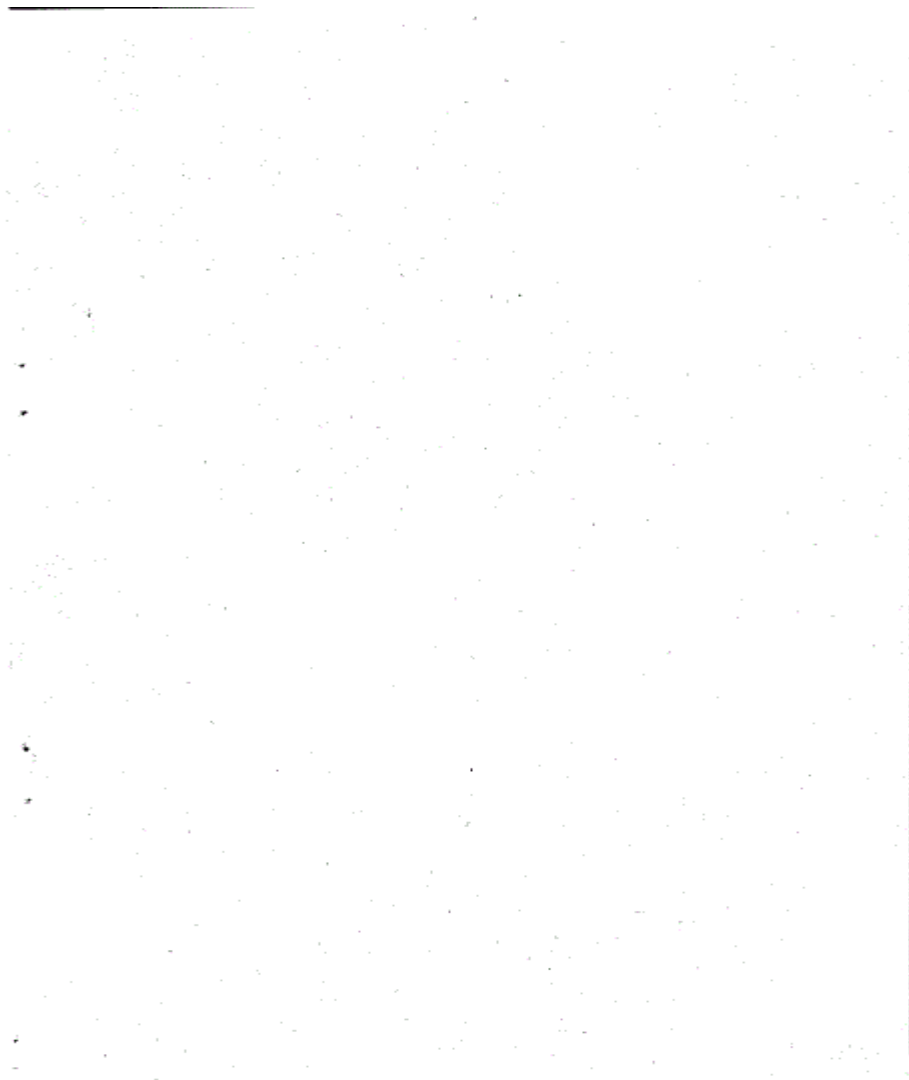
وإذا كنا قد تبيننا ذلك في دراستنا الموضوعية لهذه الاتجاهات الذاتية فإنه من المؤكد أن كل اتجاه ذاتي ميز كل شاعر عن غيره ، ينبغي أن تقترب به ذاتية خاصة في عناصره الفنية ، لأن المضمون والشكل لا ينفصلان فهما نسيج واحد .

وسوف نحاول في هذا الباب استخراج العناصر الفنية المصاحبة لمضمون كل شاعر مع محاولة ملاحظة العناصر المشتركة .

* * * * *

الفصل الأول

بناء الحميدة ولغة الشعر



الفصل الاول

بنسأ القصيدة ولغة الشعر

أولا - بنسأ القصيدة :

حظيت القصيدة العربية القديمة بدراسات متعددة ، من حيث شكلها ونظامها وأقسامها ، ومن الباحثين من خص مقدمة القصيدة العربية بدراسة مستقلة ، فللدكتور / حسين عطوان ، بحث عن مقدمة القصيدة العربية القديمة في الشعر الجاهلي ، يرى فيه أن كثيرا من الشعراء لم يلتزموا النهج الذي حدده ابن قتيبة للقصيدة ^(١) بل منهم من ابتدأ قصائده بوصف الخمر ، والغروسة مثلا ، وأورد الباحث قصائد عديدة مستشهدا بها على ما يقول ^(٢) .

وإذا كنا في هذا المقام ندرس بنسأ قصيدة التعبير عن الذات في القرن الرابع ، فالتنا نرى أن الدعوة على افتتاح القصائد بذكر الاطلاع ، ووصفها واليكأ عليها التي فجرها أبو نواس ورفاقه ، في القرن الثاني الهجري هي أقرب الى القرن الرابع من الشعر الجاهلي ، وأجدي عند دراسة بنسأ قصيدة التعبير عن الذات في هذا القرن .

- (١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ، تحقيق / أحمد محمد شاكر ، ٠٠ دار المعارف بمصر ، ج ١ ، ص ٧٤ : ٧٥ .
(٢) مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي ، د / حسين عطوان ، دار المعارف بمصر " الفصلان الثاني والثالث " .

فشعرا* القرن الثاني ، أولئك الذين بدأوا هذه الثورة * كسان معظمهم من المولدين وهو* لا تربطهم بمعالم الحياة الجاهلية عاطفة ما ، فلماذا يصورون في شعرهم ناحية لا توجد في واقع مجتمعهم السذي يعيشون فيه ، انهم يحيون في حواضر ذات مدنية راقية ، فيها القصور الرائعة ، وفيها الرياض الزاهرة المونقة ، فكيف يتركزون هذه المظاهر التي تقع عليها عيونهم ، ليصفوا أطلالا خربة ودنا باليه ، لعل الكثيرين منهم لم يروها في حياتهم ؟ (١)

وثورة أبي نواس تلك ورفاقه من شعرا* القرن الثاني الهجري مثل مطيع بن اياس ، ومحمد بن أمية ، وأشجع السلمي ، وسلم الخاسر ، وعبد الله بن أبي أمية ، وشار بن برد ، وغيرهم ، لم تكن محازاة للقديم - كما يرى بعض الباحثين (٢) ، بل كانت كما يرى أستاذنا د / هداره ، استغلالا لبدائية قصائد هم في التعبير الحر عن أنفسهم ، ومشاعرهم ، وتساويع حياتهم * (٣)

والحقيقة أن هذا الرأي يعد نظرة جديدة بالوقوف عندها ، لأنها ربط بين المضمون والشكل في غير تعسف ، أو بعد عن الحقيقة .

فأبو نواس حين أستهل قصائده بالشعر ودعا الى ذلك ، لم يكن يدعسو

(١) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، د / محمد مصطفى هداره ، ص ١٠٩ ، ١٥٠ .

(٢) النقد المنهجي عند العرب / محمد مندور ، نشر مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٤٨ م ، ص ٥٩ .

(٣) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، ص ١٥٤ .

الا نفسه ولم يشغله الا التعبير عن خوالج هذه النفس التي لم تفكر فسي
شيء كما فكرت في الخمر ولذات الحياة ، ويخطئ كل من يظن أن ذلك
من أبي نواس كان دعوة لترك نعط سار عليه الا قدمون واستبداله بنعط آخر
وكانه يضع أسما لقانون جامد لا يقيم للنفس ، وشاعرها وزنا .

وما يقال عن أبي نواس يمكن أن يقال عن من عاصروه ، وشاركوه ثورته
على افتتاح القصيدة بيكا* الاطلاع ، وإن اختلفوا فيما بينهم في طرائق
استهلال كل منهم لقصائده ، مما يجسد الذاتية عند كل منهم .

وشعرا* القرن الرابع الهجري ، الذين دهمناهم في الفصول السابقة
من أبواب هذا البحث وإن كان معظمهم من أصل عربي ، وليسوا من
المولدين ، الا أنهم كانوا كشعرا* القرن الثاني الهجري تفصلهم عن حياة
الجاهلية بما فيها من سمات للبداءة مثلات من السنين ، إذ يعيشون في
بيئة مختلفة عن بيئة الجاهليين ، وظروف تتباين مع ظروفهم ، فهم يقيمون
في حواضر ذات مدنية راقية ، تقع أعينهم على قصور حواضرهم ورياضها
الزاهرة ، المؤقتة فمن المستبعد أن ينتشغلوا عن حياتهم التي يحيونها
بحياة عاشها آباؤهم وأجدادهم القدام ، فمتركون وصف ما تقع عليهم
أعينهم ليسفوا ما وصف آباؤهم ، وأجدادهم لا شيء الا لعجزهم تقليد
هولاء* الابرار* والاجداد والمحافظة على تراثهم الشعري .

لذا فانتنا نرى أن شعرا* القرن الرابع الهجري ، قد تأثروا الى حد
بعيد بالسابقين عليهم مباشرة من شعرا* القرنين الثاني والثالث الهجريين
فهم أقرب اليهم كما قلت من شعرا* الجاهلية ، واستغلوا مثلهم - بداية

قصائد هم في التعبير عن أنفسهم ، ومشاعرهم ، ونوازح حياتهم .

فالمعنى مثلاً ذلك الذي عاش حياته يستشعر بطولة النضال في نفسه
فتناضل الزمن ، والناس ، ونوازح النفس البشرية ، يستغل معظم بدايات
قصائد في تجسيد هذا الجانب الذاتي فيه ، جانب البطولة النضالية
أو بطولة النضال - كما أسميناها - .

فهو يستهل - مثلاً - قصيدته الدالية ، التي جاءت كل أبياتها في
تجسيد بطولته الذاتية ، بطولة النضال - كما قلت - والتي كانت سبباً في
اتهامه بادعائه النبوة - يستهلها - بالغزل :

كم قتيل كما قتلت شهيد بياض الطلى يورد الخدود
وعيون المها ولا كميون فتكت بالمقيم المعمود (١)

ويلاحظ في هذا النموذج من نماذج بدايات قصائد أبي الطيب
ما يلي :

* اضربه عن الوقوف بالأطلال .

* أن الغزل في هذه الافتتاحية غزل موظف لخدمة الغرض يظهر ذلك في
قوله (قتيل - قتلت - شهيد - فتكت - المعمود) فكلها تدل على
ما هو فيه من هم وعذاب دفع من أجلهما دفعا إلى النضال الذي اتخذ
دينتاً له في الحياة ، وتجسدت من خلاله بطولته ، يومك ذلك هوئيد .

(١) ديوان أبي الطيب المعتنبي ، بشرح المعبري ، ج ١ ص ٣١٣ : ٣٢٤ .

أن المتنبي يخلص من ذلك الغزل الذي وظفه لخدمة المعنى الذي يريد ه
الى الفخر بنفسه ، والتغنى بما وهب ، وما ملك من سجايا ومكارم :

ما مقامى بأرض تخلصه الا كمقام المسيح بين الميهود
مفرشى صهوة الحصان ، ولكن قميصى مسرودة من حديد
ويظل أبو الطيب متغنيا بنفسه وببطولته التى جعلت قومه يشرفون به :
لابقوى شرفت بل شرفوا بسى ونقى فخرت لا بجسودى
ولا يختمها الا بالغرض نفسه :

أنا نزل الندى وب القوافى وسهام العدا ونهض الحود
أنا فى أمة تداركها الله غريب كصالح فى ثمود

من ذلك يتضح أن أبا الطيب قد استغل بداية قصيدته تلك فى التعبير
عن احساساته ومشاعره وتوازغ نفسه وان جاءت البداية غزلا الا انه كان غزلا
موظفا لخدمة المعنى الذى اراده أبو الطيب ، كذلك جاءت قصيدته
" اللامية " التى نظمها فى صباه أيضا ، مجمدا من خلا لها همة متغنيا
فيها ببطولته الذاتية ، جاءت كذلك فى غرض واحد هو الفخر والتغنى
بالنفس ، وشماظها ، هذه القصيدة التى يمتثلها أبو الطيب بالدخول
الى غرضه مباشرة دون توطئه ، أو تمهيد ، بل يأخذ فى التغنى ببطولته
الذاتية مباشرة :

فقا تريا وقعى فمها تالمخايل ولا تخشيا خلفا لما أنا قائل (١)

فأبو الطيب لم يطلب من صاحبيه الوقوف معه على الاطلاع كما فعل
القدماء ، بل طلب منهما التريث ، والتمهل ، حتى يرياه على حقيقته التى
ظهرت مخايلها مؤكدة عظم شأنه .

ثم يأخذ أبو الطيب يعد هذا البيت الذى استفتح به قصيدته
— يأخذ — فى التغنى بنفسه ، والغرض من شأن حاسديه :

رمانى خساس الناس من صائب استه واخر قطن من يد يه الجناس
ومن جاهل بى وهو يجهل ج بهله ويجهل على أنه بى جاهل
ويجهل أنى مالم الارض معسر وأنى على ظهر السماكين راجل
تحقر عندى همى كل مطلب وقصر فى عيني العدى المتطاول
ويظل أبو الطيب متغنيا بنفسه ، مجسدا مناقبه ، ومفاخره حتى يختتم
قصيدته بقوله :

غفلة عيشى أن تغث كرامتى وليس يغث أن تغث العاكس

وهكذا تأنى هذه القصيدة كلها فى غرض واحد هو الفخر بنفسه والتغنى
بما هلكت هذه النفس من مكارم ، وأجاد ، وما حازت من بطولة ضمنها لها
نضالها المستمر ضد الحياة نفسها . وكذلك كانت قصيدة أبى الطيب
" المعية " التى نظمها فى صباه أيضا ، والتى يتغنى من خلالها

(١) ديوان لابی الطيب المتنبي بشرح العكبرى ج ٣ ص ١٧٤ وما بعدها .

ببطولته ، وجهه للعزة ، والشرف ، والسود ، فقد جاءت كلها فنى
هذا الغرض وان كان أبو الطيب قد استهلها بالحدث عن شبيه الذى
ألم به ، ثم أتبع حديثه عن شبيه بأبيات فى الغزل ، ولكن ذلك كله
لم يكن الا تأكيدا على صلابته وقوته ، وتجسيدا لعزة نفسه وأياشها
يوكد ذلك قوله عن شبيه :

ضيف ألم برأسى غير محتشم ^(١) والسيف أحسن فعلا منه باللم

فأحساس أبو الطيب ببطولته ، وفوته ، وعزة نفسه ونظاله وقدرته على
هذا التفاضل جعله يرى أن الشيب لم " يحتشم " حين ألم بواحد مثله
مما يوكد أنه لم يستهل قصيدته بالحدث عن شبيه الا ليتخذ من ذلك
توطئة للحدث عن نفسه ، والتغنى بها ، الذى يجشده قوله " .

ليس التعلل بالأمال من أرى ولا القناعة بالأقلال من شيعى

وما أظن بنات الدهر تتركى حتى تسد عليها طرقها همى

ويظل أبو الطيب يتغنى بنفسه حتى يبلغ الغاية فى ذلك حين يتناجى
نفسه قائلاً :

ردى حياض الردى يا نفس واتركى حياض خوف الردى للشا* والنعم
ان لم أدرك على الأزماع ساعته فلا دعيت ابن أم المجد والكـرم

(١) ديوان أبى الطيب المتنبي بشرح المكبرى ، ج ٤ ، ص ٢٤٠٠٠
وما بعدها .

وهذا هو منتهى الاصرار على النضال الذى يحسن أبو الطيب أن
بطولته انما تكمن فيه وتتجسد من خلاله ، وهكذا تأتى القصيدة كلها فى
غرض واحد ، فلم يسلك فيها المتنبي سلك القداما^(١) فى بناء قصائدهم
بالانتقال من غرض الى غرض ، وما قيل عن هذه النماذج من شعر أبى
الطيب الذاتى يمكن أن يقال على شعره الذاتى كله فى كل مراحل حياته
وفى جميع بيئاته المختلفة فى بغداد وحلب ومصر وغيرها .

ومثلما سجل أبو الطيب المتنبي أشعاره الذاتية فى قصائد لم ينهج
فيها نهج القداما^(٢) ، ولم يسلك مسلكهم فى بناء قصائدهم ، فكذلك فعل
أبو فراس الحمداني فى أشعاره الذاتية ، حين سجل أعذب قصائده
الذاتية وهو أسير لدى الروم ، فلم ينهج فى بنائها نهج الاقدمين
بل كان يعد مباشرة الى غرضه الاساسى الذى من أجله نظم هذه
القصائد ، وتلمح من ذلك أن الشاعر فى محاولة اثبات ذاتيته مشغول
بها عن سواها فلا يعهد الا نادرا وهذا التمهيد عادة يكون مدخلا
للحديث عن ذاتيته ، كتب أبو فراس من أسيرة الى أمه بعد أن ثقلت عليه
جراحه ، واستبدت به الامة ، وشمس من الخلاص ومن النجاة - كتب الى
امه - فلم يقف على طلل ، ولم يتاج بقايا ديار ، ولم يصف مرتج صبا
بل عمد مباشرة الى تسجيل أحزانه والامة التى أصابته فى أسره ، مدفوعا
فى ذلك كله باحساسه بجرح هزيمته بعد أسره :

صاحب جديله والعززا^(٣) جميل وظفى بأن الله سوف يدبيل^(٤)

(١) ديوان أبى فراس الحمداني ، تحقيق / سامى الدهان ، ج ٢ ، ص
٣١٢ ، وطبعها .

جراح وأسر واشتياق وغربة أحمل انى بعدها لحمل
يظل أبوفراس يدور حول غرضه الاساسى واصفا حاله فى أسره الى
أن يقول :

فيا حسرتى من لى بخل مؤان ق أقول بشجوى تارة وقول ؟
ثم يتحدث الشاعر عن أمه تلك التى خلفها وراثة ، باكىة ، متحسرة
على ما أصابه :

وان وراثة المسترأما بكاء ومها على وان طال الزمان الطويل
ثم يأخذ الشاعر فى خطاب تلك الام البائسة مناشدا اياها أن تتجمل
بالصبر وأن يكون لها فى الصالحات من المومنات قدوة طيبة وأسوة
حسنة ، وهو فى كل هذا انما يصدر عن نفس المما جرح هزيمتها وأسرها
فى يد أعدائها :

فيا أمنا لا تقدمى الصبر انه	الى الخير والنجح القريب رسول
ويا أمنا لا تحبطى الاجر انه	على قدر الصبر الجميل جزيل
ويا أمنا صبرا فكل مسلمة	تجلى على علاتها وتزول
أمالك فى ذات النطاقين أ	سوة بمكة والحرب العوان تجول ؟
أراد ابنها أخذ الامان فلم	تجب وتعلم علما أنه لقتيل
تأسى كفاك الله ما تحذرينه	فقد ظال هذا الناس قبلك غول
وكونى كما كانت بأحد صفيه	ولم يشف منها بالبكاء غليل

ويختتم أبو فراس قصيدته بما بعد امتداد الغرض الذي نظمها
من أجله :

ومن لم يوق الله فهو مصزق ومن لم يعز الله فهو ذليل
ومن لم يرد الله في الأمر كل به فليس لمخلوق إليه سبيل
وهكذا تأتي هذه القصيدة كلها من بدايتها إلى نهايتها - في عرض
واحد ، فلم يكن أبو فراس فيها مقتفيا أثر الجاهليين في بناء قصائدهم
إذ لم تتعدد فيها أغراض الشاعر ، ولم يخرج من غرض ليدخل إلى غرض
ولكنه بدأها وختمها بغرضه الأساسي الذي من أجله نظمها .
ومن قصائد أبي فراس التي كتبها إلى أمه ودارت - كذلك -
حول غرض واحد واستهلها أبو فراس بغرضه مباشرة دون تمهيد أو افتتاح
قصيدته التي يبدأها بقوله :

لولا العجز بمنهج ما خفت أسباب العنت
ولكان لي عما سألت من الغدا نفس ألمية
لكن أردت مرادها ولو اجتذبت إلى الدنيا
وأرى محاماتي عليه بها أن تضام من الحمية
وصف أبو فراس يومئذ أمه ، وحزنها الشديد عليه ، ثم يعود إلى تلك
الأم الجزعة فيوصيها بالصبر ، وعدم اليأس :

يا أمنا لا تيأس لله أطراف خفية

كم حادث عنا جـلـا . وكم كائننا من بليـهـ
أوصيك بالصبر الجمـيـل . سل فانه خير الوصـيـه (١)

وهكذا أيضا تأتي هذه القصيدة كلها في غرض واحد هو بيان ما بلغت به الحال بالشاعر من سوء في أسره ذاك ، وكذلك بيان ما أصاب أمه من جراء ذلك الأسر .

وقصائد أبي فراس التي كتبها إلى سيف الدولة من أسره كقصائده التي كتبها إلى أمه ، تدور كلها حول غرض واحد ، ونجد حزنا لا يصدر إلا عن نفس متألمة متحصرة ، لأنها ذلت بعد عز ، وانكسرت بعد طول انتصار .

وإذا كان أبو فراس قد بدأ بعض قصائده لابن عمه بالفخر بنفسه بطول شجاعته وكما ، فما ذلك إلا تجسيد لبطولة انتصاراته التي ظل يستشعرها حتى بعد أن وقع أسيرا في أيدي الروم إذ لم يفض ذلك الأسار من هذه البطولة ، وإن ترك أثرا من حزن وأسى في نفس أبي فراس ، لأن الذي يستشعر بطولة النصر يحمس أكثر من غيره بما للهزيمة من ألم قاسي مرير

أما لجميل عندك شواب ؟ ولا لمسي عندك شواب ؟
لقد ضل من تحوى هواه خريده وقد ذل من تقضى عليه كعباب
ولكننى سوا الحمد للمحازم أعز إذا ذلت لهن رقاب

(١) أبو فراس الحمداني تحقيق إبراهيم السمرائي ص ١٨٢ وما بعدها .

ولا تملك الحسناء* قلبى كله - وان شعلتها رقة وشباب
وأجرى ولا أعطى الهوى فضل مقودى وأهفو ولا يخفى على صواب (١)

وأبو فراس - كما قلت من قبل - فى محاولة اثبات ذاته مشغول بها
عن سواها ، وفى معظم قصائده لا يلجأ الى التمهيد الا نادرا ، وإذا
حدث ولجأ الى هذا التمهيد فلا يكون التمهيد عنده الا مَدْخَلا
للحديث عن ذاته أيضا ، وذاتية أبو فراس - كما رأينا - يتنازعها
دائما احساسان متضادان ، احساسه ببطولة النصر ، واحساسه بجرح
الهنزية ، لذا فهو فى جميع قصائده التى نظمها بعد أسره يجسد
هذين الاحساسين لا رتباطهما فى نفسه ارتباطا وثيقا ، فيستهل
قصائده هذه معبرا عن هذين الاحساسين ، ويدور فى كل قصائده
حولهما ، من هذه القصائد التى تؤيد هذا الرأى ، وتؤكد قوله
لسيف الدولة :

دعوتك للجنف القريح المسهد لذي وللنوم القليل المشرد
وما ذاك بخلاف الحياة وانها لاول مبدول لاول مجتهدى
وما الاسر ما ضقت ذرعا بحمله وما الخطب ما أن أقول له قد
وما زال عنى أن شخصا معوضا لنبل العدى ان لم يصب فكان قد
ولست أبالى ان ظفرت بمطلب يكون رخيما أم يوم مـزود

(١) ديوان أبو فراس الحمداني ، تحقيق / الدهان ج ٢ ، ص ٢٢ .
وما بقعدها .

ولكننى اختار موت بنى أبى على صهوة الخيل غير موسى
وتابى وأبى أن أموت موسى بأيدى النصارى موت أكمد أكيد (١)

فهذه البداية لتلك القصيدة لا يستغلها أبو فراس إلا فى التعبير عن
احساساته ومشاعره ، هذه الاحساسات التى تكمن - كما قلت - فى
احساسين اثنين هما احساسه ببطولته النصر التى يجدها بذله لنفسه
فى سبيل الشرف والمجد ، وعدم ضيقة بما فيه من أسر واستهانته بالخطوب
وإيمانه بالقضاء والقدر ، وقناعته بما قسم الله له ، وكذلك احساسه بجرح
الهنزعة الذى يجده جفنه القريح ، ونومه القليل ، وخوفه من أن يموت
فيؤسب بأيدى هؤلاء النصارى من أعدائه ، وأعداء الاسلام * .

وإذا كان أبو فراس قد ألتمز فى بناء قصائده الذاتية التى نظمها فى
أسره ، نهجا خالف فيه ما تعارفه الجاهليون فى بناء قصائدهم ، واقترب
فيه من نهج السابقين عليه من شعراء القرن الثانى والثالث الهجرى
حين نظم قصائده تلك فى غرض واحد ، لم يتعد إلى غيره ، فسان
قصائده الذاتية التى نظمها قبل أسره ، قد ألتمز فى بنائها هذا
النهج أيضا إذ جاءت كلها فى القفر بنفسه ، وقومه ، وفى التختى بطائر
ومأثرهم وتجسيد بطولته الذاتية التى يستشعرها فى انتصاراته العديدة
والملاحقة ، ولعل أطول قصيدة جاءت فى الفخر فى الشعر العرسى
كله كانت قصيدته الرائية * وإن استهلها بالغزل فى قوله * .

(١) ديوان أبى فراس الحمدانى ، تحقيق / الدهان ، ج ٢ ، ص ٢٢
وما بعدها .

لعل خيال العامرية زائسر فيسعد مهجور وسعدها جر (١)

فلم يكن ذلك الغزل مقصودا لذاته ، بقدر ما كان توطئه لتجسيد غفة
الشاعر ، وطهارته ونقاته ، وكأنه بداية للفخر وليس غزالا ، يؤكد ذلك
قول أبي فراس بعد الاستفتاحية الغزلية :

فيا نفس مالا تيت من لاجع الهوى وما قلب ما جرت عليك النواظر

وما غفتي مالى ؟ وما لك ؟ كلما همت بأمرهم لى منك زاجرا

كان الحجا والصون والعقل والتقى لى لى لربات الخدود ضارعا

مما يؤكد أن غزله فى بداية هذه القصيدة ، كان غزلا مؤثقا لخدمة
الغرض الذى من أجله أنشأ أبو فراس هذه القصيدة ، وتطول أبيات
القصيدة إذ يبلغ عدد أبياتها مائتين وخمسة وعشرين بيتا ، ولا يخرج
فيها أبو فراس عن غرضه الذى نظمها من أجله ، وهو الفخر بنفسه وقومه
وتعداد مآثر أبيائه ، وأجداده ، وأعمامه ، وذكر أسما أكثرهم والتغنى
بمفاخرهم وتجسيد فضائلهم ، ومكارمهم ، ثم يصل الى ختامها فلا
يختتمها الا بذلك الغرض نفسه ، بالفخر والتغنى بالأمجاد ، والمآثر
والمكارم والفضائل .

نطقت بفضلى وأمتدحت عشيرتى وما أنا مداح ولا أنا شاعر

وهكذا جاءت جميع قصائد أبي فراس الذاتية حول غرض واحد

(١) ديوان أبي فراس الحمداني ، تحقيق / الدهان ، ج ٢ ، ص ١٠٣
وما بعدها .

لا يتعداه الشاعر من خلالها الى غيره ، مما يؤكد أن أبنا فراس قد التزم
 في بناء قصائده الذاتية نهجا يغاير ما تعارفه عليه الجاهلون في بناء
 قصائدهم ، تستوى في ذلك أشعاره في أسرته وأشعاره قبل ذلك الأمر
 وما سقته في هذا الفصل يعد نماذج لأشعاره الذاتية اذ لا يتسع
 المجال للاستشهاد بجميع قصائده الذاتية ، للتدليل على منهجه ذاك
 الذي نهجه في بنائها ، والذي تأثر فيه بنماذج التجديد التي جاء
 بها شعراء القرن الثاني الهجري الذين سبقوه بقرنين من الزمان ثم من
 تلاهم من شعراء القرن الثالث ، وظلما التزم أبو الطيب العتبي وأبو
 فراس الحمداني في بناء قصائدهما الذاتية نهجا ، خالفا فيه نهج
 الجاهليين في بناء قصائدهم وسارا فيه على خطا المجددين في بنائها
 القصيدة من شعراء القرن الثاني الهجري من استلالت بدايات قصائدهم
 في التعبير عن خوالج صدورهم وما يتزعجون اليه فقد التزم كذلك الشريف
 الرضي ذلك النهج نفسه ، فجاءت معظم أشعاره الذاتية في غرض واحد
 لا يتعداه الى غيره ، وإن كان في القليل النادر منها ، يستهلها بالغزل
 ولكنه أيضا الغزل الذي لا يقصد لذاته ، وإنما الذي يتخذ توطئة
 للدخول الى غرضه الذي من أجل نظم القصيدة ، وغالبا ما يكون ذلك
 الغرض هو الفخر ، والتغنى بنسبه الشريف ، وحسبه الشريف ، وتجسيد
 مكارمه ، ومآثره ، ومكارم قومه من آل البيت ومآثرهم ، بدافع من احساسه
 ببطولته الذاتية ، بطولة الانتماء الى آل البيت .

من قصائد الشريف الرضي الذاتية قصيدته " البائية " التي نظمها
 في مدح أبيه ، والفخر بنفسه وذلك الاب ، والتي يستهلها بالفخر

مباشرة دون توطئة أو تمهيد :

لغام العطايا من رضا بك أعذب وثبت الفياثى منك أشهى وأطيب
ومالى عند البهز يا قلب حاجة وعند القنا والخيل والليل مطلب
أحب خليلي الصغين صارم وأطيب دارى الخبا^(١) العطنسب
وظل الشريف الرضى يفخر بنفسه ويتغنى بها وتطول هذه الابيات
التي لا يخرج فيها عن الفخر حتى يختتمها بقوله :

فما أنا بالوانى اذا كت صاريا ولا الما^{*} يعطينى قوى يوم أشرب
وما الورد بعد الورد بلا لغلى وإن بل ظعا^{*} الداعريات مشرب
ثم يدخل بعد هذين البيتين مباشرة الى مدح ابيه ذلك المدح
الذى يعد فى الوقت نفسه فخرا ، فالمدوح أبوه ، وتجسد مفاخر
المدوح ، ومناقبه ، تجسد لمفاخر الشاعر نفسه ، وليس المدوح أباه
الذى يشعر ببطولة الانتما^{*} اليه :

وما لى الى غير الحسين وسيلة وفى جوده دون الرغائب أرغب
جرى^{*} على الامر الذى لا يرويه من القوم الا حازم الراى أغلب
وظل الشريف الرضى مطيلا فى مدحه لابييه ، وفخره بنفسه ، وذلك
الاب حتى تنتهى قصيدته دون أن يخرج فيها عن الغرض الذى أنشأها

(١) ديوان الشريف الرضى ، المجلد الاول ص ٢٩ ، وما بعدها .

من أجله ، والتي اسفل بدايتها في التعبير عن احساسه بطولته الذاتية ، بطولة الانشطة الى قوم لا تجذبهم مع الحياة بقدر ما يتطلعون الى المعالي ، وتكثر مدائح الشريف الرضى لابييه ، وتكثر قصائده في الفخر بنفسه ، و حاله ، وظل في كل هذه القصائد الذاتية ملتزما ذلك النهج الذي يتفق فيه مع شعراء عصره ، ويخالف فيه نهج الجاهليين في بناء قصائدهم .

لشريف الرضى " بائيه " أخرى في مدح أبيه ، والفخر بنفسه يستعملها هي الأخرى بالدخول مباشرة الى غرضه ، فيأخذ - من أول بيت فيها - في الفخر بنفسه :

مشواي اما صهوة أو غارب	ومناي اما ازغف أو قاضب
في كل يوم تنتضي عزمه	وتعد أعتاق الرجا مـارب
قلب يصاد قتي الطلاب جراح	ومن القلوب صادق ووارب
ما مذهبي الا التقم بالقنسا	بين الضلوع وللرجال مـاهب (١)

وتطول هذه الابيات التي يجسد فيها الشريف الرضى بطولته الذاتية وتتغنى من خلالها بهذه البطولة ، وأمعجاده ومفاخره ، ولا يخرج الشاعر عن ذلك الغرض حتى يختتم هذه الابيات بقوله :

البيدا أيدي المعطي فأنني للضميم ان أسرى الى مجانب

(١) ديوان الشريف الرضى ، المجلد الاول ، ص ٨٤ وما بعدها .

ومجاهل الغلوات أطيب منزل عندى وأوفى الواعدين نجائب

ثم يدخل الشريف الرضى بعد ذلك الى مدح أبيه ، الذى يعد امتداد
لتغنيته ببطولته الذاتية بطولية الانتماء الى قوم شرفا منهم ذلك الاب
الشريف :

وإذا بلغن بنى الحسين فانه حق لهن على العطايا واجيب
فى بلدة فيها العيون حوافل والروض غصن والرياح لواعجب
عجب من الايام رؤية مثله نجم العلى اذ كل نجم غارب
أوردته أطراف كل فضيلة شيم تساندها على ومناقب
وله اذا خبثت أصول عدائته فى تربة العليا غرق ضارب

ويطول مدح الشريف الرضى لأبيه ، والتغنى بعائته ذلك الاب وأمجاده
التي هى فى الوقت نفسه لمجاد للشاعر ، وتطول أبيات هذه القصيدة
ولا يخرج الشريف الرضى فيها عن غرضه ذاك الذى نظمها من أجله .

ومدح الشريف الرضى أباه " بهائية ثالثة " فيستهلها كما أمتهل
ما يفتيها - يستهلها - بالفخر بنفسه عفيفا ، نقيا ، قد ودع أيام لهوه
وعشه ، وصحا من سكرة ، وشبابه وهواه :

أراك من مشيى ما أراك وما هذا البياض على عابا
لئن أبغضت منى شيب رأسى فأنى ميغض منك الشبابا
يذم البيض من جزع مشيى ودل البيض أول ما أشابا

وكانت سكرة فصحت منها ها وأنجب من أبى ذاك الشرا ها
 يعيل بى الهوى طربا وأنشأ ها وجذبني الصبا غزلا فأبى
 ومنعنى العفاف كان بيمنى ها وبين مآرى منه هضبا ها (١)
 وأخذ الشريف الرضى بعد فخره بنفسه بالفخر بقومه ، وآله وذويه
 منهم أولئك الذين يحسن الشريف الرضى ببطولة الانتفا ها اليهم .

وطلب كالقواضب من قريش ها يريون القواضب والكعاب ها
 فما ولد الا جارب من تميم ها نظيرهم ولا الشعر الرقاب ها
 وان المجد قد علمت معد ها ودار العز والنسب القرايب ها
 لا طولهم اذا ركبا رماحا ها وأعلام اذا تزلوا ها قبا ها
 وأغزهم اذا سطوا عطا ها وأوحاهم اذا غضبوا ضرابا ها
 بنوع النبي وأقرب ها والصقهم به عرقا لبا ها

ثم يأخذ فى مدح أبيه ، ذلك المدح الذى يعد هو الآخر فخرا ، ،
 وتغنيا بمفاخر ذلك الاب ، وأما جاده ، ، وتطول للابيات القصيدة قليل
 واحدا وستين بيتا لا يخرج الشريف الرضى خلا لها عن الفخر الى غرض آخر
 ولتزم الشريف الرضى ذلك النهج فى بنا ها قصائده الذاتية ، فله الى
 جانب ما سبق قصيدة ، ها فائقة ها نظمها فى الفخر ، والتغنى بمآثره

(١) ديوان الشريف الرضى ، المجلد الاول ص ٩٣ ، وما بعدها .

ومكافئته ، يستعملها بالدخول مباشرة الى غرضه حين يخاطب نفسه ناصحا
ايها بالصبر وحسن التجلد ، وكان قد ضاق صدره بأمر النقابة وما يتكلفه
من التشدد في إقامة الهيبة فيها . :

ردى مر الهود ولا تغافى فما ينأى بيومك أن تغافى
فطورا تعرضين على زلال وطورا تعرضين على ذعاف
ومن يشرب بصف غير رنق يرد يوما برنق غير صاف (١)

ولا يخرج الشريف عن الفخر الى غرض آخر ، ففي الفخر نظم هذه
القصيدة ولم يشغلها فيها سوى التفتن بنفسه ، وتجسيد عزة هذه النفس
واباشها ، وشممها :

يمد تهل الشريف الرضى قصيدة أخرى في الفخر بيكاً الديار :
لعمري من يذى سلم وضال بلين ، وكيف بالد من الجوالى ؟
وقفت بهن لا أصنى لسداع ولا أرجو جواباً عن مسوالى
أيا دار الالى درجت عليها حوايا العزن والحجج الخوالى
فأى حيا بأرضك للفسادى ؟ وأى بلى برعك لليالسى ؟ (٢)
ولكن نظرة متأنية لهذه القصيدة تظهر أن الشريف الرضى - في هذه

(١) ديوان الشريف الرضى ، المجلد الثالث ، ج ١٥ ، وما بعدها .
(٢) ديوان الشريف الرضى ، المجلد الثاني ، ص ١٧٤ وما بعدها .

الابيات - لا يبيى ديارا حقيقة ، وانما يتخذ هذه الديار رمزا لاخلاق
قد تبدلت وتغيرت ، ولعهود قد درست ولبيت وضاعت ، فهو يبيى تبدل
اخلاق قومه ، وتغير احوالهم معه ، حين لقي منهم مالى من عقوب وتكرار
يوهم ذلك قوله بعد هذه الاستفتاحية :

وانى لا اؤامق ثم انسى اذا وامقت يوما لا اقالسى

ثم ياخذ بعد هذا البيت مباشرة فى الفخر بنفسه والتغنى بقومه :

انا ابن الفرع من اعلی " نزار " ومن يزن الاسافل بالاغالى
تعالى كل متعاض ايسى جرى طلق الجموح الى المعالى
من القوم الا الى ملكور قاب الـ اواخر واختلفوا قم الا والسى
ويظل الشريف الرضى متذنيا بنفسه ، ثم يدخل الى عتاب ابنا " عمومه
على عقوبهم اياه وكيد هم له ولكنه لم يخلص من فخره بنفسه فقد جا " عقابه
هذا مختلطا بذلك الفخر ، او جا " موظفا لخدمة ذلك الغرض الذى
يجسد الشريف من خلا له بطولته الذاتية :

بنى عمى وعز على يمينى من الضرا " ما لقيت شمالسى

أعود على عقوبكم بحملسى اذا خطر العقوب لكم ببسال

أروى من يقوم لكم مقامسى أروى من يقول لكم مقالسى

ومن يحى الحريم من الاعادى ومن يشفى من الداء العضال

وهكذا يخلط الشريف الرضى عتابه لابنا " سموته بفخره بنفسه وتذنيه ببسا

وذلك تأتي هذه القصيدة كلها في الفخر ، والتغنى بالمكارم والمفاخر
وأن بدت للوهلة الأولى أنها متعددة الأغراض إذا استهلكت بيكاً الديار
ثم بالفخر ، ثم بالعتاب ، ثم بالعودة إلى الفخر من جديد ، ولكن فسى
حقيقة الامر - لم تكن القصيدة إلا في الفخر الذي يظهر في كل بيت من
أبياتها إذا ما دقق النظر فيها ، وأحسن التأمل لها .

وهكذا دارت قصائد الشريف الرضى الذاتية حول غرض واحد لسم
يتعداه الشاعر إلى غيره ، والتزم فيها الشاعر نهج شعراء القرن الرابع
من أمثال أبي الطيب المتنبي ، وأبي فراس الحمداني ، وغيرهم وما سقته
من أشعاره في هذا الفصل جاء على سبيل المثال لا على سبيل الحصر
فمن العسير أن نستشهد بكل أشعاره الذاتية في هذا المقام .

وإذا كان أبو الطيب المتنبي ، وأبو فراس الحمداني ، والشريف
الرضي ، قد سجلوا أشعارهم الذاتية التي تغنى من خلالها - كل منهم
ببطولته أي كان منحى هذه البطولة عند كل منهم - إذا كانوا قد سجلوا
هذه الأشعار الذاتية في قصائد نهجوا فيها نهجاً خالفوا فيه نهج
الجاهليين في بناء قصائدهم ، واسترشدوا فيه بما سته المجددون من
شعراء القرن الثاني الهجري فلم تتعدد الأغراض عندهم ، بل جاءت
قصائدهم الذاتية هذه في غرض واحد لم يخرج كل منهم في أشعاره عن
هذا الغرض إلى غيره ، فان شعراء المجون والانحلال الخلقي فسى
القرن الرابع قد التزموا هذا النهج نفسه في بناء قصائدهم الذاتية التي
تغنوا من خلالها بملذاتهم ، ولهوهم ، مجسدين قذريهم ، ومجونهم
وعيشهم ، وسكرهم ، فقصائد ابن الحجاج ، وابن سكرة الهاشمي دارت

كلها حول ما يصد من النفس الانسانية لما تحويه هذه الاشعار من قسور
ومجون ، ان دارت قصائد هذين الشاعرين حول هذا الغرض وحسده
استهلته ، وختمته ، وكذلك جاءت قصائد الواساني والواواء حول
غرض واحد جسد عيشهما ولهوهما ، وكذلك كان الخالديان في بنائهما
قصائد هما يلتزمان هذا النهج نفسه ان دارت كل قصائد هما حول حقل المتعة
بأشكالها المختلفة وألوانها المتباينة من خمر ، وسكر ، وغشيان للاديرة
واستمتاع بملذات الحياة لا يابيهان بحلالها أو حرامها ، وكل أشعار
الخالديين دارت حول غرض واحد هو تجسيد فتنتهما بالمتعة — كما قلت
— فلم يخرجوا في قصائد هما عن هذا الغرض الى غيره .

من النماذج الشعرية لابن الحجاج ، التي جسد تصدده التقسري
في أشعاره والتي التزم فيها نهج معاصريه في بناء القصيدة ، حسين
جعلوه في غرض واحد لا تتعداه الى غيره ، وحين عمدوا فيها ومن أولها
الى التعبير عن احساساتهم ومشاعرهم وتواضع نفوسهم ، قصيدته التي عمل
من خلالها دعوة كبيرة في أيام عز الدولة ، ودعا اليها أقواما شتى
من رجال الدولة ، واستهلها بالدخول مباشرة الى غرضه ، حيث يقول :

قل للامير المرتضى	من جاني فقد نجى
ومن أبي قذفتيه	في عصبي قد لججى
يسبح في بحر خرا	إذا جرى تموجى (١)

(١) القصيدة في بنية الدهر للشعالي ، ج ٣ ، ص ٤٩ : ٥٥ .

وهكذا ومن أول القصيدة يصدح القارىء وتتقزز نفسه بتلك الالفاظ المؤذية ، التى تجسد قذارة ابن الحجاج ، وسخفه ، والتى يستمر فى استخدامها حتى نهاية القصيدة مما يؤكد أن القصيدة عند شعراء القرن الرابع لم تكن فى بنائها تقليداً أعمى لنظام وضعت أسسه منذ مشاتل السنين ، بقدر ما كانت قصيدة التعبير عن الذات فى القرن الرابع - ففى بنائها - تعبيراً عما يحسر الشعراء ، وتجسيدا لنوازع نفوسهم المختلفة والمتباينة .

ومن القصائد التى يستهلها ابن الحجاج بالدخول المباشر الى غرضه ويدور من خلالها حول هذا الغرض لا يتعداه الى غيره ، قصيدته التى يصورها فيها لقاها كان له مع امرأة ، ويصرح من خلالها بتلك الافعال المخلة بالاداب ، ومن بداية القصيدة :

جميع مالى صدقة	لا كسوف فستقسه
فمن كم تهذيب يسا	سندية مطلقه
لا بد للسندان أن	يصبر تحت العطرقة
وفيشى لا بد أن	أسبىها فى البوتقة (١)

والنماذج كثيرة وعديدة ، فى شعر ابن الحجاج كلها تؤكد التزامه نهج المعاصرين له فى بناء قصائدهم .

وما يقال عن ابن الحجاج يمكن أن يقال كذلك عن جميع شعراء

(١) يتيمة الدهر للشعالى ، ج ٣ ، ص ٥٨ .

المعجون ، والانحلال الخلقى ، أما كانت مناحى الانحلال الخلقى ففى
أشعارهم ، وإن كانوا جميعاً يؤمنون المقطعات على القصائد الطويلة
لعلامتها لاغراضهم أكثر من القصائد الطويلة ، وسوف نتكلم عن ذلك
بالتحصيل عند تعرضنا لنظام المقطعات فى شعر التعبير عن الذات فى
القرن الرابع .

قصيدة الواسانى فى " ابن أبى أسامة " وعلى الرغم من طولها إذ
بلغت ثلاثين بيتاً يلتزم فيها الشاعر ذلك النهج نفسه فى بنائها - إذ أنه
يدور فيها حول غرض واحد هو تناول عرض واحد من الناس بالهجاء* المقذع
الذى يعد جانباً من جوانب العبث فى شعر الواسانى والقصيدة شأنها
شأن كل شعر ذاتى فى القرن الرابع تجسد نوازع النفس عند الواسانى الذى
استمتع شخصيته بالعبث واللهو . (١)

ذلك وكذلك التزم الخالد بان بآن ذلك النهج نفسه فى بناء قصائدهما
الذاتية التى جسدت اقتنائيهما بالمتعة فى أى شكل من أشكالها وقصائدهما
فى الأديرة تؤكد ذلك إذ أن كلا منهما يستهل هذه القصائد بذكره
الأديرة من أول بيت فيها ويظل طوال القصيدة لا يدور إلا حول ههنا
الغرض نفسه ، يقول الخالدى الأكبر أبو بكر مستهلاً إحدى قصائده تلك :

محاسن الدير تسبيحى ومسباحى وخبرة فى الدجى صبحى ومضاحى
أقمت فيه إلى أن صار هيكله بيتى ومفتاحه للانس مفتاحى (٢)

(١) يتيمة الدهر للشعالى ، ج ١ ، من ص ٤٠٨ : ٤١٠ .

(٢) ديوان الخالدين ، من ص ٣٧ : ٤٠ .

يقول الخالدي الاصغر أبو عثمان مستهلاً قصيدته له في "دير سعيد" :

يا حسن دير سعيد إذ خللت به الأرض والروض في وحي ودياج
فما ترى غننا إلا وزهرته تجلوه في جبه منها ودواج (١)

و مهبّار الذي كذاك قد ألتم ذلك الشهج نفسه في بنا "معظم
قصائد الذاتية ، التي تجسدت من خلالها شعوبيته ، وتشيعه ، فقد
دارت قصائده في الشعبية حول التغني بعو "فارس" وقديم مجدها
وحرس من خلال هذه القصائد على تعداد مفاخر قومه من الفرس ومناقبهم
فجاءت هذه القصائد حول هذا الغرض وحده .

وجاءت كذلك معظم قصائده في التشيع ، إذ سار فيها على نمط
قصائده في الشعبية من حيث بناؤها فدارت كلها حول غرض واحد هو
التشيع لال البيت ، والدفاع عنهم ، وتجسيد ظلم الخفا ، وفي أمية
لهم ، بصرف النظر عن صدق مهبّار أو عدم صدقه في هذا التشيع
فمهبّار في قصيدته "الميمية" التي تجسد شعبيته - إلى حد بعيد -
يستهلها بالفخر بنفسه على أنه فارس الأصل ، ابن لالا عجم ، من أيكه
غريستها "فارس" ثم يأخذ بعد ذلك في التغني ببني ماسان وغيرهم
من ملوك فارس وأكاسرتها ، يستهل مهبّار قصيدته بقوله :

أتعلمين يا بنه الاعاجم كم لايحك في الهوى من لائم ؟
يهيب بلحاه بوجه طليق ينطق عن قلب جسود راغس

(١) ديوان الخالدين ، ص ١١٥ : ١١٦ .

وهو مع المجد ظل سبيليه ما ضما* المشرقى الأصا*رم
ممتلا ما سنه أبساو*ه ان الشبول شبه الفراغ*م (١)

ثم يأخذ مهبأر بعد ذلك فى التغنى " بفارس " وطوكها ، مجسدا
مجدها ، ومزجها ، وسوددها ، وشرقها :

من أيقة غرستها " فارس " الا ن غمزا فرعها لعاج*م
لمن على الارض وكانت غمضة أبنية لا تبغنى لهساد*م ؟
من فرس الباطل بالحقوق*م أرقم للمظلوم أنف الظالم ؟
الا " بنو سامان " أوجدود*م م طربخوا فيهم والقسود*م

ثم يخلط مهبأر فى هذه القصيدة بين شعوبيته ، وتشيعه ، فيأخذ
فى ذم العرب أولئك الذين نقضوا عهود نبهم فظلموا أهل بيته بعد
وفاته .

وان نظرة متأنية الى هذه القصيدة تظهر أن شعوبية مهبأر وتشيعه لم
يكونا سوى وجهين لعملة واحدة هى عقده النفسية التى تكلمنا عنها
فيما مضى ، وأن ذلك الذى أقصمه مهبأر خلال تغنيه بالفرس وأماجدهم
لم يكن الا انتدادا لذلك التغنى بأماجد الفرس ، ومفاخرهم ، إذ أن
مهبأر يريد بذلك أن يقارن بين العصر العربى ، والعصر الفارسى
فى المحافظة على العهود ، والوفاء بها ، ليظهر مدى خداع العرب

(١) ديوان مهبأر الديلى ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ وما بعدها .

وخيا نتمهم في الوقت الذي يظهر فيه قومه محافظين على عهودهم أو ثيابا
بها ، لا يخذعون ، ولا يخونون ، ويتجلى ذلك في قول مهيبار بعد تعرضه
بالعرب " .

" والغرس " لما علقوا بدنيته لم تنل العزوة كف فاصم
فمن اذا أجدر أن يملكها موقوفة على النعيم الدائم
وهكذا يظهر أن هذه القصيدة لم تكن إلا في غرض واحد هو تعجيد
الغرس والفخر بهم ، والتعنى بأمجادهم ، وتجسيد مناقبهم ومفاخرهم
حتى وإن بدا للنظرة العجلى أنها جاءت في أكثر من غرض .
كذلك جاءت قصيدة مهيبار " الباشية " التي يفخر فيها بنفسه ، فارسي
الأصل مسلم الديانة ، والتي يقول في مستهلها :

أعجبتني بين نادى قومها أم سعد فمضت تسأل بسى
سرها ما علمت من خلقسى فأرادت علمها ما حسسى
لا تخالى نمبا يخفضنى أنا من يرضيك عند النصب

ثم يأخذ مهيبار في التعنى بقومه وما حازوا ، وأبى " كبرى " وما
ملك ، ويختتمها بالفخر نفسه ، مدفوعا بعقدته النفسية التي جسدتها
معظم أشعار مهيبار :

قد قمعت المجددين خير أب وقمعت الدين من خير شى

وضعت الفخر من أطرافه سوّد الفرس ودين العرب (١)

وهكذا يلتزم مهيّار في هذه القصيدة ذلك النهج الذي سار عليه من جددوا في نظام بيتا القصيدة ، منذ القرن الثاني الهجري ، وثاروا على نظامها القديم وتعدد الأغراض فيها ، وكذلك تأتي قصيدة مهيّار الذاتية " الفوتية " التي نظمها في ذم الزمان وشكا فيها فقد قومه ، وبكى من خلا لها ملك فارس الضائع ، وتنغى فيها بمجد الفرس القديم - تأت هذه القصيدة كذلك - في غرض واحد ، لا يتعداه مهيّار الى غيره ، يستهلها مهيّار بهذا الغرض ، ويختتمها به كذلك ، يقول مهيّار في مستهل هذه القصيدة :

ان تسألني بعد قـو في كيف أوجدني الزمان
وقيت من بعد الجمـا ح ومقودي سلسليمان
فردا يزعمني الاسـى وشل جانبي الهـوان (٢)

ثم يأخذ مهيّار في ذم الزمان وشكوى الدهر ، وتجسيد مفاخر قومه ومناقبهم ، وتطول هذه القصيدة فلا يخرج مهيّار فيها عن الغرض الذي بدأها به والذي نظمها من أجله حتى يصل الى ختامها فيختتمها بالغرض نفسه :

(١) ديوان مهيّار الديلمي ، ج ١ ، ص ٦٤ .
(٢) ديوان مهيّار الديلمي ، ج ٤ ، ص ٤١ وما بعده .

ان تذكرى قومي فعنـــــــ
وسلى النجابة كيف كنـــــــ

سدك من بقتهم بيـــــان
ست لتعلمى بي كيف كانوا

وجملة " كيف كانوا " التى يختتم بها مهبّار قصيدته توضح أنه لم يكن
فى مجال فخر بقدر ما كان فى مجال أسى ، ومقام حسرة على عز ضاع ، ومجد
درس ، مما يؤكد أن القصيدة كلها قد جاءت فى الشكوى ، ودم الزمان
وأن مهبّارا لم يخرج عن ذلك الغرض حتى وإن بدأ فيها بحضرا لفخر ، فلم
يكن ذلك الفخر إلا تأكيداً للحسرة ، ولألم على فقد من كانوا أصحاب
عز ، وأرباب مجد وسلطان ، مما يؤكد عقدة نفسه التى سببها له ضياع
هبة الفرس بعد ضياع ملكهم .

وبذلك يظهر أن مهبّارا قد ألتمز نهج معاصرية ، وغيرهم من شعراء
القرن الرابع فى بناء قصائدهم الذاتية حين جاءت فى غرض واحد ، لم
يتعداه هو لا الشعراء الى غيره .

الا لأن هناك أشعارا ذاتية لمهبّار تضمنتها مدائحه بوجه خاص تلك
المدائح التى نظمها فى بنى جنسه من الفرس ، ولم ينهج مهبّار نفسى
مدائحه خاصة ذلك النهج الذى سار عليه المجددون من شعراء القرن
الثانى ، وكذلك معاصروه وغيرهم من شعراء القرن الرابع ، بل راح نفسى
مدائحه ينهج نهج الجاهليين فى بناء قصائدهم الى حد ما - على
الرغم من أن ذلك مخالف لرأى المجددين الذين كانوا فى معظمهم من
المولدين الفرس كابى نواس وغيره ممن ثابروا على للنهج القديم فى بناء
القصيدة - كما أوضحت فى بداية هذا الفصل - مما جعلنا نتوقف أمام هذه

التماذج من مدائح مهبّار للفارس التي يستهل معظمها ذلك الاستهلال القديم ، وهو الفارسي الذي لا تربطه بمعالم الحياة العربية عاطفة مما يثير شكوكنا في التزام مهبّار لذلك النهج في قصائده في المديح ، إذ يتضح من بعض بكائياته للديار في بدايات قصائده أنه يسخر ممن سنوا هذه السنة ، إذ يحس القارى في هذه الافتتاحيات روحاً ساخرة يتكشف معها أن مهبّار لم يكن صادقاً في افتتاحيات بعض قصائده في المديح .

فهو يستهل معظم هذه المدائح بالوقوف على الديار ، أو بالفرزل أو بوصف الاطمعان ، ثم يخلص من هذه المقدمات الى الفخر بنفسه وقومه والتغنى بأماجده ، وأماجاد قومه ، ثم يأخذ بعد ذلك في مديح ومدحيه أو أن يسبق - أحياناً مدحيه لمدحيه - فخره بنفسه ، وقومه .

وفي رأي - كما قلت - أن التزام مهبّار لذلك النهج في مدائحه ، لم يكن الا سخرية من ذلك كان عليه المتقدمون من شعراء العرب ، حين كانوا يعدحون فيستهلون مدائحهم بالوقوف على الاطلال ، ومناجاتها ثم ينتقلون من ذلك الى وصف الناقة ، صلابتها ، والرحلة ومشقاتها والطريق وأهوالها ، الى أن يصلوا الى المديح وقد أقتعوا المدح بما لا تقا في سبيل الوصول اليه ، فيكون ذلك حثاً له على العطاء ، وسخرية مهبّار هذه تؤكد عقدة نفسه ، تلك التي عاصر حياته ، يعاني منها ، والتي تحدث عنها في الباب السابق من هذا البحث ، لان القدامى اذا كانوا يعدحون بالديار ، وصفون الناقة ، والرحلة والطريق ، فهم يسجلون حقائق عاشوها ، وفرضتها عليهم ظروف حياتهم ، أما مهبّار فأين هو من الاطلال والاطمعان ، والرحلة والصحراء وأهوالها .

والرجوع الى قصائد مهيار في المديح التي تضمنت أبياتا ذاتية
يتضح التزامه - الى حد ما - لنهج القداما في بناء قصائدهم ، ذلك
الالتزام الذي لم يكن من مهيار سوى سخيرة من الجاهليين الذين هم
أجداد للعنصر العربي الذي يخضه مهيار مما يؤكد هذه السخيرة التي
تظهر جليلة في هذا المطلع من قصيدة يمدح بها أبا سعد بن محمد بن
الصاحب بن عبد الرحيم :

سلمت وما الديار بسالمات على عنث البلى يادار * هد (١)

ومستطرد مهيار - على عادة القداما - في مناجاة ديار هذه العجوبة
ثم يخلص الى مديح ممدوحه :

فتى عقدت تماثله فطيمما على أكرومه يوقا * عقد

ويستمر في مديح ذلك الممدوح ، وإله الذين يجمعهم والشاعر نفسه
واحد ، ثم يختتم قصيدته بالدخول الممدوح ، ونفسه :

فضلتم سوؤدا وفضلت قولاً فكل في مداه بغير نـد

بكم ختم الندى في القوافي بقتم وحدكم وقيت وحـدى

هكذا ، فالقصيدة في حقيقة الامر في غرض واحد وان استهلها مهيار ذلك
الاستهلال الذي لم يكن سوى سخيرة واستهزا ، ولمهيار قصيدة " لامية "

(١) ديوان مهيار الديلمي ج ١ ، ص ٢٥٩ ، وما بعدها .

يعدح بها أبا الوفا* كامل ابن مهدي يستهلبها بالتشبيب ، وذكر أحباؤه
الراجلين ، ولكن في روح ساخره أيضا :

ثم غير معتذر ولا متناقض — فاقصص معنى أثر الخليط الزائل (٧)

ثم يخلص مهبأر الى الفخر بنفسه ، والتذنى بنسبه وقومه :

قوى الطون وخيم نفس خيمتها أفلح يثل أواخرى وأوائلسى
ما ضرعى فى أرومة " فارس " ألا يكون بخندة " أو " وائل "

وهكذا يؤكد البيت الثانى الذى يعرض فيه مهبأر " بخندق " ووائل "
سخرة مهبأر التى تمكن فى استهلا له هذه القصيدة بالتشبيب على عادة
العرب القدماء فى أشعارهم وله مدحه " رائيه " فى أبا الوفا* هذا أيضا
يستهلها مهبأر بالحدث عن الظعن — على عادة القدماء — ولكن نفسى
سخرة من أولئك الذين قهرهم الحب مثلما صرحوا بذلك فى الوقت الذى
تفتوا فيه بالشجاعة العربية والأبا* والشم ، وسخرة مهبأر توغس —
— ولا شك — عقدته النفسية وحقد ، على العنصر العربى فكانه بذلك قد
التزم نهج المجددين حين استغلوا مطالب تصادهم فى التعبير عن
احساساتهم وتوازيمهم :

لمن الظعن تهتدى وتجر ؟ سائق منجد وشوق يهـ —

تتهج الخطوط هرا بين أيديهم — ومن خلفها هوى مقهور (٨)

(١) ديوان مهبأر الديلمى ج ٣ ، ص ١٨٢ وابعدها .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٦ وابعدها .

ويخلص مهبّار من الحديث عن الاطمان الى الحديث عن المحبوبة
مؤكدًا بذلك مخبريته هذه :

حكمت في دمي فتاة من الحسى مجاح لها الدم المحظور

ويستمر مهبّار في غزله - على عادة القدماء - أيضا ، ثم يخلص من ذلك
الى المديح ، فيأخذ في مدح أبي الوفا ، يطول مديحه له ، ليخلص
منه الى الغرض بقومه في أبيات ذاتية تتجسد من خلالها شعوية مهبّار
حين يتغنى بملك فارس القديم ، ومنجدها ، وعزها ، وسودها :

دوحة من ثمارها أنت والمعد	رس منها "بهر" أو "أردشير"
خير ما تربه على الأرض لم يش	سحب على اللوم طينها المظور
طالب صلصال عيصها وريسا	ها ترى ماجد وما "طهر"
قومك الغالزون عزاً وهم قو	مى على الأرض وهى ما "يمور"

وكان مهبّاراً بمخبريته من العرب في مطلع قصيدته ثم يفخره بقومه بعد
ذلك يؤكد أنه انما يلتزم في قصيدته غرضاً واحداً لم يتعداه الى غير ه
فهو يحط من قدر العرب ، ويعلو من قدر قومه من الفرس والغرض قس
الحالين واحد .

وقصائد مهبّار في التشيع تتفق مع قصائده في المديح من حيث بناؤها
وذلك أمر طبيعي ، فقصائده في التشيع هي في واقع الامر مديح لأمير
المؤمنين "على - كرم الله وجهه - ولاك بيت رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - ، وإن كان مهبّار قد اتخذ منها مجالاً ينتقم من خلاله من

العنصر العربي بحجة أن العرب قد هضموا آل البيت حقهم - في رأيه
بوصفه متشيعا - والحقيقة أنه كان عدا " قاطما بين مهيار الفارسي وبين ذلك
العنصر ، ولقد أوضحت ذلك في الباب الثالث من هذا البحث ، فمهيار
في قصائده في التشيع بهم أنه ينهج نهج الأقدمين في بناء قصائدهم
فيستلها أما بالوقوف على الديار ، أو بالغزل والنسيب ، أو بالحدث
عن رحلة المجوبة ، ولكنه استلهم موظف لخدمة الغرض الذي يرمي
إليه ، مثلما فعل تماما في مدائحه لبنى جنسه من الغرس والتي مرصفا
نماذج لـ

يستهل مهيار قصيدته " الفائية " في مديح " علي " وولده " الحسين
- رضى الله عنهما - بالغزل ، ولكنه غزل موظف لخدمة غرضه :

يزهر عن حسنا زوره خائف تعرض طيف آخر الليل طائف
فأشبهها لم تغد مشكا لناشقا كما عودت ولا حيقا لراشفسف
قصية دار قرب النوم شخصها وما نعه أهدت سلام مساعف
ألين وتقرى بالآباء كأنما تبر بهجراني إليه حالسف
و " بالغور " للناسين عهدى منز ل حثانك ومن شات لذيه صاعف
أغلظ فيه ساعلا ل جهالة فأسأل عنه وهو يادى المعصاف
وحزلنى فى الدار صحبى كان فى على عرصات الحب أول واقف (١)

(١) ديوان مهيار الديلمى ج ٢ ، ص ٢٥٩ وما بعدها .

فالابيات تجسد الالهة والهجران وغير ذلك من معان يحاول بها مهيار أن يخدم غرضه الذي يسعى الى تجسيده ، خادما من خلال رؤية فسيقية التشيع ذلك الراى الذى يجسد به اخلاف الصحابة فى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وابائهم البر بهذا العبد وهجرانهم الهه مثلين فى " على " - كرم الله وجهه - وكذلك يستهل مهيار قصيدته " العينية " التى يصف فيها مناقب أمير المؤمنين " على " - كرم الله وجهه - ، - يستهلها - بالحدث عن الاطمان ، ورحيل المحبوبة مجسدا شتات الشغل بوصفه معنى من المعانى التى يقصدها من رواة قصائده فى التشيع ، مما يؤكد أن مطلع قصيدته الذى جعله فى وصف الاطمان لم يكن الا موظفا لخدمة الغرض الذى يرمى اليه :

هل بعد مفترق الاطمان مجتمع ؟ أم هل زمان بهم قد فات يرتجع ؟

تحملوا تسع البيدا * ركبهم ويحمل القلب قهيم فوق ما يمسح ^(١)

وتأتى أيضا قصيدته " الياثية " فى رثاء أهل البيت ومدحهم مستهله بالغزل ، والتسبيح ولكنه غزل موظف لخدمة الغرض أيضا لما فيه من لج فى الخيام والبيادر والغدر ، وكلها معان تخدم ما يرمى اليه مهيار :

لو كنت دانت العود قاصيا رد الحبايب يوم ينوؤاد يسا

علمنى غدر الهوى وتركنى أتخيل العنقا * خلا وانفيسا ^(٢)

(١) ديوان مهيار الديلمى ج ٢ ، ص ١٨١ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ج ٤ ، ص ١٩٨ ، وما بعدها .

يستهل - أيضا مهبّار قصيدته " اللامية " في مدح أهل البيت - على
عادة القدماء بالخزل ، ولكنه أيضا الخزل الموظف لخدمة الغرض السدي
يرمى اليه مهبّار :

سلامن سلا : من بنا استبدلا ؟ وكيف محا الاخر الاولا ؟
وأى هوى حادث العهد أس أنما ذاك الهوى المحولا ؟
وأين المواثيق والعذالات يضيّق عليهن أن تعذلا ؟
أكانت أفضاليل وعد الزمان أم حلم الليل ثم انجلي ؟
وما جرى الدمع فيه سوء ل من تاه بالحسن أن يسأ لا
أقول "برامة" : يا صاحبي معاجا - وان فعلا - أجعلا
فقا لعليل فان الوقوف وان هو لم يشفه عـلا
بخرى " وجرة " ينشد نـ وان زاد تا صلة مـنـزلا
وحسنا * لو أنصفت حسنهما لكان من القبح أن تـخـلا (١)

فالآيات تحمل معاني السلو ، والعذل والأضاليل ، وكلها معان يرمى
مهبّار من وراءها لما يقصد من كشف لأعداء " على - كرم الله وجهه -
وإذا كتبت في الفصل الذي عقدته لمهبّار قد تحدثت عن قداجاته
وعدم صدقه في تشييعه ، وفي مديحه لأهل البيت ، خاصة في قصائده
التي نظمها فيهم وهو لا يزال على مجوسيته .

(١) الصنذر السابق ، ج ٣ ، ص ٤٨ وما بعدها .

كذلك فان التزامه لمنهج الاقدمين في بناء قصائده في المديح ، على نهجهم الذي سلكوه ، والذي فرضته عليهم ظروف حياتهم ، يثبت هو أيضا بعد مهيار عن الصدق الفني في بناء قصائده في المديح مقلدا الجاهليين في ذلك ، إذ أنه لا يشاركهم زمانهم ، ومكانهم ، وظروف حياتهم المختلفة .

والى جانب كل من تقدم من شعراء القرن الرابع ، فقد كان الاختلاف العكبري شاعر المكديين في هذا القرن ، الذي تضخمت في نفسه عقدة الفقر ، وأطلقت لسانه ، وعواطفه فصدر عنها في أشعاره مجمدا لها مترجما من خلالها احساساته ، ومشاعره - قد كان - هو الآخر ملتزما في بناء قصائده الذاتية نهج معاصريه ، والمجددين في نظام القصيدة من شعراء القرن الثاني الهجري ، الذين استغلوا بدايات قصائدهم في التعبير عن احساساتهم ، ومشاعرهم ، والتزموا خلال القصيدة غرضا واحدا لم يتعدوه الى غيره ، كما كان سائدا أيام الجاهلية وعصر بني أمية

فالاختلاف العكبري في قصيدته " الدالية " التي نظمها في اخوانه من بني ساسان ، يستهلها بالدخول مباشرة الى غرضه الذي نظمها من أجله ، والذي لم يخرج في قصيدته عنه ، والذي يستغله كذلك نفس التعبير عن احساساته ، ومشاعره ، مدفوعا في ذلك بعقده النفسية عقدة الفقر التي تضخمت في نفسه ، وتملكته ذاته ، فأطلقت لسانه وعواطفه فلم يصدر في كل أشعاره الا عنها - مثلما رأينا - يستهل الاختلاف هذه " الدالية " بالدخول مباشرة - كما قلت - الى غرضه :

على أنى بحمد الله فى بيــــــــــــــــت من العجــــــــــــــــد
 ياخوانى بنى ســــــــــــــــا ن أهل الجد والحمد
 لهم أرض خراســــــــــــــــان نقاشان الى الهنــــــــــــــــد
 الى الروم الى الزنج الى البلخار والسند (١)

ثم يستمر فى تصيدته على هذا المنوال لا يتعدى ذلك الغرض الذى نظم
 القصيدة من أجله ، مؤكدا بذلك التزامه بذلك النهج الذى ستهلــــــــــــــــه
 المجددون من شعراء القرن الثانى الهجرى ، والذى التزمه معاصروه
 وغيرهم من شعراء القرن الرابع .

وإذا كان شعراء القرن الرابع قد نظموا أشعارهم الذاتية فى قصائد
 مطولات ، فقد جاءت بعض أشعارهم الذاتية - الى جانب ذلك - نفسى
 مقطعات صغيرة .

والمقطعات بطبيعة الحال - تختلف عن القصائد المطولة فى طبيعتها
 فالمقطعات تعد تعبيراً ذاتياً سريعاً ، ومباشراً بحيث نستطيع أن نطلق
 على كل منها خاطرة ، يسجلها الشاعر لحظة مرورها بفكره ، أو تعرضه
 لموقف نفسى عارض ، وسريع .

وإن كان شعراء القرن الرابع فى معظم مقطعاتهم إنما يصددون فيها
 يدافع من ذلك الجانب الذاتى الذى يتميز به كل شاعر .

(١) يتيمة الدهر للشعالبى ، ج ٣ ، ص ١٣٧ .

فأبو الطيب المتنبي في مقطعاته انما يصدر فيها بدافع من احساسه
ببطولة النضال التي عاش - حياته - يجسدها من خلال أشعاره فبطولته
الذاتية هي التي دفعت به أن يسجل هذه القطعة :

أى محل أرتقى ؟ أى عظيم أنقى ؟
وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق
محتقر فى همى كشجرة فى مفرقى (١)

بطولة النضال التي يستشعرها أبو الطيب هي التي دفعت به أيضا
- الى أن يسجل ، مقطعته التي يخاطب فيها معاذ بن اسماعيل اللاذقي
وقد عدله في اقدمه في الحرب :

أيا عبد الاله معاذ انى خفى عنك فى الهجا مقامى
ذكرت جسيم ما طلبى وأنا نخطرفيه بالمهج الجسام
أمثل تأخذ النكبات منه وجزع من ملاقاته الحمام
ولم يزل الزمان الى شخصا لخصب شعر مفرقة حمامى
وما بلغت مشيتها الليالى ولا سارت وفى يدها زمامى
إذا امتلأت عيون الخيل منى فويل فى التيقظ والغمام (٢)

فالابيات - على قلتها - تجسد بطولة المتنبي الذاتية ، بطولة النضال

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري ج ٢ ، ص ٣٤١ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤٤ : ٤٥ .

ذلك الذي كتب على أبي الطيب ، النضال ضد الزمن ، الذي يجسد
 قوله " ولو برز الزمان الى شخصاً " ، ذلك الزمن الذي يطالبه أبو
 الطيب بكل أمر عظيم " ذكرت جسم ما طلي " ، ويظهر أن احساس
 أبي الطيب ببطولته ، واستشعاره اياها ، كان احساساً جارفاً ، لا يهدأ
 ولا يتلاشى ، ويجسد أبو الطيب ذلك بتكرار ذكره وتجسده لنضاله للزمن
 في هذه الابيات القليلة :

وما بلغت مشيتها اللهاى ولا سارت في يدها زمامي
 وهكذا لم يمهّد أبو الطيب لردّه على هذا العازل ، بل أخذ في عتابه
 الذي يوظفه لخدمة غرضه فيخلطه بالتعني بنفسه مدفوعاً في ذلك التعني
 باحساسه ببطولته ، فالمقام مقام غضب ، وود على عازل ، ولا سبيل الى
 ذلك الا بالرد المباشر دون توطئه ، أو تمهيد ، أو لجوء الى التجميل .
 وكذلك جاءت أبيات أبي الطيب الذاتية التي يتعني فيها بقدرته على
 النظم بديها ، وسبقه في ذلك المضمار ، وذلك حين عمل أبياتاً بديها
 فتعجب أبو العشائر من سرعته فقال :

أنتكر ما نطق به بديها وليس يمتكر سبق الجواد
 أراك موصيات الشعر قسراً فأقلها وغيرى في الطراد (١)

فهو في هذين البيتين يجسد كذلك احساسه لهزيمة النضال التي
 تجسدها الفاظ مثل : " أراكى - أقتل - الطراد " على الرغم من أنه

(١) ديوان أبي الطيب المقتضب بشرح العكبري ، ج ٢ ، ص ١٨٠ .

في ميدان نضال شعري ، وإلى جانب هذه القطع الشعرية الذاتية لا يبي
الطيب العتيبي فان لا يبي فراس الحمداني مقطعات شعرية ذاتية كثيرة
تذكر منها - على سبيل المثال - بعض ما قاله في أسره مدقوعا فيه
بإحساسه بمرارة الهزيمة .

ان في الاسر لصيبا دمة في الخد صليب
هو في الروم مقيم في الشام قلب
مستجد لم يضاد ق عوضا عن يحسب (١)

وإلى جانب هذه المقطعة فان أبا فراس من خلال مقطعة أخرى يجسد
هذين الإحساسين اللذين ظلا يتجاذبان ذاتيته ، إحساسه ببطولة
النصر ، وإحساسه بجرح الهزيمة اللذين يجسدهما في لفظتي " حلو " و
الزمان و " مسره " :

ولا تصفن الحرب عندي فأنها طعاني مذ بعث الصبا وشواييس
وقد عرفت وقع المسامير مهجتي وشقق عن زرق الفصول اهابيس
ولججت في حلو الزمان ومسره وأنفقت من عمري بنسير حساب (٢)
وكذلك قوله وقد وافاه العيد وهو في أسره :

يا عيد ! ما عدت بمحبوب على معنى القلب مكروب
يا عيد ! قد عدت على ناظر عن كل حسن فيك محجوب

(١) ديوان أبي فراس الحمداني تحقيق / سامي الدهان ، ج ٢ ص ٢٥
(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٩

يا وحشة الدار التي ريسها أصبح في أثواب فرسوس
 قد طلع العيد على أهليه بوجه لاخمن ولا طيب
 مالي وللدهر واحدائه لقد رماني بالاعاجيب (١)
 وكذلك قطعته التي كتب بها الى علامة من الاسر :
 قناني على ما تعلمان شديدة وعودي على ما تعلمان صليب
 صبور على طي الزمان ونشيره وان ظهرت للدهر في ندوب
 وان فتى لم يكسر الامر قلبه وخوف المتايا جدة لتجيب (٢)
 والمقطعة تجسد احساس أبي فراس ببطولته والتي تجسدها قنانيه
 الشديدة وصبره كما تجسد احساسه بحرج الهزيمة التي تظهر في ندوب
 الدهر ، وكذلك المقطعة التي تنشئ بها حين سمع بالقرب منه حمامية
 تنوح على فرع شجرة - وقد سبق الاشارة اليها في الفصل الذي عقدته
 لدراسة شعره الذاتي - تلك المقطعة التي تجسد احساس أبي فراس بحرج
 هزيمته والتي يقول في مستهلها :
 أقول وقد ناحت بقري حمامة أيا جارتا هل تشعرين بحالتي ؟ (٣)

- (١) ديوان أبي فراس الحمداني ، تحقيق / الدهان ، ج ٢ ، ص ٢٩ :
 (٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٨ .
 (٣) أبو فراس الحمداني ، تحقيق / ابراهيم السامرائي ، ص ١٢٧ .

وكذلك كتب بقطعة شعرية ذاتية ناجى بها ابنته وقد أحمر يد نواجله
- وقد سبقنا الإشارة إليها أيضا - تلك التي يقول فى مستهلها :

ابنتى لاتحزنسى كل الانام الى ذهاب^(١)

كذلك جاءت معظم الاشعار الذاتية لشعراء المعجون والاحتلال الخلقى
فى القرن الرابع فى قطع صغيرة الى جانب قصائد هم المطولات .

ويتضح لنا من ذلك كله أن شعراء القرن الرابع الهجرى حين نظموا
قصائد هم الذاتية ، لم يسلكوا فى بنائها طريقة المجددين من شعراء القرن
الثانى ونهجهم فى بناء قصائدهم ، فجاءت القصائد الذاتية لهؤلاء الشعراء
فى غرض واحد لم يتعداه الشعراء خلال قصائدهم هذه الى غيره وكذلك
جاءت بعض اشعارهم الذاتية فى مقطعات صغيرة ، مثلما ظهر عند كثير
منهم .

(١) ديوان أبى فراس الحمدانى ، تحقيق / الدهان ، ج ٢ ، ص ٤٧

ثانيا - لغة الشعر الذاتي في القرن الرابع :

الشعر الذاتي - كما تعلم - شعر غنائي ، يكتبه الشاعر - أولا وقبل كل شيء - لنفسه ، ليتغنى من خلاله باحاساساته ، ومشاعره ، أيما كانت هذه المشاعر وتلك الاحساسات .

واللغة بوصفها عنصرا هاما من عناصر الشكل في القصيدة ، وخاصة الذاتية منها ، يظهر من خلالها - بشكل واضح - طريقة الشعراء الذاتيين في توظيف هذه اللغة لتحقيق ذاتيتهم ، وفكرهم .

ومن دراستنا للغة الشعر الذاتي في القرن الرابع يتضح أن هذه اللغة قد ارتبطت ، ارتباطا وثيقا بالحالة النفسية للشاعر ، وترجمت عن طريق دلالاتها اللفظية ما يعتل في نفس الشاعر من احساسات ومشاعر كما ترجمت نوازح هذه الانفعالات التي اختلفت فيما بينها اختلافا واضحا وبينا ، لاختلاف الاتجاه الذاتي عند كل شاعر عنه عند الآخرين .

فإذا ما تناولنا شعر المتنبي الذاتي محاولين التعرف خصائص لغته نجد أن هذه اللغة قد سايرت الحالة النفسية لابي الطيب ، وقت نظمه لهذه الاشعار .

فلغة شعره الذاتي مفعمة بالثورة والغضب ، والاحساس بالقوة ، التي يستشعرها كل من كان النضال سبيلا له في الحياة ، وأبو الطيب - مطلقا مريضا - عاش حياته ، يستشعر بطولية النضال ومحسها في نفسه فكان نضاله ضد حكام البلاد الاعاجم ، ضد الزمن ، والحياة ، والناس

اذ فرغت عليه ظروف حياته أن يختار طريق النضال هذا طريقا له نفسى الحياة ، فقد عاين وسط مجتمع ضاعت فيه هبة العرب ، وزال فيه سلطانهم ، وخضعوا لمن كانوا عبيدا لهم فى يوم من الايام ، مما أشعل نار الثورة ، ولهبب النضال فى قلب أبى الطيب منذ صباه ، واتسمت لغة شعره - تبعاً لذلك - بسمة الثورة والغضب بوصفها أداتين من أدوات النضال الممنهجة ، وكثر استعمال أبى الطيب لصغار المتكلم حتى أصبح ذلك لازماً من لوازم لغة شعره الذاتى ، عبر مراحل حياته المختلفة اذ عاين حياته - كما قلت - ملازماً للنضال ، وان اختلفت مناحى النضال عنه من نضال للأعرج ، الى نضال للزمن والحصاد من الناس :

محيى قياى ما لذلك الفصل بهما من الجرحى سلباً من القتل ؟
أرى من فرندى قطعة فى فرندى وجوده ضرب الهام فى جوده الصقل
أعطى عنك تشبهى بهما وكأنه فما أحد فوق ولا أحد مثلى
فرندى وأباه وطرفى وزابلى تكن واحدا تلقى الورى وانظرون فعلى (١)

فى هذه الابيات لم يخل بيت من ضمير يعود على الشاعر يتناول فى يا المتكلم التى ترددت فى هذه الابيات أكثر من سبع مرات ، هذا الى جانب ما فى الابيات من ألفاظ تجسد غضب ذلك الصبي الطائر ، وذلك من مثل : " الفصل ، والجرح ، والقتل ، والفرند ، وضرب الهام وجود الصقل ، والطرف ، والذابل " ، فإذا ما رأينا فى الابيات الى جانب ذلك كله تكراراً يوكد معنى يجسد اصوار ذلك الصبي طبرى

(١) ديوان أبى الطيب المعتنى بشرح المكبرى ج ٢ ص ١٦٠ وما بعدها .

الثورة ، يظهر ذلك في قوله : " فما أحد فوقى ، ولا أحد مثلسى " وقوله : " وذرى وأيام وطرفى وذابلى " ، إذا رأينا ذلك أدركنا مدى ما كان يعانيه أبو الطيب في هذه الفترة من حياته ، ومدى ما سيطر عليه من مشاعر الغضب ، والثورة حين رأى ضياع العنصر العرسى في مواجهة غيره من العناصر آنذاك ، وحين أدرك مدى خطورة ذلك الضياع ، مما دفع به الى اتخاذ النضال طريقا ومنهجاً له في الحياة .

كذلك تظهر هذه السمات - أو هذه اللوازم - ان جاز لنا هذا التعبير في قول أبي الطيب مخاطباً نفسه :

الى أى حين أنت في زى محرم ؟ وحتى متى في شقوة والى كم ؟
وان لامت تحت السيوف تمت وتقاسى الذل غير مكسوم
فشب واشقا بالله وثبة ماجد يرى الموت في الهيجا جنى النحل في

والعنى في هذه الأبيات لا يخاطب إلا نفسه ، وان جاء بضمير المخاطب بدلا من ضمير المفكلم ، فذلك ما يسميه ابن الاثير " بالتجريد " ويعرفه قاعلا عنه انه :

" اخلاص الخطاب لغيرك وأنت تريد نفسك ، لا المخاطب نفسه " (١)
ويستشهد ابن الاثير على ذلك بقول أبي الطيب :

(١) المصدر السابق ج ٤ ، ص ٣٣ : ٣٤ .

(٢) الغزل السائر في أدب الكاتب والشاعر / ضيا * الدين بن الاثير
تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد مكتبة مصطفى البابي الحلبي
- القاهرة - ١٣٥٨ هـ / ١٩٣٩ م ، ج ١ ، ص ٤٢٣ .

لا خيل عندك تهديها ولا مسأل فليسمع النطق ان لم تسعد الحال
واجز الامر الذي نعماء فاجشيه بغير قول ونعى الناس أقوال^(١)

والذي دفع أبا الطيب لان يعدل عن استعمال ضمير المتكلم مستعملا
بدلا منه ضمير المخاطب أنه في مجال وصف الشقا ، ومقاساة السذل
وهكذا كان يفعل دائما ، وهذه لفته من لفظاته ، ومزية من مزاياه
وخاصية من خاصية لغة شعره ، ولازمه من لوازمه .

وأبو البقا العكبري شارح ديوانه يثبه الى هذه الخاصية في شعر
أبي الطيب وهو يمدد التعليق على بيته الذي يقول فيه :

لا أستزيدك فيما فيك من كرم أنا الذ عذام وأن نهيت يقطانا^(٢)

فيقول العكبري : " وقوله " نام " ولم يقل نمت ، هرب من هذا الصا
كان في الضمير ذم ، لم يرد الى نفسه ، ولم يوتر الاخبار به عن نفسه
وهذا من أدق ما في شعره ، وأدله على حكمه ، واستيلائه على قصب
السبق في شعره ، لو تأملت شعره وجدت فيه كثيرا من هذا ، وإذا كان
في الضمير مدح أعاده الى نفسه . . ألا ترى قوله :

" وانسى لمن قوم كان نوحوسنا "

فأعاد الضمير اليه ، ولم يقل نفوسهم ، وهذا عادته في شعره

(١) البهتان في ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري ، ج ٢ ، ص ٢٧٦ : ٢٧٧ .

(٢) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري ، ج ٤ ، ص ٢٣٠ .

وهو من البلاغة والحدق * (١)

وهو من البدع والاعتقادات
بسم الله الرحمن الرحيم
فأما ما عدهنا إلى الأيات من هذا الكتاب فلهذا ما عدهنا من الأيات
فهي بيت من شعر الخواص الذي هو قوله تعالى لا تظن أن الله لا يعلم
الغيبات ذلك الاستغفار الذي يستعمل به أهل البيت من ولدهم في الغيبات
بسم الله الرحمن الرحيم
والذي يحمل في كتابنا غيبا وهو قوله تعالى لا تظن أن الله لا يعلم
الغيبات ذلك الاستغفار الذي يستعمل به أهل البيت من ولدهم في الغيبات
بسم الله الرحمن الرحيم
والذي يحمل في كتابنا غيبا وهو قوله تعالى لا تظن أن الله لا يعلم
الغيبات ذلك الاستغفار الذي يستعمل به أهل البيت من ولدهم في الغيبات
بسم الله الرحمن الرحيم

و مع عجول ذلك البيت و الذي في يمينه في أسلوب شرط فيه
الحسن على الموضع السار و العجول ، الملاحظ في قوله في العجول :

عَنْ اَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ مَا يَكُونُ لِمَنْ يَمُوتُ وَهُوَ يَتَذَكَّرُ اَنْ يَمُوتَ وَهُوَ يُعَذِّبُ نَفْسَهُ بِمَا كَانَتْ تَعْمَلُ

[illegible]

(١) المصدر السابق، ج ٤، حاشية، ص ٣٢٠. انظر أيضاً: (٢)

وتأتى الأبيات فى تسلسل فكرى ومنطقى ، حيث مهد أبو الطيب
للبيت الثالث بسابقه ، ذلك البيت الذى حشد فيه المتنبي من الألفاظ
ما يجسد معانى تهفو اليها النفوس المعززة الكريمة ، مما يتناقض مع ما جاء
فى البيتين السابقين عليه ، يستهل أبو الطيب هذا البيت بفعل أمر
يجسد مدى تشوق المتنبي للخلاص من واقعه المر الاليم ، وقرن ذلك
بقفا* تعطى معنى السرعة والاندفاع .

وجمع أشعار أبي الطيب فى صباه ودأية شبابه تحمل هذه السمات
ذاتها ، يظهر ذلك أيضا جليا فى قوله عن نفسه التى لا يمل التفتى بها :

لا بقوى شرفت بل شرفوا بسى ونفسى فخرت لا بهجد ودى
وسهم فخر كل من نطق الشا د وعود الجانى وغوث الطريق
ان أكن معجبا فعجب عجيب لم يجد فوق نفسه من منجد
أنا نوب التدى وبب القوافى وسام المدا ونظ الحسود (١)

وهكذا لا يخلو بيت من هذه الأبيات من شعور يعود على الشاعر
مجسدا من خلاله مفاخره ، الى جانب ما فى الأبيات من دقة تراكم
لغتها من مثل النفا والمطف ، فى القطرة الثانية من البيت نفسه فهنا
أبو الطيب بذلك بين " النفى " والاثبات " وبين " بل " و " لا " كادأتى
عطف لكل منهما عليها ، وان كان يجمعها أنها أداتا عطف ، والبيت
بهذه الصياغة تؤكد على المعنى الذى يريد المتنبي أن يتغنى به وليس

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري ج١ ، ص ٣٢٢ : ٢٢٣ .

هناك ما يضمن ذلك التأكيـد أحسن من هذه الصياغة •

ثم مافى البيت الثالث من تكرار اللفظة " العجب " ومشتقاتها مما يدل على عشق المتنبي لنفسه ، وتعلقه بعجبه بهذه النفس التي لم يجد فوقها من مزيد ، وكأنه بهذه الشطرة يعلل ويفسر سرعجيه بنفسه •

ثم يأتي البيت الرابع تثمة لذلك ، فيستبهره أبو الطيب بضمير المتكلم المنفصل " أنا " ويتبعه بسهل من مكارمه ، ومفاخره ، ومناقبه فهو " ترب الندى " ، و"رب القواني وسام العدا ، ويغبط الحسيوس " ولاخفى ما بين " الندى " و" العدا " وما بين " ترب " و" رب " من تجنبين وشجع تظهر جميعها أن أبا الطيب يتغنى حقاً ولا ينظم شعراً فحسب •

ومن أشعار أبي الطيب في صباه والتي يتجلى فيها العنف ، والقوة والحرص على استعمال ضمائر المتكلم بكثرة ، قوله : في معرض التغنى ببطولته التغالية كذلك •

فقا تريا ودي فيها تا المفايل ولا تخشيا خلفا لما أنا قاسم
رمانى خسامى النامر من صايب استه وآخر قطن من يديه الجنادل
ومن جاهل بى وهو بهجىل ج بهله وهجىل على أنه بى جاهل
وهجىل أنى مالك الارض مفسر وأنى على ظهر السماكين راجل
تحقر عندى همى كل مطلب وقصر فى معنى العدى المتطاول
وما زلت طودا لا تنزل مناكبى الى أن بدت للضميم نفسى زلازل

فقلقت بهم الذي قلقل الحدا شأ قلاقل عيسى كلبين قلاقل (١)

وهكذا لا يخلو بيت من هذه الابيات من شعور للمتكلم ، بل من ضمائر توضح كلها عشق المتنبي لذاته في هذه الفترة من حياته ، وكأنه لا يرى الا نفسه ، وان كان البيت الثاني من هذه الابيات يعجب واحدا كالشعالي الذي عد من الركاة ، والمفسفة بالفاظ العامة ، والسوقة ومعانيهم (٢)

لكن من الانصاف أيضا أن نضع في الحسبان أن البيت قد جاء في معرض الهجاء ، وأن أبا الطيب قد أتى بالفاظ هذا البيت عامدا ليكون أكثر إيلا ، وإيجاعا ، لمهجوته الذين يحاول أبو الطيب أن يجسدهم ، ويحارثهم ، الى جانب جهل بعضهم ، ذلك الجهل الذي يعد أبو الطيب ان الصاقه بمهجوته ما استطاع الى ذلك من سبيل فيلجأ الى تكرار لفظ الجهل ومشتقاتها لا حيا في التكرار ، وإنما ليعمق معنى جهل ذلك المهجو ، وليوضح أن جهله جهل مركب ، فمهجوته يجهله ولا يعرفه ، ويجهل جهله هذا ، ليس هذا فحسب ، بل من جهات ثلاث ، وفي ذلك مغالاة ، وبالمغة في الخط من قدر مهجوته ، والغرض من شأنه ، وإلى جانب ذلك كله فالاليات تأتي متصلة تسلسلا فكريا ومنطقيا ، إذ يبدأ المتنبي بالحديث عن نفسه ، ثم يتبع ذلك حديثا عن مهجوته ، ثم يعود ثانية للحديث عن نفسه ، وكأنه بذلك يعقده مقارنة بينه وبين أولئك المهجوعين .

(١) ديوان أبي المتنبي يشرح العكبري ج ٣ ص ١٧٤ : ٢٧٥

(٢) يتيمة الدهر للشعالي ج ١ ص ١٩٩ .

وفي الأبيات الأربعة الأخيرة يحشد أبو الطيب من الالفاظ ما من شأنه أن يظهر خطوط شخصيته الغدّه فهو "معسر" ولو ملك الذنبيسا و "راجل" ولو أعتلى ظهر السماكين ، وأتى أبو الطيب بهذين الطباقيين بين "مالك الأرض" و "معسر" وبين "على ظهر السماكين" و "راجل" ليوضح مدى أهميته ، وبعد آماله ، تلك التي يصرح بها في البيت الخامس والذي جاء تعليلا ، وتفسيرا لسابقه ، والذي يؤمّر فيه أبو الطيب ألفاظا بعينها مثل : "تحقر - والمتطاول" لدالتهما أكثر من غيرهما على ما يرى إليه أبو الطيب .

ثم يأتي البيت السادس ليؤكد بعد هذه أبي الطيب ، وإسماء الظلم ، وهذا شأن المناضلين ، فهو لم يزل ثابتا ، ذا وقار ، طودا لا يحركه شيء حتى ظلم ، فلم يصبر على الظلم فتحرك لدفع ذلك الظلم عنه ، وفي ذلك تعظيم لشأنه ، وتبدو دقة أبي الطيب في اختيار ألفاظه حين يأتي بـ "لا تنزل" و "لازل" لتتناسب مع "الطود" الذي شبه نفسه به ، ثم يأتي البيت السابع نتيجة حتمية للبيت الذي سبقه فهو لما أحس بالضيم ، الذي حركهما في أحشائه ، دفعة احساسه ببطولته التضالية فحرك نوحا خفاضا في السير ، حتى يترك ذلك المكان الذي لحقه فيه الضيم ، وتتابع الفافات في هذا البيت يجعلنا نحس وقع أقدام هذه النوق التي حركها أبو الطيب لتتأى به عن هذا المكان الذي ضيم فيه ، وإن كان البيت لم يعجب الصاحب بن عباد الذي نعلم مدى ما كان يكن لأبي الطيب من حقد ، وكراهية ، فهو قد عاب أبا الطيب بهذا البيت قائلا : " ما له قتل الله أحشاه " وهذه الفافات الباردة

إلا أن العكبري شارح ديوان أبي الطيب يرد على صاحب هذا قائلًا
" ولا يلزمه من هذا عيب " يقصد أبا الطيب " ، فقد جرت العادة بذلك
ثم يورد لأبي نصر بن الموزيان " قوله : " ثلاثة من الشعراء "
رومًا " (شلشل أحدهم ، وسلمل الثاني ، وقلقل الثالث) ، فالذي
شلشل الأعشى ، وهو من رومًا شعراء الجاهلية ، وهو الذي يقول :

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني شاو مثل شلول شلشل شلول

* والذي سلسل مسلم بن الوليد وهو من رومًا الحديثين :

سلت وصلت ثم سل سليلها فأتى سليل سليلها مسلولا

* والذي قلقل فالمتنبي :

ثم يقول العكبري : " وفي هذا الذي ذكرناه ما يرد قول بن عباد ،
صطله ما جا مظه عن سائر الشعراء " . (١)

ومن أشعار أبي الطيب في شهابه التي تجسد بطولته النضالية نسي
هذه الحياة ، والتي تتسم لغتها بالعنف ، والقوة ، والحرص على
استخدام ضائر المتكلم بكثرة ملحوظة قوله :

وترى الفتوة والعروة والابـ وة في كل مليحة ضراتهـ

هن الثلاث لما نعانى لذتي في خلوتي لا الخوف من تبعاتـ

ومطالب فيها الهلاك أتيتها ثبت الجنان كأنني لم أتـ

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري ج ٣ ص ١٧٦ " حاشية الصفحة "

ومقانب بمقانب غادرتهما أقوات وحش كن من أقواتهما (١)

وهكذا لا يخلو بيت من هذه الأبيات - على عادة أبي الطيب في هذه الحقبة من عمره - من ضمير على الشاعر إلى جانب هذا الحشد من الألفاظ التي تحمل جر من العنف ، والقوة من مثل : " الفتوة - والعروة - والابوة - والمطالب - والمقانب " ثم ما بين " لذى - خاوش " من توافق نفس لم يأت للزخرفة فحسب بل أتى ليؤكد المعنى الذى يتخفى به أبو الطيب من غفة ، وثقا ، وعد ، عن كل ما يزرى بالمروءة حتى وإن كان في خلوته بعيدا عن الناس ، وجعل أن يجعل أبو الدايب من الفتوة ، والعروة ، والابوة ضرات للجماليات الحسان ، فعمقه لهذه المعاني ، لا يقل عن عشق غيره للنساء الجميلات ، فقد شغل نفسه بشئ في القوت الذى شغل فيه الناس بشئ آخر تماما ، وبأبعد الفرق بين هذا وذاك :

صأتى البستان الاخيران من الابيات السابقة نتيجة لما سبقهما
فرجل يملك الفتوة ، والعروة ، والابوة لابد من أن يكون ذا بأس شديد وجنان ثابت وشجاعة فريدة ، هي التي حققت له احساسه ببطولته الذاتية بطولة النضال التي ظل يستشعرها طوال حياته ، وظل أبو الطيب سائرا على هذا النهج في لغة شعره التي تتسم بالقوة ، والعنف ، والغضب وتجسيد ذاته ، مدفوعا الى ذلك بالمناخ الذى كان يعيشه ، والظروف

(١) ديوان أبي الطيب الغنوي بشرح المعبرى ج ٢ ، ص ٢٢٧ : ٢٢٨

التي كانت تحيط به ، حتى التقى بسيف الدولة بن حمدان فرأى فيه نموذج الفارسى العربى الذى كان يتراعى لاهى الطيب دائما ، وتزخر به مخيلته ، وراءه يستعيد بحروبه المستمرة مع الروم ، للعرب أمجادهم فهدأت نفس أبو الطيب ، وظلت أشعاره - كما قلت - الى حد ما - من هذه الثورة ، وذلك الغضب ، وان كان قد ظل على نضاله للزمن ، وتبوأ عند سيف الدولة مكانه لم يتبواها شاعر قبله ، مما دفع كثيرا من شعراء سيف الدولة ، وعلماء بلاطه ، الى الكيد له عند سيف الدولة ، ونجحوا فى أن يوغروا عليه صدر الامير ، وربما كان من عوامل نجاحهم أبو الطيب نفسه الذى وهب نفسا أبية عزيزة ، لا تحتمل وجودها الا من خلال النضال الذى استشعر أبو الطيب أن بطولته انما تكمن فيه ، وعانى أبو الطيب كثيرا من كيد حساده ، وقاسى مرارة وشاياتهم ، وكابد وعانى طويلا بسببهم مما كان له أثر كبير فى أشعاره فى مرحلة ما بعد الكيد له والحقد عليه ، اذ خيمت على أشعاره فى هذه الفترة ظلال قائمة وتجسدت من خلا لها أحزان عميقة ، وكثر استخدام أبى الطيب الاستفهامات الدالة على الحسرة ، والالم ، الى جانب استخدام كثير لللفظة " الحسد " ومشتقاته ذلك " الحسد " الذى أقر عليه مضجعه ، وسببه ترك سيف الدولة ، وتوجه الى صرحيت كافور الاخشيدى ، وان كان العقاد يرى أن ذلك " الحسد " الذى منى به أبو الطيب فى بلاط سيف الدولة كان نعمة من حيث لم يدرك أبو الطيب فقد أنشأ ما فى فريخته من طيب ، بما أشعل فيها من نار ، يقول الاستاذ العقاد : " هو الحسد الذى جنى على الرجل وأجناءه ، نعم هو الحسد ناشر كل فضيلة مطوية ، هو ناشر فضيلة المتنبي ، ومنشئ ما فى

قريبته من طيب بما أشعل فيها من نار ، هو المحنة التي عرفها المتنبي فشكاها ، والنعمة التي لم يعرفها ، ففاته أن يشكوها ويشيد بفضلها وحسبك أن تتصفح ديوانه فتعرف من تكرار ذكر الحسد فيه ، أى عارك عرك نفسه من حسد الحساد ، فلا تكاد تخلو قصيدة للمتنبي من ذكر الحسد بلفظه ، أو بمعناه ، ومن الأيما تارة الى حساد مدوحيه ، وتارة أخرى الى حساد هو . . . وستطرد الأستاذ / العقاد في ذلك الى أن يقول : " وهذا لا يكون الا من اشتغال الذهن بهذا المعنى وسرعة يوده على خاطر ، وقرب ما آتاه من الخيال ، ثم تجتزئ من تاريخ حياته بشئ واحد هو تسميته ابنته " محسدا " وما هو من الاسماء الطروقة ، ولا المحبوبة ، فبد لنا ذلك على ما لقيه الرجل من محنة الحسد ، ونكابة المنافسين ، وأنه قد أصابه من هذا الاذى ما لم يصيب أحدا من الشعراء " . (١)

أخذ أبو الطيب يعبر عن أساءه ، وحزنه لما رأى من تغير سيف الدولة نتيجة لوشاية الواشين ، وحسد الخاسدين ، مستخدما الاستفهام الذي يكشف عن هذا الحزن ، ونم عن ذلك الاسى ، وظهور ذلك جليا فسى قصيدته المعبية التي أنشأها بعد أن نجح الحساد فيما تصبوا اليه نفوسهم تلك القصيدة التي يقول فيها ؟

مالى أكرم حبا قد برى جسدي وتدعى حب سيف الدولة الامم (١)

- (١) مطالعات في الكتب والحياة ، عباس محمود العقاد ، دار الكتاب اللبناني بيروت - الطبعة الثالثة ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م ، ص ١٩٦ .
(٢) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري ج ٣ ص ٢٦٢ وما بعدها .

والى جانب هذا الاستفهام فهناك ايثار أبى الطيب للفعل " أكرم " بالتشديد للدلالة على مدى المعاناة التى يقاسمها فى محاولة اخفاء ذلك الحب الصادق ، وهذا فى حد ذاته تضال أيضا ، وكذلك الفعل " يرى " وما فيه من دلالة على صدق حد سيف الدولة ، ثم يأتى نفس المقابل بالفعل " تدى " وما يحمل من تذب وتناق ، وفى مقابل نفسه يأتى أبو الطيب بلفظه " الامم " بالغة فى كثرة عدد الكاذبين والمنافقين فى بلاط ذلك الامير المخدوع ، أو الذين الى أبو الطيب على نفسه الا أن يكون متاخلا لهم ، كما ناضل من هم أقوى منهم ، ودفع أبى الطيب غضبه من سيف الدولة وتصديقه الوشاة ، الى انه يد من جديد الى تجسيد ذاته من خلال أشعاره ، فيعلن فى هذه القصيدة ، وطلسى سامع الامير نفسه .

أنا الذى نظرا لاعمى الى أدبى وأسععت كلمتى من به صمم
أنا مل جفونى عن شواردها وسهر الخلق جراحا وختصم

وصلك أبو الطيب كل سهيل لتأكيد المعنى الذى يرومه ، فيقابل بين " نظر " وبين " اعمى " وبين " أسععت " وبين " من به صمم " وبين " أنا مل جفونى " وبين " وسهر الخلق " .

وستطرد أبو الطيب فى التغنى بما يملك ، يدفعه فى ذلك غضبه وحزنه ، حتى يلقى على سامع الامير ذلك البيت ، الذى يعود من خلاله الى تجسيد تضاله القديم واستعداد له لمعاودة ذلك التضال

فالخيل والليل والبيداء تعرفنى والضرب والطعن والقرطاس والقلم

فألبيت بما يحوى من وأرات عطف عديدة ، ومن تأليب نفسى وبوسيقى
بين " الخيل " و " الليل " وبين " الضي " و " الطعن " كل ذلك
لا يملك مدح سامعه الا أن يتعايل طربا مع أبى الطيب الذى يتقنى وهو فى
قمة غنبيه ، وشهرته ، وما أظن الا أن سيف الدولة قد تعايل طربا عند سماعه
لهذا البيت لما فيه صياغة فنية وإن أغنبه معناه .

وكشف أبو الطيب بعد ذلك ... النقاب عن حساده على سمع متهم
ومن سيف الدولة فى قوله :

ان كان سركم ما قال حاسدنا فما لجرح اذا أراضكم أناسم

وتجد ودقة أبى الطيب فى استعماله " نا " المتكلمين ، طالما
قد استخدم لخطاب سيف الدولة ضمير المخاطبين ، وذلك من اعتزازه
وحرصه على أن يكون فى منزله تساوى منزلة مدحجه أيما كان ذلك المدح
ويظل أبو الطيب بعد هذه الواقعة حريصا على تجسيد ذاتيه
والتقنى بنفسه ، والتعريف بحساده فى كل أشعاره ، معاودا بذلك
تجسيد احساسه ببطولته الذاتية بطولية النضال الذى كتب عليه أن يتخذ
طريقا له فى هذه الحياة :

أنا السابق الهادى الى ما أقوله اذ القول قبل القاطين مقبول
وما لأكلام الناس فيما يريبنى أصول ولا للقاطية أصول
أعادى على ما يوجب الحب للعدى وأهدأ والأفكار فى تجبول
سوى وجع الحساد داو غائنه اذا حل فى قلب فليس يحول

ولا تطمع من حاسد في مودة وان كنت تبديها له وتنبيل (١)

وأنت أبو الطيب يلفظني "السابق" "ي" "والله الذي" معروفة وليس تكسرة
ليؤكد تفرد في هذا السبق ، وتلك البداية ، للاحظ أنه بعد هذه
الجفوة لا يضرب المتنبي الأعلى وتر تنبيه الآخرين بأخطائه من عطف فعل :
"أنا نظروا الأعلى إلى أدبيته" "ألم يفتك كل طائر من ريشه" "ألم يلام
مل" جفوت عن شوارها " ، يسهر الخلق جراحها صختم " ، "أنا
السابق التهادي إلى ما أقوله " ، وذلك أمر طبيعي لمن يحس ببطولة
النضال ، حتى ولو كان نضاله لحساد يكيدون له بالانتهم ، وكما نعلم
فجميع حساد م ، والكائدين له ، والجاقدين عليه من ضمن "تتبع الدولة
وأدب" بلاطه ، وتتردد لفظة "الحسد" ومشتقاتها كثيرا - كما قلت من
قبل في اقتضار أبي الطيب عامة ، وأشعاره بعد ما حدث له في بلاط
هاتف الدولة خاصة من ذلك قوله : "أنا أفتك بـ" "أنا أفتك بـ" "أنا أفتك بـ"
وللحساد عد أن يشحوا على نظري إليه وأن يذموا
فأنت قد وصلت إلى مكان إليه تحسد الحقدى القليل (٢)
وكذلك قوله بفخامته خيف الدولة : "أنا أفتك بـ" "أنا أفتك بـ" "أنا أفتك بـ"

أزل حسد الحساد عني بكتبهم فأنت الذي صيرتهم لي حسدا (٣)

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري ج ١ ص ٢٨٨ لا يؤخذها .

(٢) الصدر السابق ج ١ ص ٧٥ .

(٣) المصنف السابق ج ١ ص ٢٨٩ .

مع هذا " الحمد " وذلك الكيد ، لا يملك أبو الطيب إلا أن يفارق
سيف الدولة ، ويتوجه إلى " صر " حيث كافور الأخشيدي ، الذي كثرت
محاولاته لاستخدام أبي الطيب إليه ، ولكن أشعاره في " صر " ظلمت
مجسدة لأحزانه ، وآلامه ، بل زادت بها الأم الغريسة ، وخيبة الأمل في
كافور تجسيدا لذلك الحزن ، وتلك الحسرة ، ولا أدل على ذلك من
أولى قصائد أبي الطيب في كافور ، تلك التي يستهلها استهلا لا يتمشى
والمدح ، وإن كان يتمشى مع الحالة النفسية التي كان أبو الطيب يعيشها
وقتها :
كفى بك داءاً أن ترى الموت شافياً وحسب العنايا أن يكن أمانياً

تغنيها لما تمنيت أن تسرى صديقاً فأعيا أوعداً ومداجياً (١)

والعني لا يخاطب في هذه الاستفتاحية إلا نفسه - وعلى عادته - ملماً
رأيتاً من قبل - لا يأتي بضمير المتكلم ، وإنما يستخدم ضمير المخاطب
لأن المقام مقام حسرة ، وألم ، وإن ظل على استشعاره لبطلته الذاتية
بطولة النضال ، والتضال هنا ضد الزمن وأحداث الحياة ، وضد مشاعره
ومواقفه ، ونواز نفسه :

حببتك ظلي قبل حيك من نأى وقد كان غداراً فكان لي وانياً
وأعلم أن البين يشكك بعدد فلست فؤادى أن رأيتك شاكياً
فإن دموع العين غدر برئتها إذا كن اثر الفادرين جوارياً

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري ج ٤ ، ص ٢٨١ وما بعدها .

وهكذا تزخر هذه الابيات بالفاظ " النأى " والغدر ، والبين
والشكوى ، والدموع " ، مما يؤكد أنه لا يزال يستشعر بطولية النضال
فى نفسه .

وتبدو دقة أبى الطيب فى اختيار الفاظه فهو يرى أن سيف الدولة هو
الذى " نأى " وليس الشاعر نفسه ، ثم عند الصاق الغدر بسيف الدولة
يستخدم أبى الطيب صيغة مبالغة " غدارا " ولا يكتفى باستخدام اسم
الفاعل الذى استخدمه عند التماسه الوفاً من قلبه " وانما " فهو يلتمس من
قلبه أقل شئ " من الوفاً ، وإن كانت هذه القسوة من أبى الطيب قسوة
ظاهرية ، إذ لا يزال يكن له فى أعماقه حبا صادقا يرى جسده كما قال عنه
من قبل .

يظل أبى الطيب وهو فى بلاط كافور مجسدا بطولته الذاتية ، بطولية
النضال ضد الزمير .

أرد من الأيام ما لا عسى وأشكو اليها بيتا وهى جند
يعاهدن حيا يجتمعن ويهله فكيف يحب يجتمعن ويهله ؟
أبى خلق الدنيا حبيبا تدومه فما طلبى منها حبيبا تدره (١)

وهذا تكرر فى هذه الابيات ، الاستفهامات الدالة على نضال أبى
الطيب ، الى جانب ما فيها من الفاظ " الشكوى " والبين ، والبعاد
والصد " تلك التى تجسد ما يعانيه أبى الطيب وهما نضال الاسام والزمن .

(١) ديوان أبى الطيب المعنى بشرح العكبرى ج ٢ ، ص ١٩ وما بعدها .

وتتردد نغمة الشكوى هذه في شعر أبي الطيب في هذه المرحلة
كثيرا ، وإن كانت الشكوى في أشعاره هذه - موظفة لخدمة غرضه الذي
يروم ، حين أرد أن يتغنى ببطولته الذاتية ، بطولة النضال ضد الزمن
وخاصة في هذه الفترة من حياته :

أما تغلط الأيام في بأن أرى بخيضا تنائي أوجيبا تقرب ؟ (١)

وهو استفهام أيضا يتجسد معه نضال أبي الطيب للإمام وهو يحس
الغربة ، والبعد عن الأهل ، وخاصة إذا وافى العيد وهو غريب :

يضاحك في ذا العيد كل حبيب حزائي وأبي من أحب وأنسب
أحن إلى أهلي وأهوى لقائمهم وأين من المشتاق عنقا مغرب ؟

وهكذا تتأزر ألفاظ مثل (يضاحك كل حبيب حزائي / أبكي / أندب
/ أحن إلى أهلي : أهوى لقائمهم) في تجسيد ما يعانيه أبو الطيب
ثم يأتي الاستفهام الذي تتضمنه الشطرة الأخيرة فتكتمل به خطوط
أسامة الرجل ، الذي لا يكف عن نضال الزمن وأحداث الحياة ، وتتوالى
أشعار أبي الطيب الذاتية في "مسود" تلك الأشعار التي تغلف لفظة
غلالة من الحزن ، والكآبة اللذين تجسدهما ألفاظ أبي الطيب ، وتراكيبه
ومعانيه ، فهو لا يمل ذكر أحيائه النائين ، وذكر غيبته ، ويحدث نفسه
بوحشته ، ونضاله المستمر مع الزمن :

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري ج ١ ، ص ١٧٧ وما بعدها .

بم التعلل؟ لا أهل ، ولا وطن ، ولا نديم ، ولا كأس ، ولا سكن (١)

وهكذا يأتي الاستفهام في أول البيت مجسداً أحزاني أبي الطيب
بأسه ، ثم تأتي بعد ذلك وأوات العطف المعيدة ، ولا الثانية ، التي
تكررت خمس مرات في هذا البيت ، والتي تنفي وجود من بهم يتعلل المرء
صغير في مواجهة التوازل والخطوب من أهل ، أو وطن ، أو نديم
أو كأس ، أو سكن ، وإن من الصعب على الإنسان أن يحرم من أهله ، ولو
كان في وطنه ، فما بالنا بمن حرم من أهله ، ووطنه ، ثم لم يجد في غربته
نديماً ، ولا صاحباً ، تسكن إليه نفسه ، فذلك هو الضياع بعينه ، وذلك
ما تجسده لغة بيت أبي الطيب .

على أن اظهار أبي الطيب لأحزانه لا يقلل من شأن بطولته النفاذية
شيئاً بل على العكس ، هو تجسيد لها ، وتأكيدها عليها فإن من يواجهه
صائب الزمن هذه . ونكباته تلك لحري بأن يكون من المتأصلين الذين
يستشعرون بطولتهم في هذا النفال المستمر مع الزمن وأحداث الحياة
وتصيب أبا الطيب وهو بصرحى تلزمه الفراغ ، وإن العرض لشديد قلما
ولكن ما أشده . وما أقصاه إذا كان المريف غريباً ، وحيداً ، في بلاد
ليست هي بلاده ، وبين أناس ليسوا هم أهله وذووه ، سجل أبو الطيب
في ذلك أروع قصائد الذاتية ، إذ تجسد لغتها أنا مريض ، وأوهنات
غريب وحيد ، وفي نفس الوقت تجسد قوة متأمل وجد ذاته واستشعرها من
خلال ذلك النفال :

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري ج ٤ ، ص ٢٢٢ وما بعدها .

أقمت بأرض مصر فلا ورائسى تخب بى العلى ولا أسمى
 وطنى الفراعن وكان جنسى يعمل لقائه فى كل عمام
 قليل عايدى ، سقم فؤادى كثير حامدى صعب مرامى
 قليل الجسم ، متنوع القيام شديد السكر ، من غير العدام (١)

والإبيات تحوى من التركيبات اللغوية ما تجسد الآم المتنبي النفسية قبل الجسمية ، من ذلك : " ملنى الفراعن - قليل عايدى - سقم فؤادى - قليل الجسم - متنوع القيام) فان هناك ما قد اذى نفسه ، وآلم قلبه الى جانب علة جمده وضعف قوته ، وان كان أبو الطيب لا يزال يسرد أن حساده كثر ، وأن مرامه صعب ، فط ذلك منه الا تأكيدا وتجسيـد لبطولته النضالية ، وإلى جانب ما سبق فان فى الإبيات من الحرس على الصنعة اللغوية الطباق بين " قليل " و " كثير " والتوافق النغوى بين " عايدى " و " حامدى " الى غير ذلك من الدقائق اللغوية التى تجعل لشعر أبى الطيب مذاقا خاصا ، وطعما متميزا .

ولغة هذه القصيدة كلها يلفها هذا الحزن ، وتغشاها تلك الظلال القائمة وهى بهذه الخصائص تسامر الجو النفسى الذى يعيشه أبو الطيب غريبا ، وحيدا ، متاخلا فى بطولة ، وصبر لمصائب الزمن ، وتكبات الجاة التى أضعفت جسمه ، وأنهكت قواه ، ولكنها لم تستطع أن توهن من قوة نفسه ، أو أن تفتنى عند هذه النفس القوية التى خلقت للنضال والصبر

(١) ديوان أبى الطيب المتنبي ج ٤ ، ص ١٤٥ : ١٤٦ .

فيه ، الا أن أبا الطيب قد عوضه الله عن كافور وهو مصر بفاتك الرومي الذي اتصل به العتبي بعد جهد ، ومشقة ، وبعد أن أخذ عليه كافور الطريق من كل وجه ، فهدأت نفسه إلى جوار ذلك الأمير ، الذي لم يمهله القدر طويلا بعد صحبة أبي الطيب به فمات ولما تسكن نفس أبي الطيب ، ولما يستريح قوافده وراثه العتبي رثا ٢ حارا ، عادقا ، يعد من أعذب شعوره الذاتية لم يكن يرى فاتكا هذا بقدر ما كان ييكن نفسه ، وتندب حظه موصل من خلال ذلك الرثا تجسده لبطولته النضالية في مواجهة خطوب الزمن وصائب الحياة :

الحزن يقلق والتجمل يردع ^(١) والد مع بينهما عسى طبع

وهكذا يبدأ العتبي شطري البيت بكلمتي " الحزن " و " الدمع " ويدل على تدفق الحزن وقسوته بلفظه " يردع " التي تجسد معني النفال الذي يحس أبو الطيب ببطولته من خلاله " ثم يأتي في الاخبار عن الدمع بصيغتين من صيغ المبالغة " عسى " طبع " ثم قدم لفظه " عسى " وعلى " طبع " ليفيد أن دمه أنت آخر أحواله الطاعة المبالغة لآحزانه ، فقد كان طيعا أكثر من عسا ، أو أن دمه أمسك في مآقيه تجملا لكنه لم يستطع الاستمرار في جموده فانهمر طيعا لآحزانه المتدفقة الانية :

ويستورد أبو الطيب في بكائه فاتكا ، وفجأة ينتقل من الرثا إلى الهجا فيأخذ في هجا كافور وهو في معرض رثا فاتك ، وكأنه كانت

(١) ديوان أبي الطيب العتبي بشرح العكبري ج ٢ ص ٢٦٨ وطبعها .

تتراعى لعينيه صورتا الرجلين فكان يرى الفرق بينهما شاسعا ، وهما سلا (من وجهة نظره) ، فلم يستطع الا أن يقارن بينهما وهو يرى الراحل منهما ، فلم تكن نتيجة هذه المقارنة الا هجا " لمن بقا " منها على قيد الحياة ، والشاعر في كلتا الحالتين يهيك نفسه ، ويندب خظه اما بموت فاتهك ، أو ببقا " كافر " على قيد الحياة ، فهو لا يرى ولا يهجو وإنما جاء الرثا " والهجا " عند موظفين لخدمة غرضه الحقيقي وهو تجسيد بطولته النضالية ضد الزمن وصائبه هذه العصائب التي منها رحيل " فاتهك " وقا " " كافر " وهو في الحالتين مناضل اما يصبره على رحيل ذاك الصديق واما بمواجهته لعدو يبقى على قيد الحياة :

فها لوجهك يا زمان فانه وجه له من كل لوم برقع

أيموت مثل أبي شجاع فاتهك صغيح حاسده الخصى الا وكع ؟

ولان أبا الطيب قد مضى من حصاده بخطب عظيم ، ولان " الحسد " كان عنده من أقسى أنواع العداوة وأشد ها - كما مر بنا - فانه لا يرى كافر الا حاسدا لفاتهك ، هذا الى جانب ما في البيت الثاني من استفهام يحمل معنى التحسر والالام ، وما فيه من طباق بين " يموت " و " يعيش " وبين " أبي شجاع فاتهك " و " الخصى الا وكع " وان كان الطباق الأخير طباقا عند المتنبي وفي رأيه هو ، فقد جاء به على سبيل المقابلة بين شخصيتين يرى أن بينهما بونا شاسعا ، وفرقا كبيرا .

وتدفعه هذه المقابلة ، الى تقرير حقيقة يراها هو ، وان لم يرها غيره :

أبقيت أكذب كاذب أبقيته وأخذت أصدق من يقول ويسمع

وتركت أنتن ريحة مذمومة . وسلبت أطيب ريحة تنفوس

والتركيبات اللغوية في البيتين دقيقة الى مدى بعيد ، ودالة على صنعه فنية تميز بها أبو الطيب المتنبي على الرغم من الحالة النفسية التي يعانيها عند نظم هذه القصيدة ففي التكرار في (أقيت - أقيت) تجسيدا لمدى الحسرة والالام والحزن الشديد ، وفي عطف (يسمع) على (يقول) دلالة على أن " فانكا " كان ذا شخصية متميزة ، لا يقول الا الصدق ، ولا يسمع الا الصدق كذلك ، فلا يجروا أحد على ما رأته وناقضه ثم تأتي المقابلة بين كل شطرة في البيتين والشطرة التي تليها ، وهذا كله الى جانب ما في قوله (سلبت) من تجسيد لقسوة الموت ، وسطوته وجبروته .

وتتوالى هجائيات أبي الطيب لكافور ، ولم تكن معظمها - هجائيات بقدر ما كانت تجسيدا لبطولته ، ونضاله للزمن ، وصاحبه :

أما في هذه الدنيا كريم تزول به عن القلب الهموم ؟

أما في هذه الدنيا مكان يسر بأهله الجار المقسيم ؟ (١)

وهكذا يأتي الاستفهام في البيتين مجسدا نضال أبي الطيب ، في مواجهة الحياة ، وقد أظلمت الدنيا في عينه فلم يعد يرى فيها كريما يخفف عن البؤسا " بؤسهم " ولم يعد يرى فيها مكانا يركن فيه الغريب الى أهله ، والبيتان يجسدان كذلك رحلة حياة أبي الطيب التي عاشها منتقلا من مكان الى مكان ، ومن بلاط الى بلاط ، فلم ير فيها

(١) ديوان الطيب المتنبي بشرح العكبري ج ٤ ، ص ١٥١ .

مايسره ، وكأنه من خلال رحلة حياته هذه قد عرف الناس ، كل الناس
وأحاط خيرا بكل مكان في هذا الوجود ، وتنازل الزمان والمكان بما فيها
ومن فيهما .

يوافى أبا الطيب عيد الاضحى لسنة خمسين وثلاثمائة ، وهو
" بعصر " يستعد للخروج منها ، وينتظر غلة " كافور " ورجاله ومنظم
أبو الطيب " دالية " التي يهجو فيها كافورا في يوم عرفه قبل مسيرة من
" مصر " بيوم واحد ، ويستقبلها استهلالا يجسد نضال ذلك الغريب
للزمن إذ لم يجد في غريته من ينسبه أحبا وأهله :

عيد بآية حال عدت يا عيد بما مضى ؟ أم بأمر فيك تجد يد ؟
أما الأحبة فالهيدا * دونهم فليت دونك بيذا * دونها بيد (١)

وهكذا تنصدر البيلمين لفظة " عيد " التي يأتي بها أبو الطيب تكررة
وقف عندها لحظة متحسرا على قدوم عيد يراء الناس حبيبا الى نفوسهم
ويراء هو بخيفا كأشد ما يكون اليأس ، ثم يتبع هذه اللفظة باستفهامات
متتابعة تتجسد معها حسرتة وحرزته " بآية حال عدت يا عيد ؟ ، بما مضى ؟
أم بأمر فيك تجد يد ؟ " وهكذا تتوالى الاستفهامات سريعة ، متتابعة
مشحونة بمواقف الحزن ، والألم ، والحسرة التي تجسد معاناة متناضل
عاش حياته يتنازل الزمن ويستشعر بطولته في ذلك النضال ثم تأتي الشطرة
الأولى من البيت الثاني اجابة عن كل هذه التساؤلات ، أما الاحبسة

(١) ديوان الطيب العنتبي بشرح العكبري ج ٢ ، ص ٢٩ وما بعدها .

فالبيدا* دونهم ، وهي اجابة - على اختصارها - تحمل من المعاناة
ومقاساة الحزن ما تحمل ، ثم تتبعها الشطرة الثانية من البيت نفسه مترجمة
بخض أبي الطيب لذلك العيد ، الذى يواقيه وهو يبعد عن أهله
وهو فيها أبو الطيب فى التمنى ليس فى تمنى قرب أحبائه - وإنما فى تمنى
بعد العيد عنه ، فهو - على ما يظهر - قد فقد الأمل فى قرب هؤلاء*
الاحبة " فليت دونك بيدادونها بيد " "أتى أبو الطيب بلفظه "البيدا"
مفردة عند حديثه عن بعد أهله ، ولكنه عند تمنى بعد العيد يأتى
بها " جمعا " (بيدا) ليس هذا فحسب بل " دونها بيد " مما يجسد
مدى ما يعانيه الرجل من أحزان ، وآلام ، سببها له غريته ، ووحده
وبعد عن أهله وذويه ، ومدى ما يجسد من اصرار على النفي ، وتكرار
الاستغاثات - كثيرا - فى هذه القصيدة - تلك الاستغاثات التى تتأرز
جميعها فى تجسيد حالة أبي الطيب النفسية ، وذلك من خل :

ماذا لقيت من الدنيا وأعجبها أنى بما أنا بك منه محسود ؟

والى جانب هذا الاستغاث المجسد لأحزان أبي الطيب ، تأتى
لفظة " محسود " التى هى من مشتقات " الحسد " الذى عانى منه
المتنبي كثيرا ، والذي تردد فى هذه الفترة من حياته فى أشعاره بشكل
ملحوظ ، وكان سر تناضله للزمن والناس .

وهكذا كانت لغة الشعر الذاتى عند أبي الطيب مسيطرة للجو النفسى
المسيطر عليه ، فختلفت فى أشعاره باختلاف حالاته النفسية ، من قسوة
وعنف ، وشوة ، وغضب فى صباه وشبابه ، الى هدوء وسكون بعد لقائه

سيف الدولة أول الامر ، ثم الى عود للغضب والثورة بعد أن خاب أمله
ورجاؤه وهو في بلاط سيف الدولة ، ثم بعد أن أحس الغربة ، والوحدة
والوحشة ، في " مصر " وهو لدى كافور الاخشيدى ، وإن كانت فنى
معظمها قد وظفت لتحقيق ذاتية أبى الطيب التى ظهرت فى احساسه
ببطولة النضال ضد الاعاجم ضد الزمن والناس ومضاييق الحياة وإذا ما تركنا
أبا الطيب المقتنى محاولين تتبع لغة الشعر الذاتى عن معاصرة أبى فراس
الحدادى ، لمعرفة خصائصها الفنية وجسد تلك - أيضا - أن لغة الشعر
الذاتى عند أبى فراس قد ارتبطت ، كذلك الى حقد بعيد - بحالته
التفسيه مثلما كان الحال عند أبى الطيب المقتنى .

ف لغة الشعر الذاتى عند أبى فراس فى بداية حياته أيام بطولاته
الحربية ، وأمجاده العسكرية ، وقاداته جيوش ابن عمه فى مواجهة
أعدائهم من الروم ، تختلف اختلافا بينا مع لغة شعره الذاتى بعد أن
أصبح أسيرا لدى الروم ، ذلك أن لغة شعره الذاتى بعد أسره قد
اكتنفتها الاحزان ، وسيطرت عليها الالام ، فى الوقت الذى فاضت فيه لغة
شعره الذاتى قبل أسره بالقوة ، والعنف ، وزخرت بألفاظ الحرب والقتال
والسيف والرمح ، الى غير ذلك من تصوير للاعداد العسكرية ، والبطولات
الحربية ، فقد وظف أبو فراس اللغة لتحقيق ذاته من خلال شعره ولتجسيد
احساسه ببطولة النصر أو احساسه بجرح الهزيمة مثال ذلك ما جاء فى
احدى قصائد أبى فراس التى يجسد فيها أمجاده ، وأمجاد قومه ، قبل
أسره ، والتى تفيض بالعنف والقوة ، مجسدة احساسه ببطولة النصر :

هذا وكم من غمة كشفتها بشيا الظبا وتوقد الخرصان

متجردا فردا بخير مساعد غير الجواد ومرفه وسنان
فاذا بطشت بطشت ليثاها سلا واذا نطقت نطقت عن تيهان
واذا قصدت لحاجة لم يشنني خوف الردى وتصرف الازمان (١)

وهكذا تحفل الابيات بما يساير الجو النفس لامير فارس ، يتفنى
ببطولته ، ويفخر بمجاده ، وتزخر باللفاظ التي تجسد هذه البطولة وتلك
الامجاد ، من مثل : (كم من غمة ، كشفتها ، شبا الظبا ، متجردا
فردا ، بخير مساعد ، جواد ، مرفه ، سنان ، بطشت ، ليثا ، باسلا ،
لم يشنني ، خوف الردى) .

هذا الى جانب اسم الاشارة " هذا " الذي استهل به أبو فراس
هذه الابيات والذي يدل على كثرة ما عدد أبو فراس من مفاخر ، ومناقب
وكذلك " كم " التي تغيد الكثرة ، ثم حرصه على تشديد " كشفتها " وماغى
هذا التشديد من دلالة على العنف والقوة ، وملائمتها " للغمه " وماغى
تكرار (بطشت) و (نطقت) ، واستخدام " اذا " في البيت الثالث
كأداة شرط تغيد التحقيق والتوكيد ، وتكرارها في الشطر الثاني من
البيت نفسه ، ثم إعادة تكرارها في البيت الذي يليه ، وكذلك ايثار أبي
فراس لاستخدام الأفعال الماضية على المضارعة وذلك في قوله : (بطشت
ونطقت - وقصدت) ليغيد أن ذلك حدث بالفعل ، هذا كله الى جانب
استخدام أبي فراس لشعائر المتكلم التي كثر ، وتعددت في هذه
الابيات .

(١) ديوان أبي فراس الحمداني ، تحقيق / سامي الداهن ج ٢ ص

كل ذلك يدل على مدى ملاءمة لغة هذا الشعر الذاتي للحالـة
النفسية للشاعر ، كما يدل على حرص أبي فراس على اختيار الالفاظ التي
تجسد ما يستشعره في أعماقه .

وإذا كانت هذه الأبيات مما اختص أبو فراس نفسه بها ، فإنه يتبعها
بأبيات تحمل ذات الخصائص الفنية من الناحية اللغوية ، يتغنّى فيها
بأوجاد قومه من بني حمدان ، وكلها تجسيد لذلك الاحساس الذي غمر
نفس أبي فراس قبل أسره أحسان الفرجة بالانتصارات المتلاحقة واستشعاره
البطولة في ذلك .

وإذا فخرت بالشـم الـلى	شادوا المكارم من بني حمدان
نحن الملوك بنو الملوك أولى	العلا ومعادن السادات من عدنان
والمجد يعلم أننا أركانـه	والبيت معتد على الأركان

وكذلك تأتي هذه الأبيات الأخيرة يتأزر مع ما قبلها في تجسيد أمجاد
أبي فراس ، إذ يعطفها على ما سبقها باستهلالها بأداة الشرط " إذا " .
مبسوطة بواو العطف ثم يكرر " فخرت " كما كرر من قبل " يظفت ونطقـت " .
وفي ذلك التكرار ما فيه من " نغم " يؤكد أن أبا فراس في مقام " تفنن " .
حقيقي ، ثم حرصه أيضا على استخدام ضمائر " المتكلمين " الذي يتمشى
مع من يفخر بهم ، وتكراره لفظة " الملوك " وصفاتها ، ثم إشارة لفظة
" يعلم " في قوله : " والمجد يعلم " لادلالها أكثر من غيرها على
تأكيد ما ينسب إلى نفسه ، وقومه .

كذلك جاءت لغة أبي فراس في قصيدته الذاتية " البائية " التي
 يفخر فيها بأبن عمه " سيف الدولة " ، وجيوشه ، وكذلك بنفسه بوصفه واحد
 من كرامة هذه الحيوض - أقول - جاءت لفته في هذه القصيدة أيضا ملائمة
 للجول للنفس الذي يسيطر على الشاعر وهو في مقام الفخر ، وتجسيد
 احساسه ببطولة انتصاراته العديدة والمبهرة :

ولما ثار سيف الدين ثربا كما هيبت أسادا غضا ا
 أسنته اذا لاقى طعانا صواره اذا لاقى ضرابا ا
 دعانا والاسنة مشرعات فكنا عند عودته الجوابا ا
 صنائع فاق صانعها فقامت وغرس طاب غارمه فطابا ا
 وكنا كالسهم اذا أصابت مراميها فراميها أصابا (١) ا

وهكذا تزخر الابيات بالفاظ يتجلى معها مدى قوة سيف الدولة
 وجيوشه ، في كل معركة يخوضونها ففيها : (أسنة - صوارم - وسهام)
 وفيها - تبعاً لذلك - (طعان - وخراب - رمس) ، واطلك الاسنة
 والصوارم والسهام الا جنود ، وأبو فراس واحد منهم ، أولئك الجنود
 الذين هم في حقيقتهم الى جانب مضائهم ، وشدة عزمهم ، أسود ليسوا
 أسودا فحسب بل أسودا غضا .

وهكذا كانت لغة الشعر الذاتي لأبي فراس قبل أسره ، غنية قوية

(١) ديوان أبي فراس الحمداني ، تحقيق / سامي الدهان ، ج ٢ ، ص
 ١٢ وما بعدها .

كعنفه ، وقوته ، بوصفه فارسا كها ، ومظلا شجاعا .

الا أن لغة شعره في أسره - وكما قلت في موضع سابق - قد خيمت عليها ظلال قاشمة من حزن ، وأسى ، وتلك نتيجة طبيعية لفارس عاش حياته محاربا يرى سعادته في خوض المعارك ، ومجد لذته في نصريه تلوه نصر ثم فجأة يجد نفسه جريحا ، أسيرا ، سجيناً ، وحيدا ، غريبا ، ينتاب به بين الحين والحين حنين جارف الى أهله النائيين ، خاصة أمه تلك العجوز التي مات عنها زوجها ولما يبلغ ابنها الوحيد سنته الثالثة من عمره - ثم ها هو ذا وحدها يقع أسيرا في أيدي أعدائه ، وأعداء الدين من الروم البزنطيين .

والى جانب هذا الحنين الى أهله فقد كان ينتابه - أيضا - حنين الى أيام عزه ، ومجده ، ونصره ، ذلك الحنين الذي يجسده أبو فراس من خلال لغته الشعرية لحدى قصائد الذاتية التي كتب بها من الأسر الى ابن عمه " سيف الدولة " مدفوعا فيها باحساسه بجرح الهزيمة التي لحقته موقع بسببها في أسر الروم :

الى الله أشكو أننا بمكازل تحكم في أساد هن كلاب
تمر الليالي ليس للثمن موضع لدى ولا للمعتفين جناب
ولا شدلى سرج على ظهر صاحب ولا ضربتلى بالعر قباب
ولا برقتلى في اللقا قواطع ولا لمعتلى في الحروب حراب^(١)

(١) ديوان أبي فراس الحمداني ، تحقيق / الدهان ، ج ٢ ، ص ٢٣ .

وإذا كان أبو فراس يردد من خلال هذه الأبيات ذكر جواده وسيوفه
وحرا به ، وقبابه ، إلا أن حزنه كامن في أنها سيوف قد أعدت ، وحرا ب
لم تعد لامعة وجياد لم تسرج ، وقباب لم تضرب لذلك الفارس بالعرا*
وأين هو من ذلك كله ، وقد أصبح جريحاً ، أسيراً ، سجيناً ، لدى
من أذاقهم من قتل كوكب الموت ، ومرارة الذل ، والانتكاس والانهزام ؟

أولئك الذين يراهم الشاعر "كلاباً" قد واثقاها الحظ فتحكمت فسى
أسدها وذلك مما يضاعف أحزانه ، فلا يجد بداً من أن يشكو ، ولكنه
لا يشكو إلا إلى الله .

وتتردد هذه النقاط نفسها ، وتلك الألفاظ ذاتها في معظم قصائد
أبي فراس في أسره - إن لم تكن كلها - يقول أبو فراس مروداً ذلك نفسه
في قصيدة أخرى يكتب بها أيضاً إلى سيف الدولة يتجسد من خلالها كذلك
احساسه بجرح الهزيمة ، ذلك الاحساس الذي تؤكد له هذه القصيدة
بدلالاتها اللفظية ، وما تحمل من شحنات عاطفية :

هل تعطفان على العليل	لا بالأسير ولا القتييل ؟
بانت نظيره الأكـ	ف سحابة الليل الطويل
يرعى النجوم السائـ	ت من الطلوع إلى الأفول
فقد الضيوف مكانه	وكا* أبنا* المبيـ
واستوحشت لفراقه	يوم الوغى سوب الخـ
وتطلعت سمر الرما	ح وأعدت بيض القـ

(١) أبو فراس الحمداني ، تحقيق / إبراهيم السامرائي ، ص ١٤٤

فهي نفسها ذات المعاني التي ترددت في قصيدة أبي فراس
 " البائية " السابقة وهي صدر حزنه ، وسر شقائه ، وبعث أساء فرماحه
 قد تعطلت ، وسيوفه قد أغدت ، واستوحشت لفراقه خيله إذ لم تنره
 يوم الوقي مثلما عودها دائما ، ليس هذا فحسب بل افتقده الضيوف
 وكأنا السبيل ، هذا وما يتبعه من الأم نفسية إلى جانب ما منى به من
 الأم جسدية تمثلت في جراحه التي أصبح معها لا بالسير الصحيح الجسم
 ولا القليل الذي استراح من الأم جراحه وإلى جانب هذه القواعد التي
 كتبها أبو فراس من أسره إلى ابن عمه والتي جاءت اللغة فيها مجسدة
 لآلامه وأحزانه ، فإن هناك قصائد كتب بها إلى أمه ، تلك القصائد التي
 جاءت اللغة فيها مجسدة لأحزانه وآلامه أكثر بكثير مما جسدت له لغة قصائده
 لابن عمه ، التي كان يبدو في معظمها غاضبا ، غائبا ، قاسيا ، ولكنه مع
 أمه لم يكن فيه شيء من ذلك الذي بدر منه مع ابن عمه ، في معظم
 الأحيان ، وإن كان يتخلل عن ذلك سريعا لما يربطه بابن عمه من حب
 وود صادق ، وقربة ، ونسب أكيد .

من قصائد التي كتبها إلى أمه ، والتي زخرت بالالفاظ الجريئة
 الدامية ، التي يظهر من خلالها مدى حزن أبي فراس وأساه ، والتي
 تجسد احساسه بجرح هزيمته ، وأسره ، قصيدته التي يستهلها بقوله :

صابي جليل والعزائم جميل	وظني بأن الله سوف يدبيل
جراح وأسر واشتياق وغربة	أحملني بعدها لحصول
وانني في هذا الصباح لصالح	ولكن خطبي في الظلام جليل

وما نال مني الأسر ما تروا فيه ولكنني دأيت الجراح عليل
جراح تحامها الأساة مخوفة وسقمان باد منها ودخيل
وأسرأ قاسية وليل نجومه أرى كل شيء غيرهن يسزل (١)

وهكذا يستهل أبو فراس أبياته بهذا التركيب المفرغ "صايب جليل" والذي يتبعه بما حاول من خلاله التخفيف عن نفسه ، بل عن أمه تلك العجوز البائسة فيحاول جاهدا أن يتصبر ، ويتعزى ، ويتوقع الخير ولكنه لا يستطيع الاستمرار في هذا التصبر ، وذلك التعزى ، فيأخذ في البيت الثاني وما يليه في حشد هذا الكم الهائل من الالفاظ ، والتركيب التي تجسد أحزانه وآلامه ، هذه الآلام ، وتلك الأحزان التي تقتل فيه كل تصبر وتعزى وذلك من مثل : (جراح - أسر - اشتياق ، غيرة - خطب - سقمان - ليل طويل) ثم تكرر للجراح أكثر من مرة وإثارة ذكر " الدائمة " منها وكذلك تكرر " للأسر " الذي لم يعان من شيء أكثر مما عانى منه حتى وإن حاول أن يخفي ذلك ، كما يفعل في البيت الرابع من هذه الأبيات ، حين يذكر أن ذلك الأسر لم يزل منه ، ولكن جراحه دامية ، وإن كان ذلك منه محاولة بائسة لاخفا "ضعفه" ، وحزنه أمام ذلك الأسر ، يؤكد ذلك ذكره له أكثر من مرة في قوله : " جراح وأسر " وفي قوله : " وأسرا قاسية " وما ذلك التصبر منه ، ومحاولة اخفا "ضعفه" أمام ذلك الأسر ، إلا شبيه بما كان من أبي الطيب المقتبى حين دأته الحمى ، فأخذ في سرد أحزانه ، وآلامه ، ثم حاول أن يبدو أكثر

(١) ديوان أبي فراس الحمداني / تحقيق الدهان ج ٢ ص ٣١٣ ، ٣١٤ .

تجلدا ، فقال : " كثير حاسدي " " صعب مرامي " ، بعد قوله " قليل
عائدي ، سقم فؤادي " وكأنه عز عليه أن يضعف حتى وهو في مواجهة
مع العرض ، وكذلك فعل أبو فراس ، فكلاهما قد استشعر البطولة في
نفسه ، صبر على من كان مثلها أن تضعف هذه البطولة أمام أي شيء ،
حتى لو كان ذلك الشيء مرضا أو أسرا .

والى جانب ذلك كله فإن ما يدل على دقة أبي فراس في اختيار ألفاظه
ما جاء في البيت الثالث من هذه الأبيات حين ذكر الصباح " ثم طابسق
بينه وبين " الظلام " مومرا " الظلام " على " الصبا " لما في هذه
اللفظة من إيحاء بالرب ، والفرح ، وملائمة للفتحة " الخطب " التي
قرنها أبو فراس بذلك " الظلام " ، وكذلك ملائمتها للحالة النفسية التي
كانت تسيطر على أبي فراس وهو يكتب بهذه الأبيات إلى أمه .

وكذلك جاءت كل قصيدة أبي فراس التي كتبها من أسره إلى أمه
جاءت مجسدة لأحزانه ، وآلامه ، وإن كان أروعها جميعا ، وأدلىها على
حزن الشاعر ، وآلامه ، تلك التي رثى بها أمه حين ماتت وهو لا يزال عند
الرب أسيرا ، فأضاف موتها إلى أعزائه حزنا هو أعمدها وأقساها ، وإلى
آلامها وأوجعها ، وإلى جانب هذه الأحزان ، وتلك الآلام
فقد زاد تبعوت تلك الأم خلوها ذلك الابن الأسير الجريح ، وفواجعه
ولذلك كان ذلك الحزن الجديد ، وهذا الخطب الوارد ، وتلك المفاجعة
النازلة ، أعظم أحزان أبي فراس ، وألم خطبه وفواجعه واعتقاده أن أسره
كان أحد أسباب موت هذه الأم البائسة الحزينة ، بل كان أعظم أسبابه
لذلك كله جاءت لغة هذه القصيدة حاملة بين ثناياها كل أحزان أبي فراس

أبى فراس ، ومجسدة لآلامه جميعا ، ول تنظر اليه في أول تصيدته وقد بدا
كمن أصابه ما أفقد به وعيه ، فأخذ ينادى هذه الراحلة ، وبينه وبينها
الآف الأميال ، بل الأكثر من ذلك أنها أصبحت في عالم غير ذلك العالم
الذى لا يزال الشاعر يعيش فيه ، ولكنه الحزن ، ولالم ، والضياح :

أيا أم الأسير سقاك غيث يكره ذاك ملقى الأسير
أيا أم الأسير سقاك غيث تحير لا يقيم ولا يسير
أيا أم الأسير سقاك غيث إلى من يالفدا يأتي البشير
أيا أم الأسير لمن ترسى وقد مت الذواغب والشعور^(١)

وهكذا يتكرر في هذه الأبيات ذلك النداء " أيا أم الأسير " فيصدر
أشطر الأبيات الأولى جميعها ، وكأنه صرخة نادب ، فقد من كان آخر
أمله في هذه الحياة ، ثم يتكرر أيضا ذلك الدعا : " سقاك غيث "
وهو كل ما يملكه أى إنسان يواجه موت أحبائه ، فما بالناس بأسير جريح
يستشعر مرارة الهزيمة ولم يعد يملك حتى أمره ، فيأتى ذلك الدعا " مجسدا
ضعف الشاعر ، وقلة حيلته ، هذا إلى جانب ما في الأبيات من دقائق
لغوية أخرى من مثل استخدام أبى فراس للفظه : " الأسير " معروفة وكأنه
وحده الذى أسرامعانا في الاحساس بالحزن والالام وكذلك ما في البيتين
الاخرين من استفهام كثر استخدام أبى فراس له للدلالة على أحزانه
والآلام ، تماما مثلما فعل أبو الطيب المتنبي .

(١) ديوان أبى فراس الحمداني / تحقيق - الدهان ج ٢ ، ص ٢١٦ : ٢١٧

ذلك الاستفهام الذي يتكرر كثيرا في أبيات ختام هذه القصيدة
حين يقول أبو فراس :

الى من أشتكى ؟ ولمن أناجى اذا ضاقت بها فيها الصدور ؟
بأى دعا " داعية أوقسى بأى ضياء وجه أستشير ؟
بمن يستدفع القدر الموقسى ؟ بمن يستفتح الامر العسير ؟

وهكذا تجسد كثرة الاستفهامات في هذه الابيات أحزان أبي فراس
والآلام ، هذا الى جانب ما يدل على صنعه أبي فراس الفنية في تراكيبه
اللغوية ، والتي يظهرها حرصه على الملائمة ، والتوافق الدلالي بين
الفاظه كتكراره أداة واحدة للاستفهام في كل بيت ، واتباعها بلفظتين
متناهيتين ، متوافقتين من حيث نواعهما اسما كان أم فعلا ، ومن حيث
تناوُعهما للمعلوم أو للمجهول ، من مثل قوله : " الى من أشتكى ؟ ولمن
أناجى ؟ " ، وقوله : " بأى دعا " داعية ؟ بأى ضياء وجه ؟ " ، وقوله
" بمن يستدفع القدر ؟ بمن يستفتح الامر ؟ " وذلك كله مما يجعل الابيات
في معرض الغنى ، وان كان غنا في مقام الحزن ، والالام ، والاحساس
بالفقد ، لا غنا في مقام الفرح ، والبهجة السرور ، وهكذا يظهر مسدى
الفرق ، والاختلاف بين لغة شعر أبي فراس الذاتية قبل أسره ، ولغة
ذلك الشعر بعد أن أصبح أبو فراس أسيرا ، جريحا لدى أعدائه ، ويمكن
أن نقول كل أشعاره على ما أوردنا له من نماذج يتضح معها ذلك الاختلاف .

وإذا ما تركنا أبا الطيب المتنبي ، وأبا فراس الحمداني ، وتناولنا

شعر ثالثهما في التفتي ببطلنة ، الشريف الرضي ، الذي عاش حياته متغنيا ببطلته ، تلك التي استشعرها في نسبة الشريف الى آل البيت وجدنا أيضا أن ضماير المتكلم تكثر في أشعار الشريف بشكل ملحوظ كذلك يكثر في أشعاره ترديد لفظ " الحسد " ومشتقاته ، وهو يشترك مع أبي الطيب الممتن في هاتين الخاصيتين ، وإن كانت له - الى جانب ذلك - خاصية أخرى تميز لغة شعره الذاتي عن لغة الشعر الذاتي لشعراء القرن الرابع الهجري ، فهو يتمسك بطريقة الاقدمين ، ويحافظ على أساليبهم ، ومعانيهم ، وذلك راجع الى انتماؤه لاسرة نبيلة شريفة وأبنا مثل هذه الاسر يرون أن من واجهم المحافظة على قديمهم والتمسك به ، لانه - في نظرهم - تراث آبائهم ، وأجدادهم ، وشعر الشريف الرضي - الى جانب تمسكه بأساليب القدماء - قوى النسيج ، فيه متانة وسهولة ، ورومانه ، وفي غزله الذاتي رقة ، وتضبيب بالحجازيات ونساء " نجد " ، " مكة " ، " مسنى " ، وما ذلك منه الا تمسك بتراث الاقدمين ، ومحاولة الحفاظ عليه .

ومن أمثلة كثرة ورود ضماير المتكلم في أشعار الشريف الرضي في قوله معروض الفخر :

أنا ابن السابقين الى المعالي اذا الاعد البعيد ثنى البطا
اذا ركبو تضايقت الغياض وظل بعض جمعهم الغضا
نعاني من آباء الضم نيام أفاض على تلك الكبير

شأونا الناس أخلاقا لدانا - وأيماننا وطايلد واعتسلا (١)

وهكذا لا يخلو بيت من هذه الأبيات من ضمائر المتكلم مفردة كانت أو جمعا ، الجانب ما فيها من الفاظ ، وتراكيب ، تسابير جوا الفخر من مثل ، (السابقين الى المعالي ، اذا ركبوا تضايقت الغياني ، عطيل بعض جمعهم القضا) واكتفاؤه " ببعض جمعهم " عن كل ذلك الجمع تأكيد على عظمتهم ، ورهبتهم في قلوب أعدائهم ، وكذلك من مثل : (نعانى - أباء الضيم - الكبرياء - أخلاقا لدانا - اعتسلا) .

ثم يستطرد الشريف الرضى فيكثر من استخدام ضمير المتكلم (نحن) موثرا إياه على جميع ضمائر المتكلم :

ونحن التازلون بكل شفر - نريق على جوانبه الدمس

ونحن الخاضعون بكل هول - اذا دب الجيان به الفسرا

ونحن اللابسون لكل مجد - اذا شئت ادراعا وارثدا

وهكذا يتصدر الأبيات جميعها ضمير المتكلمين " نحن " مسبوقا بواو العطف التي توضح امتلاك قوم الشاعر لامجاد كثيرة ، وعديدة ، ثم يلي هذا الضمير خبر معرفي بال على وزن (الفاعلون) ويحرص الشريف على أن يأتي به معروفا معانا في التأكيد على تفردهم بهذه الامجاد والمفاخر ثم يجيء على هذا الوزن بالذات دليل على امتلاكهم لهذه الامجاد امتلاكا قاطعا ، وستعرا ، ثم يلي هذه المشتقات لفظة " كل " التي تفيسد

(١) ديوان الشريف الرضى - المجلد الاول ، ص ١٩ : ٢٠ .

الشمول مسبقة بحرف جر اما " الباء " أو " اللام " يليها مضاف اليه
يتناسب مع ذلك المشتق الذي يسبقه " الجار والمجرور " فتأتى لفظة
" نغر " ملائمة " للتأزليين " ولفظة " هول " ملائمة " للخاصين " ولفظة
" مجد " ملائمة " للباسين " مع حرص الشريف الرضى على أن يكون ذلك
الاسم الذى جاء مضافا اليه والذي اختتمت به أشطر الابيات الاولى ، على
وزن واحد هو " فعل " فالابيات الى جانب ما فيها من ضمائر المتكلمين
وما فيها من ألفاظ تجسد الامجاد ، والمفاخر فيها أيضا صنعة فنية
حرص عليها الشريف الرضى حتى تلائم جو التنغى الذى يشدو الشاعر من
خلا له بامجاد قومه ، ومفاخرهم ويحسد من خلا له بطولة انتماه اليه
هو " القوم " ومن أشعار الشريف الرضى التى تتردد فيها كذلك ضمائر
المتكلم بكثرة ملحوظة أيضا قوله فى معرض الفخر :

مناوى افا صهوة أو غارب ومناى اما زانغ أو قاصب
فى كل يوم تنتهينى عزمه وتعد أعناق الرجا مارب
قلب يصاد قنى الطلاب جراح ومن القلوب صادق وموارب
ما مذهبى الا التحم بالقنا بين الضلوع وللرجال مذاهب^(١)

وهكذا لا يخلو - أيضا - بيت من هذه الابيات من ضمير يعود على
الشاعر مجسدا ذاته ، ومضفيا على تنغيه نغمة الاعتزاز بالنفس ، هذا الى
جانب ما فى الابيات من ألفاظ تؤكد بطولة الشريف الرضى الحربية البلى

(١) ديوان الشريف الرضى ، المجلد الاول ، ص ٨٤ .

جانب بطولته النفسية بوصفه سليلا لآل البيت - رضى الله عنهم - ، وذلك من مثل : (صهوة - غارب - زاعف - قاضب - عزمة - مارب - جـ - ز -)
- التقحم - القبا) .

والى جانب ذلك كله - وكما قلت من قبل - فان لفظة الحسد ومشتقاتها تتردد فى أشعار الشريف الرضى بكثرة ملحوظة ، وهكذا كسل ناجح فى هذه الحياة ، لا بد وأن يكثر حاسدوه ، وشائنوه ، فى كل زمان ومكان ، فما بالتأ برجل ينتمى الى بيت عفيف ، ونسب شريف لا بد بالطبع أن يكون محسودا على ذلك الانتماء الذى يستشعر الشريف من خلاله بطولته الذاتية ومن أشعار الشريف الرضى التى تردت فيها لفظة " الحسد " ومشتقاتها ، قوله :

ولبى الذى حسد الرجال قديمة ان المناقب أية المحسود (١)
وقوله :

يقرب عيني أن أروح محسودا فما حسد الحساد غير نبيل (٢)
وان كانت نظرتي الى الحسد " فى هذا البيت تختلف مع نظرة كسل الناس له ، فهو يراه شيئا نبيلاً يثلج صدر المحسود حين يرى حساده ، يتميزون غيظاً منه ، وحسداً له ، وحقداً عليه .

وكذلك ترد لفظة الحسد أيضا فى قول الشريف الرضى :

(١) ديوان الشريف الرضى ، المجلد الاول ، ص ٢٨٧ .
(٢) المصدر السابق ، المجلد الثانى ، ص ١٥٢ .

ما رقع الواشون في ولفقوا قل لي فاما حاسد أو مشفق (١)
وقوله :

قد قلت للحساد حين تقارضوا حرق القلوب جوى وحرق الارم
لاتحسدوا المترادفين على ال على والغالبين على السنام لاكم (٢)
وهكذا يكثر رويد هذه اللفظة في أشعار الشريف الرضى الذاتية
وط هذه الابيات التي سقتها مستشهدا بها الا نماذج لهذه الاشعار
حيث يضيئ المقام عن الاستشهاد بجميعها .

ومن خصائص لغة الشعر الذاتي عند الشريف الرضى - وكما قلت من
قبل - تمسكه بأساليب القدام "حفاظا عليها" ، على أنها تراث قديم يجب
الاحتفاظ به ، والحفاظ عليه ، ولا سبيل الى ذلك الا باستعماله من حين
الى حين ، ومن ذلك قوله من قصيدة يرثى بها أباه ، ويخبر لها أفاضلها
بعليةا عليه احساسه ببطولته الذاتية بطولية الانتما "الى آل البيت :

من معشر تخذوا المكارم طعنة روي من الشرف الاعوا الا قدم
من جانيأ أو ذائد أو عاقر أو ماطر أو منعم أو مرغـم
وقروا على المعجـد المشيد هموم هم وتهانوا بالتاغل المتهدم
عيس ألف تقابلت شعبانـه في المعجـد شجر مقوم لمقوم

(١) المصدر السابق ، المجلد الثاني ، ص ٨٢ .
(٢) ديوان الشريف الرضى ، المجلد الثاني ، ص ٢٩٤ .

يتعاونون المكرمات ولادة من بين جد في المكارم وابنهم (١)

وكذلك يأتي في شعر الشريف الرضي ، ما يوضح اقتفاؤه أثر القدما*
وتسكبه بأساليبهم في قوله في معرض رثاء* الحسن - رضى الله عنه - :

يا قتيلا قوض الدهر به عبد الدين وأعلام الهدى (٢)

فهو يتأثر فيه برثاء* ، " جليلة بنت مرة " لزوجها " كليب بن وائل " الذي قتله أخوه " جساس بن مرة " ذلك الرثاء* الذي تقول فيه جليلة مخاطبة زوجها القتيل ، :

يا قتيلا قوض الدهر به سقف بيتي جميعا ومن وعيل

وأي من منزلة كليب بن وائل من منزلة الحسين بن علي - رضى الله عنهم الذي جمع إلى عروسته نسبة الشريف الذي يربطه برسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن أشعار الشريف الرضي التي يظهر فيها تسكبه بأساليب القدما* ، قوله مستهلا إحدى مرثياته لجده* " الحسين بن علي - رضى الله عنهما - " :

هذي المنازل بالغميم فنادها وأسكب سخي العين بخد جناحها
إن كان دين للمعالم فاقضه أو مهجة عند الطلول فنادها
يا هل تبل من الغليل اليهم إشرافه للركب فوق نجادها

(١) الصدر السابق ، المجلد الثاني ، ص ٢٩٤

(٢) الصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٤٥ .

نومى كمنعطف الجنة دونه سحم الخدود لهن ارب رمادها
ومناط أطناط ومقعد فتيه تخبو زناد الخى غير زنادها
ومجر أرسان الجياد لغلمه سحقوا البيوت بشقرها ويرادها (١)

وصحيح أن الشريف الرضى لم يبك الديار التي بكها الا قدمون ولكنه
يدكى ديار الشهيد - رضى الله عنه - والبيت ، الا أنه بدا متمسكا
بأسلوب القدماء ، مودا كثيرا من الفاظهم وتراكيبهم .

ومثلا تمسك الشريف الرضى بأساليب القدماء ، وحافظ عليها على
أنها تراث يجب الحفاظ عليه ، فقد جاء كذلك غزله الذاتى - وكما قلت
من قبل - مقصودا على الحجازيات ، وأهل " نجد " ، " مكة " ، " وفى " .
ولقد جاء غزله متميزا بركة أسلوبه وسهولة لغته ، تبدوا هذه السهولة
وطك الرقة فى قوله :

ولقد أقول لصاحب نهته فوق الرحالة والمطى رواقى
أوما شمت بذى الابطاح نفحه خلصت الى كبد الفتى المشتاق ؟
فجنى نسيم الشيخ من نجد له حرق الحشى وتحلب الانساق
أها على نفحات نجد انها رسل الهوى وأدلة الاشواق (٢)

والى جانب هذه الرقة فى الأسلوب ، والسهولة فى التراكيب ، نفسى

(١) ديوان الشريف الرضى ، المجلد الاول ، ص ٢٦٠ ، : ٢٦١

(٢) المصدر السابق ، المجلد الثانى ، ص ٧٨ .

هذه الابيات حنين الى نجد وأهلها ، وشيخها ، وحنين الشريف الرضى الى ذلك كله وهو ببغداد عاصمة الخلافة آن ذاك ، وحاضرتها لدليل على حنينه ، وارتباطه بتلك الارض التي شهدت حياة آبائه وأجداده ذلك الحنين الذى يدفعه اليه احساسه ببطولة الانتفا* الى آل البيت وكذلك يأتى غزله رقيق الاسلوب ، سهل العبارة فى قصيدته " الكافية " التى يقول فيها :

ياظبية البان ترى فى خطاظه ليهنك اليوم أن القلب مرعاك
الما* عندك مبدول لشارسه وليس يرويك الا مدعى الباكى (١)

وتستمر أبيات هذه القصيدة كلها محافظة على هذه الرقة ، وتلك السهولة ، وفى قصيدة أخرى للشريف الرضى فى الغزل بنما* " مكة معنى " يلتزم الشريف فيها أيضا هذه الرقة فى الاسلوب ، وتلك السهولة فى التراكيب ، يقول فيها :

عاد الهوى بظبيها*	كة للقلوب كما بداهها
وخبت عليك معنى	تباريح الخرام ومازهاها
طربا على طرب يهها	يادين قلبك من جواهرها
انى علقت طلى معنى	ليما* يقتلنى لماهاها
راحت مع الغزلان قد	لعبت بقلبي ما كهاها (٢)

(١) ديوان الشريف الرضى - المجلد الثانى ، ج ١ ، ص ١٠٧

(٢) الصدر السابق - المجلد الثانى ، ص ٥٦٦ : ٥٦٧ .

وتستمر كذلك هذه الرقة ، وتلك السهولة ، حتى ينتهي الشريف الرضي

الرضى من قصيدته تلك ، التي يبدو من خلالها مرتبطاً " بمكة - ومنى " - إلى حد بعيد - لا لما فيهما من نماذج حسان قد ملين ليه كما يتوهم من غولته ، ولكن لان على أرضهما الطيبة الظاهرة عاش أسلافه ، وإساقه وأجداده ، وآله من آل البيت - رض الله عنهم جميعاً - ، أولئك الذين حس الشريف الرضى ببطولة الانتماء اليهم ، وإذا ما تركنا الشريف الرضى إلى تلميذه مهيار الديلمي ، وجدناه يتهجى تهج الشريف الرضى بوصفه أستاذه ، فيتقنى أثره .

ما يتضح معه أنه متأثر كذلك بعقدته النفسية حتى وهو يختار لشعره ، محاولاً أن يتغلب على احساسه بالشعوبية الذي كان من أسس عقده .

يقول د / شوقي ضيف ، في ذلك : " ان الشريف الرضى هو الذي عرف مهياراً أدبياً ، ومضى معه يشقه ، ويدويه ، حتى خرج شاعراً بارعاً والشريف بذلك يعد أستاذه الفني فلا غرابة إذا وجدنا التلميذ ينسج على منوال أستاذه ، وهو تسج يلاحظ من جهتين :
* جهة معارضة لكثير من قصائد الرضى ، يأخذ منه الوزن ، والقافية وينظم على غرارته .

* ومن جهة ثانية لعلها أهم هي تشابه اتجاهاته الشعرية " . (١)

والى جانب ذلك ففي شعره الذاتى قد ترسم مهيار خطاً أستاذه

(١) عصر الدول والامارات ، د / شوقي ضيف ، ص ٣٧٥ : ٣٧٦ .

فحذا حذوه ، في تمسكه بأساليب القدماء ، وفي استعماله لالفاظ كسر استعمال الشريف لها ، مثل لفظة " الحسد " ومشتقاتها تلك التي استخدمها - أيضا - أبو الطيب المتنبي بكثرة ملحوظة ، وكذلك أكثر مهبّار من الفخر الذي أكثر منه أستاذه ، وإذا كان الشريف الرضى قد فخر بعروسته ، ونسبه ، ومحتد الشريف ، فكذلك فخر مهبّار بفارسيه ، ونسبه الذي يعدّه - هو الآخر - نسباً شريفاً ، مثلما رأينا في الباب الثالث من هذا البحث .

تتردد لفظة " الحسد " ومشتقاتها عند مهبّار كثيراً ، مثلما ترددت عند الشريف الرضى (أستاذه) - كما قلت - ومن مثل ذلك قوله :

أتعلمين يا بهيمة الأعاجم كم لاختيك في الهوى من لائم
يهيب يلحاه بوجه طليق ينطق عن قلب حسود راغم^(١)

وقوله :

خذ يا حسودى بين جنبيك جوى يرى الى قلبك بالصوائم^(٢)

وقوله في مرثيه " لعلى " - كرم الله وجهه - :

وكم حاسد لى ود لولم يعيش ولم أنابله في تأبينكم وأسائيف^(٣)

(١) ديوان مهبّار الديلمى ، ج ٢ ، ص ٢٢٤

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٢٥

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٦٢

وكذلك قوله في حساد " على " - كرم الله وجهه - :

ان يحسدوك فلغرض عجزهم في المشكلات ولما فيك كمال (١)

ومن فخر مهيار الذي يترسم فيه خطا أستاذ الشريف الرضي في
بأساليب القدماء وفي حرصه على احكام صياغته ، وجزالة الفاظه ، وان كان
فخرا بفارسي لا بالعربي ، قوله :

أعلى الوفا* بكل فيك تلومني ؟ يا بعد صوتك قاتلا من قاتل
ومن التجشم أن تروم بحطية تقى وقد قتل الحفاظ حيا طي
ولهذه الخضرا* تنقل شهبها أدنى عليك من انتقام فضا طي
أنا من علمت قد يمه وحديثه علم اليقين وان جهلت فسائل (٢)
وكذلك قوله من القصيدة نفسها :

قوى الملوك وخيم نفس خيمها أفلح بمنزل أواخرى وأوطى
ما غر عيسى في أرمه " فارس " ألا يكون بخندق أو " واسل " *
نحن الولاة العادلون ولم تنزل ثارتا حلل الزمان العاطل
زدنا فعدم الانام رعا * عدت الذئاب على السوام الهائل
ومعنى مهيار في استخدام أساليب القدماء تشبها بأستاذ الشريف

(١) ديوان مهيار الديلمي ، ج ٣ ، ص ١١٥

(٢) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٨٤

الرضى ، والتزاما بنهجه في ذلك ، فيقول في القصيدة ذاتها :

من عد نفسا فخره وقبيله فلنا آثاره فخره المتقابـل
وعلى يقيننا طلاوة مـوـدد تهدي لعينك فائتا من حاصل

وكذلك يظهر مدى تمسك مهيار بأساليب القدماء ، ومدى التزامه نهج
أستاذة الشريف الرضى في ذلك ، قوله عن " فارس " وقد نزلت بها نازل
الدهر ، وحطت بها مصائبه ونكباته :

حطت بفارس " بركهـا وعلى " الجبال " لها حـوان
وهنا " بيضا " المـدا ثن " يوم يؤسـر أروـنـان
و " بيلج " لم تبد الذيو ل من الهضاب ولا القـنان
درج الملوك بها كـما درجت مع الشمس المستـبان (١)

ويظل مهيار في فخره مترسقا خطا أستاذة الشريف الرضى في تمسكه
بالفاظ القدماء ، وأساليبهم ، وحرصه على جزالة ألفاظه ، يظهر ذلك
من أيضا - ف قول مهيار مادحا " للقرن " :

ينو السنوات ان هزلت قراها جدوا سموا كرما قراها
لهم نار على شرف المقارى أقر الله عيني من رآها
إذا قصر الوقود الجزل عنها جميل الصبح مندل موقدأها

(١) ديوان مهيار الديلمي ، ج ٤ ، ص ٤١ : ٤٢ .

تضيء كأنها والليل داج تزيد من جياهم جذاهما (١)

وكذلك قوله في مديح أحد بني جنسه من الفرس أيضا :

نقل الرياسة كاهرا عن كاهل قزم إذا غر المعجول تمهلا

وإذا الطوك تدارست أنس ابها أنيته فيها المغم المشولا

في ذروة الشرف التي لوحلها سعد الكواكب لم يرد متحولا

بيتا عتيقا في السما بناوهم قدما ومجدا كسريا أ ولا

جاري مساعيتهم وجا مبرزنا فرع أبر على الأصول وأفضلا (٢)

وإذا ما تركنا هؤلاء الشعراء واتجهنا إلى شعراء الانحلال الخلقي والمجون في القرن الرابع ، وجدنا أن لغة شعريهم الذاتية زاخرة بالفحش المفرط ، بعيدة عن الحياة ، والوقار ، لا تصور إلا حياة اللهو ، والعبث والمجون ، والفجور ، ولا تجسد إلا ذلك ، كما جاء في أشعار ابن الحجاج وابن سكرة الهاشمي والواساني ، وإن كان الخالديان ممن عاينوا هذه الحياة وشغل بترك الملذات ، إلا أن لغة أشعارهما الذاتية تنقأ إلى حد ما عن التصريح بالفحش ، والمجون ، والفجور ، وإن كانت تدل على ليهو وحيث ، وحرص على التمتع بملذات الحياة ، وكذلك كانت لغة الشعر عند الاحتف العكبري مجسدة لغدة الفقر التي تضخمت في نفسه وتملكت - أنسه فاختار من الألفاظ ما يجسدها ونحس في لغة هذه المجموعة من شعراء

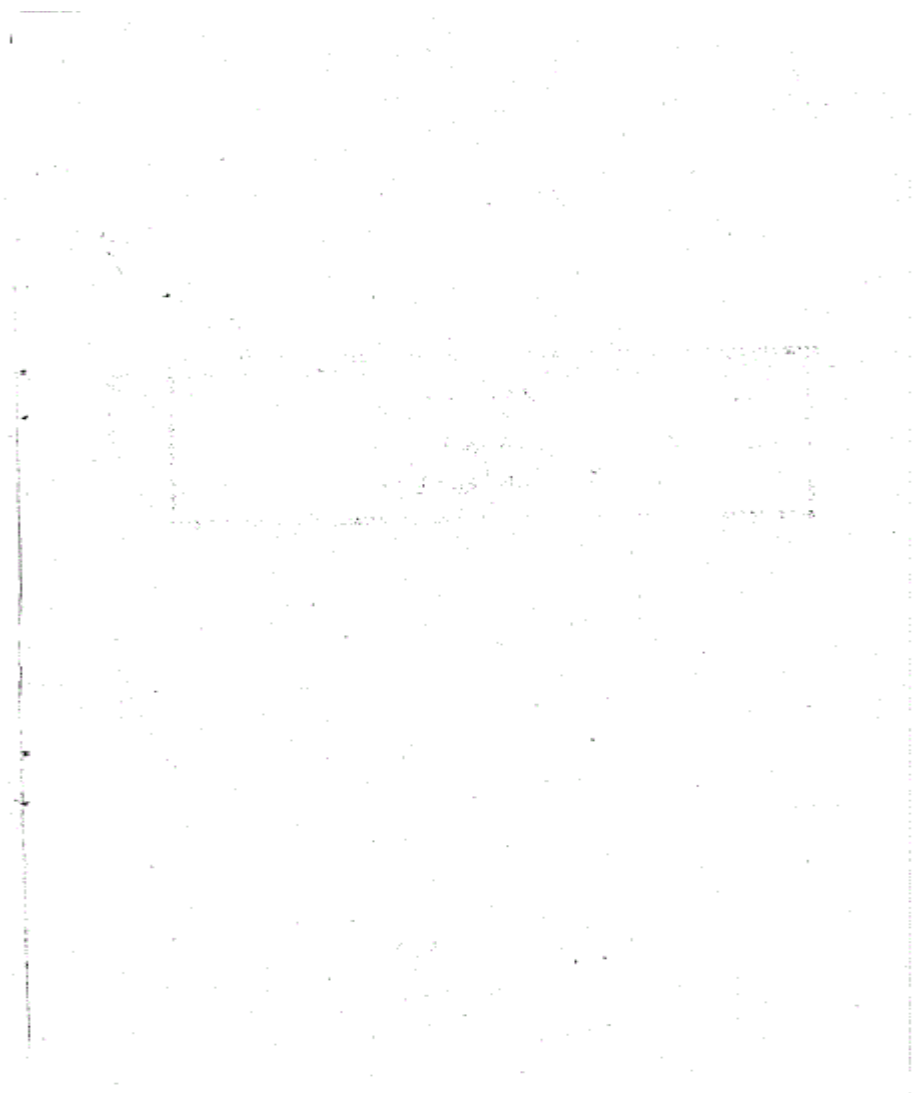
(١) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٧٩ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٣٨ : ١٣٩ .

العبث والمجون وقد الفقر ميلا شديدا للتخص في اللغة واستخداما
لألفاظ الحياة اليومية وروحا شعبية ترضى أذواق جمهور العامة وهي تدل
على نفسها بنفسها ، ولست في حاجة لاعادة ذكر نماذج لأشعاره سوى*
للتدليل على ما أشير اليه فخصي ما قدمت من أشعارهم في فصول سابقة *

وبعد فهذه بعض سمات لغة الشعر الذاتي في القرن الرابع عشر
الهجري وبعض خصائصها ، كما ظهرت عند أهم شعراء ذلك القرن من
أمثال أبي الطيب المتنبي ، وأبي فراس الحمداني ، والشريف الرضوي
ومهيار الديلمي ، وبعض شعراء المجون والانحلال الخلقي ، وشاعرو
المكدين في القرن الرابع الاحتف العكبري *

الفصل الخامس
الموسيقى
والصورة اللغوية



أولاً : الموسيقى

عند البحث عن أوزان شعر التعبير عن الذات في القرن الرابع الهجري يتضح أن شعراء ذلك القرن قد التزموا في أشعارهم الذاتية موسيقى الشعر العربي والعروض الذي استخرج أسسه الخليل بن أحمد الغراهيدي ، وقد جاء الشعر الذاتي في ذلك القرن في عشرة بحور هي الطويل - والبسيط - والكامل - والوافر - والسريع - والخفيف - والمنسرح - والرمل - والرجز - والتقارب .

جاء الشعر الذاتي لأبي الطيب في سبعة بحور منها إذا لم يأت إليه شعر ذاتي في السريع والرمل .

نظم المتنبي في بحر الطويل ثلاث عشرة قصيدة ذاتية ، وتلا بحسب الطويل كل من البسيط والوافر ، إذ نظم أبو الطيب في كل منها ثنائياً قصائد ، ثم نظم في كل من الكامل ، والخفيف أربعاً ، ونظم واحدة في الرجز ، وواحدة في المنسرح .

ومن القصائد الذاتية الثلاث عشرة التي نظمها أبو الطيب في بحر الطويل جاءت منها أربع قصائد نظمها أيام صباه ، وشبابه قصيدته التي يستهلها بقوله :

” محبى قيامي مالدلكم الفصل “ (1)

(1) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح المكبري ج ٤ ص ١٦٠ .

وكذلك التي يتاجى فيها نفسه :

(١) " الى اى حين انت فى زى مخبرم "

والتي يستهلها بخطاب صاحبها :

(٢) " قفا تريسا ورقى فهاى المخايل "

وقصيدة التي يمدح بها عليا بن أحمد بن عامر الانطاكي ويستهلها

بالحديث عن نفسه :

(٣) " اطاعن خيلا من فوارسها الدهر "

وجاءت من هذه القصائد التي نظمها ابو الطيب فى بحر الطويل خمس

قصائد نظمها فى الفترة التي صاحب فيها سيف الدولة ، واقام خلالها بحلب .

قصيدة التي نظمها مادحا سيف الدولة حين ازعم غزو (خرمنه) تلك

القصيدة التي يستهلها ابو الطيب بالتشفي بنفسه ، مجسدا بطولته

النضالية :

(٤) " عواذل ذات الخال نسي حواسد "

وكذلك قصيدته التي يستهلها بقوله :

(٥) " لمينيك ما يلقى القواد وما لقيى "

وقصيدته (اللامية) التي يستهلها بقوله :

(١) ديوان ابن الطيب المتنى بشرح المعبرى ج ٤ ص ٣٣

(٢) المصدر السابق ج ٣ ص ١٢٤

(٣) المصدر السابق ج ٢ ص ١٤٨

(٤) المصدر السابق ج ١ ص ٢٦٨

(٥) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٠٤

(١) " لياالى بعد الظاعين شكول "

وقصيدته التى يدح بها سيف الدولة منتهزا فرصة قدوم عيد الاضحى
والتي يختتمها بالحدث عن نفسه متغنيا في ابيات ذاتية يستهلها بقوله :

أزل حسد الحساد عنى بكيتهم . . . فانت الذى صيرتهم لى حسداً^(٢)

وكذلك قصيدته (اللامية) التى نظمها عند دخول رسول الروم على
سيف الدولة ، والتي يضمها ابياتا ذاتية يتغنى فيها بنفسه ، ويسند
حاسديه ، ويستهل هذه الابيات الذاتية بقوله :

إذا الجود أعط الناس ما انت مالك
ولا تعطين الناس ما أنا قائم^(٣)

كذلك جاءت من القصائد الذاتية الثلاث عشرة التى نظمها ابو الطيب
المتنبي في بحر الطويل ، اربع قصائد نظمها وهو في بلاط كافور
الاخشيدي : اولها هي اول قصائده جميعا في كافور ، تلك التى
يستهلها ذلك الاستهلال الغريب ، والتي تتجدد من خلالها بطولته
التضالية :

كفى بك داء ان ترى الموت شافيا . . . وحسب النايا ان يكون امانيا^(٤)

وكذلك (ميمته) في مدح كافور ، والتي يستهلها بالحدث عن
نفسه ، وما جرى عليه في هذه الحياة ، ويتغنى فيها بنضاله ضد الزمن

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ١٠٨

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٢٨٩

(٣) ديوان ابى الطيب المتنبي بشرح المكبرى ج ٣ ص ١١٧

(٤) المصدر السابق ج ٤ ص ٢٨١

والحياة ، والناس .

فراق ومن فارقت غير مذمم — — — وأم ومن يعمت خير ميمم (١)

وكذلك قصيدة ابن الطيب (البائية) التي نظمها في مدح كافور
حين ارسل اليه كافور ستائة دينار هدية ، والتي يستهلها بقوله :

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب — — — وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب (٢)

وكذلك اخر مدحه لابي الطيب في كافوره والتي لم يلقه بعد هـ
تلك التي اسرف ابو الطيب من خلالها في التغنى بنفسه ، والتي يستهلها
ابو الطيب بقوله :

منى كن لي ان البياض خضاب — — — فيخفى بتبييض القرون شيباب (٣)

وسا سبق يتضح ان بحر الطويل لم يرتبط عند المتنبي بحالة نفسية
واحدة ، فقد نظم فيه ابو الطيب وهو ثائر غاضب متغنيا بعزة نفسه وابائه
ونظم فيه بعد ان هدأت ثورته بعد لقائه لسيف الدولة ، وصاحبه ايام
ونظم فيه ايضا وهو في بلاط كافور متغنيا بنفسه — على عادته — والى جانب
بحر الطويل فقد نظم ابو الطيب — كما ذكرت من قبل — في بحر البسيط .

نظم ابو الطيب في هذا البحر ثمانى قصائد ذاتية — جاءت منها
اثنتان في مرحلتى صباه وشبابه اولاهما التي يستهلها ابو الطيب بالحدث
عن شبيهه الذي وخطه غير محتشم ، وهو لا يزال شابا ، والتي يقول قسى
مستهلها مجسدا نضاله للزمن :

(١) ديوان ابن الطيب المتنبي بشرح العكبري ج ٤ ص ١٣٤

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ١٧٦

(٣) المصدر السابق ج ١ ص ١٨٨

ضيف المبراسى غير محتشم ———— والسيف احسن فعلا منه باللم (١)

وثانيتهما التى يمدح بها ابا عبد الله محمد بن عبد الله القاضى
الانطاكى ، والتى يستهلها بابيات ذاتية ، يذم فيها دهره ، ويتغنى
من خلالها بنفسه ، مناضلا لذلك الدهر المغشوم :

افاضل الناس اغراضا لهذا الزمن ———— يخلو من الهم اخلاهم من القطن (٢)

ومن هذه القصائد الذاتية التى نظمها أبو الطيب فى بحر البسيط
جاءت واحدة نظمها وهو فى كتف سيف الدولة بن حمدان ، تلك التى
نظمها حين أحسن بأن سيف الدولة قد أرهف سمعه لحصاد المتنبي
وشثنه فأكثر فيها من التغنى ببطولته النضالية فى هذه الحياطة
ويستهلها بقوله :

واحر قلباه ممن قلبه شيم ———— ومن بجسى وخالى غده سقم (٣)

وتأتى من هذه القصائد الذاتية التى نظمها أبو الطيب فى بحر
البسيط خمس قصائد نظمها بعد فراقه لسيف الدولة ، ولحاقه بكافور
الاخشيدي أولاها نوتيته التى يستهلها بقوله :

يم التعلل لا أهل ولا وطن ———— ولانديم ولا كاس ولا سكين (٤)

وثانيها (ميمته) فى رثاء فاتك الروم ، ذلك الرثاء الذى يوظفه
أبو الطيب لخدمة غرضه .

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح المكبرى ج ٣ ص ١٧٤ .

(٢) المصدر السابق ج ٤ ص ١٥٥

(٣) المصدر السابق ج ٤ ص ١٥٠

(٤) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح المكبرى ج ٢ ص ٣٩ .

ختام نحن نساوى النجم في الظلم - - وما سراه على خوف ولا قسدم (١)

وثالثة هذه القصائد الخمس (ميمته) في هجاء كافور ، والتغنى
ببطولة النضال :

من أية الطرق يأتى نحوك الكرم - - أين المحاجم ياكفور والجلم (٢)

ورابعها (داليت) في هجاء كافور أيضا والتي يستهلها بقوله -
عيد بأية حال عدت يا عيبد - - بما مضى أم بامر فيك تجد يد (٣)

وخامسة هذه القصائد هي (يائيته) في رثاء (حولة) اخت سيف
الدولة ، تلك القصيدة التي تضمنت أبياتا ذاتية كثيرة ، والتي يستهلها
أبو الطيب بقوله :

يا أخت خير أخ يابنت خير أب - - كناية بهما عن أشرف النصب
ومن تتبعنا لبحر البسيط عند أبي الطيب يتضح أنه قد ارتبط - الى حد
بعميد - بحالة نفسية عاشها أبو الطيب وهو ينظم في هذا البحر ، فلم ينظم
فيه الا وهو يكابد ألما نفسيا أيا كان سبب ذلك الألم ، وأيا كانت بواعثه
فكل قصائده التي نظمها في هذا البحر يتجسد من خلالها حزن الشاعر
وأساه ، أما قبل اتصاله بسيف الدولة ، أو بعد أن استقر به المقام في بلاط
ذلك الأمير ، وبعد أن كهد له وهو في هذا البلاط ، كذلك بعد فراقه
لحلب ، ولحقه بمصر حيث كافور الاخشيدى ، الذي أخذ على أبي الطيب
طريقه ، ولم يمكنه من مغادرة مصر الى أى مكان آخر ، مما اضطر أبا الطيب
الى هجاء كافور هجاء لا ذعا ، فيه مرارة وأسى ، أكثر مما فيه من شدة وقسوة

(١) المصدر السابق ج ٤ ص ١٥٥

(٢) المصدر السابق ج ٤ ص ١٥٠

(٣) ديوان أبي الطيب المتنبى بشرح المعبرى ج ٢ ص ٣٩ .

(٤) المصدر السابق ج ١ ص ١٤٤ .

كذلك جاء في هذا البحر رثاؤهم (لفاتك) الرومي ، وخولة اخت سيف الدولة ، بعد رحيلهما إذ ذكره رحيل كل منهما بحالته هو ، والستى تستحق الرثاء أكثر من هذين الفقيدين ، وإن كانت كل هذه القصائد الذاتية مما يجسد بطولية أبي الطيب النضالية ، وهذه البحور الطويلة التي نظم فيها المتن وغيره من شعراء القرن الرابع الهجري أشعارهم الذاتية وقد وجدت من الدارسين اهتماما كبيرا فعن بحر الطويل يقول د / عبد الله الطيب المجذوب : (في نغمة صلاحية للجد الصريح ، الذي لا تنفسه نغمته ، ولا جلية)^(١)

وعن البحر نفسه يقول د / إبراهيم أنيس : (في هذا البحر يصب الشاعر أشجاره ، ويجتره ذكريات ماضية الحزين في رزاة ، وترسل وجلال وتؤد ، ثلاث مقام الحسرة والأسف الهادي)^(٢)

وتنه يحدثنا د / علي الجندى فيقول : (يسبح فيه كل ذي صدر قسوى ونفس مديد ، وحنجرة ضيقة)^(٣)

وعن البحر نفسه يتحدث د / محمد النويهى فيقول : (فبحر الطويل بايقاع البطى الهادئ نسبها يلائم العاطفة المعتدلة ، المترجمة بقصد

(١) المرعد الى فهم اشعار العرب ، وصناعتها د / عبد الله الطيب المجذوب - دار الفكر - بيروت سنة ١٩٧٠م ج ١ ص ٣٩١ .
(٢) موسيقى الشعر د / إبراهيم أنيس ، الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٢ ص ١٧٥ .

(٣) الشعراء وأنشأ الشعر - د / طه حسين الجندى - دار المعارف بصر سنة ١٩٦٦م ص ١٠٠
٣١٥

بقدر من التفكير والتأمل سواء كانت حزنا هادئا لاصراخ فيه ، أم كانت سرورا هادئا لاصخب فيه " (١)

وهذا الرأي الأخير للدكتور / النيوبي أقرب إلى الواقع ، لأن الشعراء ينظمون في هذا البحر مراثيهم ، وفزلياتهم ، وجل أغراضهم بل من الجائز جميعها ، فهو ينغمه الهادي* يجسد مشاعرهم ، وعواطفهم ، أيا كانت هذه المشاعر ، وتلك العواطف ، تستوى في ذلك أحزان الشعراء* وأفراحهم غصبتهم ، ورضاهم ، جدهم وهزلهم .

ومما يؤكد ذلك مايقول به أستاذنا الدكتور / محمد مصطفى هـدارة (والحقيقة أن محاولة تثبيت لون واحد لوزن من الأوزان جهد ضائع لأن الوزن وحده لا يمكن أن يضاف على الشعر لونا معينا ، ولكن جميع عناصر الشكل تتحد في إعطاء القصيدة لونها) (٢)

وعن البحر البسيط يقول د / ابراهيم أنيس انه يصلح إذا كان انفعال الشاعر من النوع الوزني ، لا النثر العنيف " (٣)

وهذا مما يتنافى مع ما رأيناه عند المتنبي إذ نظم فيه الرجل وهو غاضب ناثرا كاعظم ما يكون الغضب ، وأشد ما تكون القسوة ، والثورة .

ويقول عنه د / عبد الله الطيب المجذوب : " أن في رنة البسيط مسنن

(١) الشعر الجاهلي منهج في دراسة وتقويمه د / محمد النيوبي ج ١ ص ٦

(٢) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري د / محمد مصطفى هـدارة ص ٥٣٩

القوة ما يجعله صالحا لمواقف العنف والانفعال الظاهر * (١)

وفي ذلك الرأي - أيضا - تقييد لما يصلح له بحر البسيط فقد رأينا
عند المتنبي لا يصلح للعنف والانفعال فحسب ، بل وجدناه ، أيضا يصلح
لمواقف الهدوء والحزن الساكن الرزين .

والى جانب كل من بحرى الطويل والبسيط فقد نظم المتنبي - أيضا -
فى بحر الوافر - نظم فيه أشعارا ذاتية تضمنتها ثمانى قصائد ، جاءت خمس
منها نظمها أبو الطيب فى فترتى صباه ، وشبابه ، أولاها كانت فى عتاب
أبي عبد الله معاذ بن اسماعيل اللاذقى ، وكان قد عزل أبا الطيب فى اقدامه
فى الحرب ، تلك القصيدة التى يستهلها أبو الطيب بقوله :
أبا عبد الله معاذ انسى - - - - - خفى عنك فى الهجاء مقامسى (٢)

وثانية هذه القصائد جاءت فى العتاب أيضا ، وكانت فى عتاب الحسين
بن اسحاق التوفى ، لتصديقه وشاية نجها قوم مدعين أن أبا الطيب قد
هجاه ، تلك القصيدة التى يستهلها أبو الطيب مخاطبا ابن اسحاق هكذا
يقوله :

أتكر يا ابن اسحاق اخافسى - - - - - وتحسب ما غبرى من انافسى (٣)

وثالثتها : (لاميته) فى مدح المغيث بن على المعلى ، والستى
يستهلها أبو الطيب بدم الناس ، والحديث عن نفسه ، متغنيا ببطولته

(١) المرشد الى فهم أشعار العرب وصناعتها د / عبد الله الطيب المجذوب
الطبعة الأولى سنة ١٩٥٥ م ج ١ ص ٤٧١ .

(٢) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح المكبرى ج ٤ ص ٤٤ .

(٣) المصدر السابق ج ١ ص ٩ .

التضالية مع الزمن والحياة والناس :

فؤاد مات عليه المـدام — وعمر مثل ما يهب اللـثام^(١)

ورابعة هذه القصائد جاءت في مدح بدر بن عمار ، والتي يستهلها
أبو الطيب بالحديث عن نفسه ، كما تعود ، وكما عود مدوحيه .
بقائى شاء ليس هم ارتحالا — وحسن الصبر زمو لا الجالا^(٢)

وخامسة هذه القصائد هي (رائيته) التي نظمها أبو الطيب واصفا
مسيره في البوادي ، والتي يقول في مستهلها :

عذيري من عذاري من اـمـر — سكن جوانحي بدل الخدور^(٣)

وينظم أبو الطيب وهو في بلاط سيف الدولة في بجر الوافر قصيدة جاءت
في رثاء والده سيف الدولة ، وتضمنت هذه القصيدة أبياتا ذاتية تغنى
أبو الطيب من خلالها بما ناله من دهره ، وما أصابه من مصائب ذلك الدهر
وتكباته ، وماصراره على نضال ذلك الزمن : تلك القصيدة التي يستهلها
أبو الطيب بقوله :

نعد المشرقية والموالى — وتقتلنا المنون بلا قتال^(٤)

وفي مصر ينظم أبو الطيب في الوافر قصيدتين ذاتيتين احدهما في وصف
الحص التي ألتبته وهي أيضا تجسيد لنضال أبي الطيب للمرض الذي هو
احدى مصائب الزمن :

(١) المصدر السابق ج ٤ ص ٦٩ .

(٢) ديوان أبي الطيب الممتنى بشرح المكبرى ج ٣ ص ٢٢١

(٣) المصدر السابق ج ٢ ص ١٤١

(٤) المصدر السابق ج ٣ ص ٨ .

مرحلتى صباه ، وشبابه ، وواحدة وهو فى بلاط سيف الدولة ، والرابعة
نظمها وهو فى مصر .

نظم أبو الطيب فى هذا البحر فى مرحلتى صباه وشبابه (همزته) فى
مدح ابن هارون الأوراجى والى ضمتها أبياتا ذاتية يتحدث فيها عن نفسه
ويتغنى من خلالها بامجاده التى تكمن فى نضاله المستمر ويستهلها بقوله :
(١) أنا صخرة الوادى إذا ما زوحت — — — وإذا نطقت فأنى الجوزاء

وكذلك قصيدته (الثائبة) التى يمدح بها أبا أيوب أحمد بن عمران
وتتضمن أبياتا ذاتية يتغنى فيها بغتوته ، ومرونته ، وأبوتة ، وغير ذلك من
عدد النضال المعنوية :
(٢) وترى الفتوة والمروة والأبد — — — سوة فى كل مليحة ضرائها

ويمدح أبو الطيب سيف الدولة بن حمدان بقصيدة فى الكامل تتضمن
هذه القصيدة تغنيا بالعفة والطهارة على أنهما من عدد النضال أيضا :
(٣) وقد استقدت من الهوى وأذقت — — — من عفتى ما ذقت من بلباله

وتأتى رابعة هذه القصائد التى نظمها أبو الطيب فى الكامل فى رثاء
فاتك الرومى ، وهجاء كافور الأخشى ، هذا الرثاء ، وذلك الهجاء
اللىدان يجسدان نضال أبى الطيب ضد الزمن ونكباته :

(١) ديوان أبى الطيب المتن بشرح المكبرى ج ١ ص ١٥ .

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٢٢٧ .

(٣) المصدر السابق ج ٣ ص ٥٦ .

الحزن يقلق والتجمل يسردع — والد مع بينهما عصى طيع (1)

بحر الكامل عد أبي الطيب كبحر الطويل ، ينظم فيه وهو تاجر غاضب
وينظم فيه وهو هادي ساكن ، وينظم فيه كذلك وهو حزين أسيف .

ولأبي الطيب في بحر (الخفيف) أشعار ذاتية تضمنتها أربع قصائد
منها اثنتان نظمهما أبو الطيب في مرحلتى صباه ، وشبابه ، وواحدة نظمها
وهو في مصر وواحدة بعد أن ترك مصر ورجل إلى الكوفة :

أولى قصيدته اللتين نظمهما أبو الطيب أيام صباه وشبابه (والثالثة)
التي جرت عليه تهمة ادعائية النبوة ، والتي يتغنى من خلالها كثيرا بنفسه (2)

وثانيتها في مديح علي بن أحمد البري الخراساني ، والتي يستلهمها
أبو الطيب بالحديث عن نفسه ، متأثرا ، ويستشعر بطولته في ذلك النضال
لا افتخار إلا لمن لا يضام — مدرك أو محارب لا ينبغي (3)

وقصيدته التي نظمها في بحر الخفيف (وهو بمصر) نوحته (التي يشكو
فيها الزمن ، ويندد بأفعاله ويجسد نضاله له ، ويستلهمها بقوله : (4)
صحب الناس قبلنا ذا الزمانا — وخاهم في شأنه ما عاصناه

وقصيدته التي نظمها في الخفيف وهو في الكوفة بعد رحيله من مصر

(1) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٨

(2) المصدر السابق ج ١ ص ٣١٣

(3) المصدر السابق ج ٤ ص ٩٢

(4) المصدر السابق ج ٤ ص ٢٣٩ .

لاهيته - في مدح سيف الدولة ، وقد بحث اليه بهدية ، وهي ايضا تجسد
نضال ابي الطيب وصيره في مواجهة تقلبات الدهر ، فالغزل فيها موظف
لخدمة الغرض :

مالنا كلنا جويًا رسول — — — انا اهوى وقلبك المتبول (١)

وابو الطيب كان ينظم في الخفيف منها اختلعت عواطفه ، واحساساته
تماما مثلما نظم في الطويل ، والكامل ، وعلى خلاف ما نظم في البسيط والوافر
اذ سادت اشعاره الذاتية التي نظمها في هذين البحرين عاطفة الاسمى
واحساسات الالم ، والحزن ، وان ظل على الرغم من هذا الاسمى ، وذلك
الحزن متاخلا شرسا لا يعلم قيادة للزمن منها سيطرت عليه أحزانه .

ولأبي الطيب في الرجز مقطوعة ذاتية واحدة ما قاله في صباه ، هي
التي يقول فيها :

أى محل أرتقى ؟ — — — أى عظيم أتقى ؟ (٢)

وله في الممنوع قصيدة يمدح بها عليا بن ابراهيم النخعي ، ويستهلها
بالحديث عن نفسه ، مجسدا بطولته النضالية ، وصبره ، وهمة في مواجهة
خطوب الزمان :

أحق عاف يد معك الهمم — — — أحدث شي عهدا بها القدم (٣)

(١) الصدر السابق ج ٣ ص ١٤٨ .

(٢) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح المكهرى ج ٢ ص ٣٤١ .

(٣) الصدر السابق ج ٤ ص ٥٨ .

هذا عن أبي الطيب المتنبي ، أما أبو فراس الحمداني فقد نظم أشعاره الذاتية قبل أسره في أربعة بحور هي الواقر والكامل والطويل والبسيط حسب استخدامه لكل منها .

وبعد أن وقع في أسر الروم نظم أشعاره الذاتية في هذه البحور نفسها مع استبدال التقارب بالبسيط وعلى اختلاف في ترتيبها ، فقد نظم في الطويل أكثر من غيره ثم تلاه الكامل ، فالواقر ، فالتقارب .

نظم أبو فراس قبل أسره في بحر الواقر عشر قصائد ذاتية يتجلى مسن خلالها جميعا فخره بنفسه ، وأهله ، وعشيرته ، وتعداده لمآثره ومآثر آله ، وذويه .

أولى هذه القصائد العشر (بائيته) في الفخر ، التي يستلهمها بالغزل الذي يخلص منه إلى التفنن بأيجاد قومه ، مجدا إحساسه ببطولة النصر :

ألم ترنا أعز الناس جـاراً — وأمنعهم وأمرهم جنائـاً (١)

ومن هذه القصائد (لاميته) في الفخر أيضا ، وتجسد إحساسه ببطولة انتصاراته :

سلى عنا سراً بني كـلاب — ببالن عند مشتجر العوالـى (٢)

(١) ديوان أبي فراس الحمداني تحقيق د / سامي الدهان ج ٢ ص ١٢

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٠٦

ومن هذه القصائد التي نظمها أبو فراس في الوافر قبل أسره مهميته
في التفتي كذلك بانتصاراته ، وتجسيد احساسه ببطولة هذه الانتصارات :
وأيضا كيانهم في الامام -- -- فقد حرم الجزيرة والشام (١)

وكذلك (رائيته) التي يستهلها بالتحمر على سيب قد ألم به ، وتجسد
من خلالها كذلك احساسه ببطولة النصر :

عذبي من طوابع في عذارى -- -- ومن رد الشباب المستعار (٢)

وكذلك (رائيته) أيضا التي يستهلها بالوقوف على الديار وانكاره
ذلك موظفا ذلك المطلع لخدمة الغرض الذي ينشده وهو تجسيد احساسه
ببطولته .

وقوفك في الديار عليك عار -- -- وقد رد الشباب المستعار (٣)

وكذلك من القصائد الذاتية لأبي فراس والتي نظمها في الوافر قبل أسره
(تونيته) في الفخر والتفتي بالبطولة التي حققت له الانتصارات العديدة :
سلى فتيا هذا الحي عني -- -- يقلن بما رأين وما سمعن (٤)

وكذلك قصيدته (الحائية) في الفخر أيضا :
علونا جوشنا بأشد من -- -- وأثبتت عند مشتجر الرياح (٥)

(١) أبو فراس الحمداني تحقيق السامرائي ص ١٦٠ .

(٢) ديوان أبي فراس الحمداني تحقيق الدهان ج ٢ ص ٢٢٥ .

(٣) المصدر السابق ج ٢ ص ١٧٦ .

(٤) أبو فراس الحمداني تحقيق السامرائي ص ١٦٦ .

(٥) ديوان أبو فراس الحمداني تحقيق الدهان ج ٢ ص ٦٥ .

وكذلك حيمته في الفخر بنفسه ، والتفنى بآثره ، ومناقبه ، ومفاخره
وتجسيد بطولته واحساسه بتلك البطولة :

(١) ألا من مبلغ سروات قوسى — سيف الدولة الطك الهامام

وجاء تفي الوافر كذلك (لاميته) في الفخر والتفنى بشجاعته
وشجاعة قومه في موقفه كانت لهم مع الروم يجسد من خلالها أبو فراس احساسه
ببطولة النصر كذلك :

(٢) سيف الدولة المأمول انسى — عن الدنيا اذا ما عشت سالى

وكذلك مقطوعته اللامية ، والتي جاء تفي التفنى بما أحدثه بينى
قشير مجسدا كذلك احساسه بهذه البطولة :

(٣) أيا عجا لآثر بنى قشير — أراعنا وقالوا القوم قل

ويبدو ان نغمات الوافر السريعة المتلاحقة ورثاء القوية ، ونبرات
المتابعة ، قد وجد فيها أبو فراس متسما ، ومجالا رجاء ، فنظم فيه معظم
قصائده في الفخر قبل أن يقع في أسر الروم ، ويذوق طعم الاسار وحس
ذل القيد ، اذ أنه يعد أسره لم ينظم في هذا البحر سوى ثلاث مرات .

والى جانب الوافر ، فقد نظم أبو فراس — كما قلت — قبل أسره في التكميل
نظم فيه خمس قصائد ، أولى هذه القصائد (نونيته) التي استهلها
بالغزل وسؤال الربيع ، والوقوف بالديار ، وكاء أهلها الراحين ثم يخلص
من ذلك الى الفخر بنفسه ، وقومه مجسدا بطولته ، وانتصاراته واحساسه
بهذه البطولة وتلك الانتصارات :

(١) أبو فراس الحمداني تحقيق السامرائي ص ١٦٢ .

(٢) ديوان أبي فراس الحمداني تحقيق الدهان ج ٢ ص ٢٨٦ .

هذا وكم من غمة كشفتها ———— - بشبا الظبا وتوقد الخمران (١)

وكذلك (فائيته) في الفخر :
لن الجدود الأكرم ———— - ن من الورى الأليم (٢)

وكذلك تأتي في الكامل (ميمته) التي يتغنى فيها بشجاعة ولقائمه
الأعداء :

لا عز إلا بالحسام المخدم ———— - وضراب كل مدجج مستلهم (٣)

ومن هذه القصائد (فائيته) التي نظمها حين عتب عليه سيف الدولة
لامساكه عن اختيار شيء من خيوله لنفسه :

غيرى بخيره الفعّال الجافى ———— - ويحول عن شتم الكرام الوافى (٤)

وكذلك جاءت في الكامل مقطوعة أبي فراس (الميمية) في الفخر :
أنا إذا اشتد الزم ———— - ن وثاب خطب وادلهم (٥)

والى جانب الوافر والكامل فقد نظم أبو فراس قبل أسره في الطهليل
نظم في هذا البحر قصيدتين أولاهما هي أطول قصائده جميعا ، بل هي

-
- (١) ديوان أبي فراس الحمداني تحقيق الدهان ج ٢ ص
(٢) أبو فراس الحمداني تحقيق السامرائي ص ١٨١
(٣) أبو فراس الحمداني ، السيد محسن الأمين العائلي ص ٦١
(٤) ديوان أبي فراس الحمداني تحقيق الدهان ج ٢ ص ٢٥٦ .
(٥) أبو فراس الحمداني تحقيق السامرائي ص ١٦١ .

هي أطول قصيدة في الفخر في الشعر العربي ، وهي (رائية) أبي فراس التي يستهلها بقوله :

(١) لعل خيال الدامرة رائير — فيسعد مهجور ويسعد هاجر

وثانيتها (ميمية) في الفخر ، والتي يستهلها بالوقوف على الأطلال الذي يوظفه أبو فراس لخدمة غرضه الذي يرويه ، والذي يقصد من وراءه التغني بنفسه ، وتجسيد احساسه ببطولته وانتصاراته .

(٢) سل الدهر عنى هل خضعت لحكمه — وهل راعنى اضلاله وأراقمه

ونظم كذلك أبو فراس قبل أسره في البسيط ، ولكنه نظم فيه مقطوعة واحدة هي (نونية) في الفخر التي يقول في مستهلها :

(٣) اذا مررت بواد جاش غار — فاعقل قلوبك وانزل ذاك وادينا

ويقع أبو فراس في أسر الروم ، ومن بلاد الروم يسجل اعذب أشعاره الذاتية ، ويختار لأشعاره الذاتية تلك أربعة بحور هي على الترتيب الطويل والكامل ، والوافرة ، والتقارب .

ينظم أبو فراس في الطويل ست قصائد ومقطوعة ، هذه القاصد هسي (داليتة) التي كتبها الى سيف الدولة يناشده التعجل في اقتدائه مجسدا من خلالها بجرح هزيمته :

(١) ديوان أبي فراس الحمداني تحقيق الدهان ج ٢ ص ١٠٣

(٢) ديوان أبي فراس الحمداني تحقيق الدهان ج ٢ ص ٣٨٠

(٣) أبو فراس الحمداني تحقيق السامرائي ص ١٧٠ .

دعوتك للجفن القريح المسهد ——— (١) لدى وللتوم القليل المشرود

و (رائيته) التي نظمها متغنيا بنفسه يراد ا على الروم حين بلغه
أنهم يمنون عليه أن خلوا سلاحه :

أراك عسى الدمع شيمتك الصبر ——— أما للهوى نهى عليك ولا أسر (٢)

وكذلك قصيدته (السنية) التي كتب بها أيضا الى سيف الدولة والتي
يستهلها بقوله :

وما كنت أخشى أن أبيت وبيننا ——— خليجان والدرب الاشم واليس (٣)

وكذلك (عينيه) التي كتب بها بعد أن أحس ضيق سيف الدولة
من توالي كتابات أبي فراس له . والتي يستهلها بقوله :

أبي غرب هذا الدمع الا تسرعا ——— ومكون هذا الحب الا تضوعا (٤)

وكذلك جاء في الطويل (بائيته) التي كتب بها الى سيف الدولة
معانها أيضا حين علم أنه قد امتنع عن اخراج ابن أخت ملك الروم الا بفدا
عام ، والتي يتجسد من خلالها كذلك احساس أبي فراس بألم أسره وجرح
هزيمته :

أما لجميل عندكن ثواب ؟ ——— ولا لسمي عندكن متاب (٥)

وكذلك (لاميته) التي كتب بها من أسره الى أمه ، وقد ثقلت علته
وزادت آلامه والتي يستهلها بقوله :

(١) ديوان أبي فراس الحمداني تحقيق الدهان ج ٢ ص ٢٨

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٠٩ (٤) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٤٥

(٣) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٣٤ (٥) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٢

مصايب جليل والعزاء جميل - - - وظنى بأن الله سوف يديل^(١)

أما المقطوعة التي نظمها أبو فراس في الطويل بعد أسره فهي -
(لاميته) التي نظمها حين سمع بالقرب منه جماعة تنوح على فرع شجرة
تلك المقطوعة التي يستهلها أبو فراس بقوله :
أقول وقد ناحت بقرى حمامة - - - أيا جارتا هل تشعرين بحالي^(٢)

وسا سبق يتضح أن أبا فراس قد اختار بحر الطويل بتفعيلاته المتعددة
وأثره لينظم فيه جل رسائله إلى ابن عمه ، وإلى أمه ، تلك الرسائل التي
يصب فيها أشجانه ، ويجتر من خلالها أحزانه ، ذاكرة ماضيه ، وما كان له
في ذلك الماضي من أمجاد وانتصارات .

وما أظن إلا أن الدكتور / إبراهيم أنيس كان ينظر إلى أبي فراس وهو
يسجل رؤيته عن بحر الطويل قائلا : " في هذا البحر يصب الشاعر أحزانه
ويجتر فيه ذكريات ماضيه الحزين في رزانة ، وتوكل ، وجلال وتؤدة تلائم
مقام الحسرة ، والأسف الهادي " .^(٣)

والى جانب بحر الطويل ، فقد نظم أبو فراس بعد أسره في الكاسيد
نظم فيه أربع قصائد ، ومقطوعة ، هذه القصائد هي (لاميته) التي كتب
بها إلى سيف الدولة أيضا ، مناشدا إياه التسرع في المقاداة به ، والتي
تجسد كذلك احساسه بالآلم بعد أن هزم وأسر :

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٣١٣

(٢) أبو فراس الحمداني تحقيق السامرائي ص ١٢٧

(٣) موسيقى الشعر د . / إبراهيم أنيس ص ١٢٥ .

هل تعطفان على القليل — لا بالأسير ولا القليل^(١)

وكذلك (نونية) التي كتبها الى سيف الدولة لامطاليا بافتدائه
بل محذرا اياه من خروج المستق في جموع من جيوشه ، قاصدا سيف الدولة
تلك النونية ، التي يستهلها أبو فراس بالوقوف على الاطلال للمحبوبة
ولكنها اطلال آهله وذويه ، الذين حرم منهم بأسره وبعادة :
أتعز أنت على رسوم كفن — فاقم للعبرات سوق هوان^(٢)

وكذلك جاء في مجزوء الكامل (يائته) التي كتبها الى امه
مناعدا اياها الصبر وحسن التأس ، والتي يستهلها بقوله :
لولا المعجز ينبح — ماخفت أسباب المزيعة^(٣)

وكذلك ينظم أبو فراس في مجزوء الكامل (رائيته) التي نظمها حين مر
(بخرشنة) وهو أسير ، فهيجت هذه المونية ذكرياته ، وأعادت اليه صورا
من أيام مجده ، وانتصاراته ، تلك القصيدة التي يستهلها أبو فراس بقوله :
ان زرت خرشنة أسيرا — فلکم احطت بها مغيرا^(٤)

ومقطوعة أبي فراس التي نظمها في مجزوء الكامل الى جانب هذه
القائد السابقة هي (يائته) التي رثى بها نفسه ، وخاطب فيها ابنته
مناعدا اياها الصبر ، والتجمل به ، والتي يقول في مستهلها :

(١) أبو فراس الحمداني تحقيق السامرائي ص ١٤٤
(٢) المصدر السابق ص ١٢٤ (٣) المصدر السابق ص ١٨٢
(٤) ديوان أبي فراس الحمداني تحقيق الدهان ج ٢ ص ٢٠٧ .

أبنيقي لاتحزننسي --- كل الانتم الى ذهب^(١)

والى جانب الطويل والكامل فقد نظم أبو فراس بعد أسره كذلك نسي
الوافر ، نظم فيه ثلاث قصائد ، أحداها (بائيته) التي يزد بها على
سيف الدولة حين عاتبه ، والتي تجسد احساسه بجرح الهزيمة وحرارة الأسر
زمانى كله غضب وحسب --- وأنت على والايام السب^(٢)

وثانيها (ميمته) التي نظمها بعد مناظرة جرت بينه وبين المستنق
والتي يستهلها بقوله :

يحز على الاحبة بالفسام --- حبيب بات صنوع القيصام^(٣)

وثالثة هذه القصائد التي نظمها أبو فراس في الوافر بعد أسره هي
(رائيته) في رثاء أمه ، وقد ماتت وهو بأرض الروم ، والتي يستهلها بقوله^(٤)
أيا أم الأسير سقاك غيث --- يكره منك مالحى الأسير

وينظم أبو فراس في المقارب أيضا بعد أسره ، ويأتى له في هذا
البحر قصيدة واحدة هي (بائيته) التي كتبها الى سيف الدولة معاتبها
حين نسب اليه سيف الدولة كلاما لم يقله ، والتي تظهر كذلك احساس أبي
فراس بالآلم من جراء ما حدث له وما جرى عليه :

(١) الحقدم السابق ج ٢ ص ٤٧

(٢) ديوان أبي فراس الحمداني تحقيق الدهان ج ٢ ص ٢٨

(٣) أبو فراس الحمداني تحقيق السامرائي ص ١٥٨ .

(٤) ديوان أبي فراس الحمداني تحقيق الدهان ج ٢ ص ٢١٦ .

أسيف الهدى وقريع العسرب — علام الجفا* ؟ وفيهم الغضب ؟ (1)

والى جانب أبي الطيب المتنبي ، وأبي فراس الحمداني ، فقد نظم شعراء القرن الرابع الهجري أشعارهم الذاتية في هذه البحور التي نظم فيها المتنبي وأبو فراس .

نظم الشريف الرضي أشعاره الذاتية في أربعة بحور هي على الترتيب كما جاء* تنعده — الكامل ، والوافر ، والطويل ، والبسيط .

فقد نظم في الكامل إحدى وعشرين قصيدة ، ونظم في الوافر ست عشرة ونظم في الطويل سبعة ، وفي البسيط ستا ، ويمكن الرجوع الى الفصل الثالث من الباب الأول من هذا البحث ، الذي عقدناه لدراسة الشعر الذاتي للشريف الرضي ليتضح أن الشريف الرضي لم يعتمد هذه البحور الأربعة في أشعاره الذاتية .

فإذا جئنا الى شعراء المجون والاتجاه الميثي وجدنا اختيارهم للبحر مغايرا لما وجدناه عند المتنبي وأبي فراس والشريف الرضي ، فهم يجعلون أغلب شعرهم في البحر الغنائية أو القصيرة ويضربون — الا فيما ندر — عن البحر المعقدة الطويلة التي لا تتناسب مع أغراضهم الذاتية وما تتميز به من خفة وسرعة ونزق وطيش ورغبة في الوصول الى عامة الجمهور فابن الحجاج ، وابن سكرة ، ينظمان أشعارهما الذاتية ، التي جسدا من خلالها مجزئتهما وعيشتهما ، وفحشهما ، وانحلالهما ، الخلق في خمسة

(1) ديوان أبي فراس الحمداني تحقيق الدهان ج ٢ ص ٢٦

بحور هي : الوافر ، والكامل ، والطويل ، والمتقارب ، والبسيط نظم ابن
الحجاج في الوافر اثنتي عشرة قصيدة ، وفي الكامل تسعا ، وفي كل من
الطويل والمتقارب قصيدتين وواحدة في البسيط .

ونظم ابن سكرة في الوافر سبعا ، وفي الكامل ستا ، وفي البسيط
ثلاثا ، وفي كل من الطويل ، والمتقارب قصيدتين .

ونظم الواساني أشعاره الذاتية في المنسرح ، والكامل ، والسريع
والخفيف ، وجاء شعر الواواء الدمشقي الذاتي في البسيط والكامل والمتقارب
والوافر والخفيف والطويل ، والرجز ، والرمل .

وكذلك نظم الخالديان أشعارهما الذاتية في هذه البحور نفسها
إذ نظم أبو بكر الخالدي أشعاره الذاتية في الكامل والبسيط ، والمنسرح
والمتقارب ، والوافر ، والطويل ، والخفيف ، والرمل .

وجاء شعر أخيه أبي عثمان في الكامل ، والبسيط ، والوافر ، والمنسرح
والرمل ، والرجز ، والسريع ، والطويل ، والخفيف .

هذا من ناحية الأوزان ، أما من ناحية القوافي ، فقد نهج شعرا
القرن الرابع الهجري في شعرهم الذاتي نهج الأقدمين في سيرهم على
نظام القافية الواحدة ، التي ساعدت - كما يقول أستاذنا د / محمد مصطفى
هدارة - على استكمال البناء الموسيقي للشعر ، وأسهمت في سهولة
حفظه ، وروايته . (1)

(1) الشعر العربي من الجاهلية حتى نهاية القرن الأول الهجري د / محمد
مصطفى هدارة ص ١٠ .

وان كانت القوافي لم تحظ بها حظيت به الاوزان من اهتمام الدارسين من قدامى ، ومحدثين الا أن واحدا كابن طباطبا قد أشار الى شئ * من التناسب بين القوافي ، وأفكار الشاعر ، وأوزانه ، عندما تحدث عن صناعة الشعر قائلا : " اذا أراد الشاعر محض المعنى الذى يريد بناه الشعر عليه في فكره نثره ، وأعد ما يلزمه اياه من الالفاظ التى تطابقه ، والقوافى التى توافقه ، والوزن الذى يسلم له الوزن عليه " (١)

أما د / محمد غنيمى هلال ، فان له رأيا ربما يخالف مذهب اليه ابن طباطبا فهو يرى : أن ليس ثمة قاعدة تربط حروف القوافي بموضوع الشعر ، والأمر في ذلك كالعلاقة بين محور الشعر وموضوعاته (٢) ولكن الدكتور / محمد النويهى من يؤيدون الربط بين القوافي والأغراض اذ يقول : (فالقارى المتطلع على الشعر القديم ، يلاحظ مثلا كثرة ورود حرف العين رويًا لقصائد الرثاء ، الأمر الذى يلفتنا الى ما فى العين من مرارة ، وتعبير عن الوجع ، والجزع ، والهلع ، كما يلاحظ ورود حرف السين رويًا لقصائد كثيرة عاطفتها الأساسية الأسى والحسرة " (٣)

والواقع أن رأى د / غنيمى هلال الذى يخالف مذهب اليه ابن طباطبا ود / النويهى ، هو الاقرب الى الواقع والمنطق ، لأن ربط حروف القوافى بموضوع الشعر شئ * بيد ومستحيلا ، ودليل ذلك أننا لو طبقنا مذهب اليه

(١) عيار الشعر لمحمد بن طباطبا العلوى تحقيق د / طه الحاجرى ، د /

محمد زنگول سلام ، شركة فن الطباعة بالقاهرة سنة ١٩٥٦ م ص ٥ .

(٢) النقد الأدبى الحديث د / محمد غنيمى هلال ، دار مطابع الشعب بالقاهرة - الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٤ م ص ٤٧٧ .

(٣) الشعر الجاهلى ، منهج في دراسته ، وتقويمه د / محمد النويهى جا .

د / النهيبي من أن حرف العين قد جاء رويًا لأكثر قصائد الرثاء قد يما
وأن حرف السين يعبر عن الأسى والحسرة ، أقول لو طبقنا ذلك على
شعر التعبير عن الذات في القرن الرابع الهجري لم نجد له نصيباً من
الصحة .

فالشريف الرضي - مثلاً - وهو من أكثر شعراء القرن الرابع نظماً في
الرثاء قد استخدم حرف (اللام) رويًا لقصائد في الرثاء أربع مسرات
بينما استخدم الميم ، والقاف ، والراء ، والعين مرتين ، واستخدم القاف
والكاف والدال مرة واحدة .

وكذلك أبو الطيب المتنبي في مرثيته استخدم الميم رويًا لقصائد الرثاء
ثلاث مرات ، بينما استخدم العين ، والياء ، واللام ، والراء مرة واحدة
وأبو فراس الحمداني في أعذب قصائد الذاتية ، والتي رثى بها أمه تسد
استخدم فيها حرف الراء رويًا .

من كل هذا يتضح لنا أن شعراء القرن الرابع الهجري قد سلكوا نفس
شعرهم الذاتي سلك القدماء في أوزانهم ، وفي محافظتهم على نظمهم
القافية الموحدة ولكنهم استطاعوا أن يخرجوا عن حدود (التقليدية) في
أشعارهم بما صاغوه من أحاسيس ذاتية صادقة صبروا بها عن أنفسهم بل عن
أصاقي أنفسهم بما يكون فيها من عقد ومشكلات نفسية ، مما استخدموه من
لغة صور وأخيلة تناسب شعرهم الذاتي .

ثانيا : الصورة الفنية

مما لا شك فيه أن الصورة الفنية لها مكانتها المهمة في عالم الفن عامة ، إذ لا يمكن أن يخلو أى عمل فنى منها ، فالفنون مهما اختلفت أنواعها ، وتباينت أقسامها تعتمد أولا وقبل كل شىء على التصوير والشعرا . أكثر من غيرهم تبتدو حاجتهم الى التصدير ماسة ، لأنهم لا يعبرون - حين يعبرون - عن فكر مجرد من الاحساس ، والشعور أو عن علم له نظرياته العقلية والثابتة ، وحقائقه المستقرة الراسخة عند أصحابه ، وعند الناس .

أما الشاعر فخصته تتعدى ذلك الى بحث المتعة ، وإيقاظ الاحساس بها عند القارئ ، من هنا كانت الصورة الفنية ، أو الصنعة الشعرية هدفا من أهداف الشعر ، وغاية من غايات الشعرا على اختلاف ألسنتهم وميقاتهم ، وظروف حياتهم .

يقول أستاذنا / محمد مصطفى هدارة : * حينما قال الجاحظ أن الشعر صنعة ، وضرب من النسيج ، وجنس من التصوير ، لم يكن يتجسس عبثا . ولكنه كان يعنى ما يقوله بعقل المدكرة وأحاساس الفنان فالشعر لا يمكن أن يعنى شعرا مالم تدخله الصنعة الفنية الدقيقة لتبسيط معانيه ، وضمها في حوز رائعة معجبة يقضى عليها الخيال ألوانها جذابة فتعلق بالنفوس ، وتناط بالمقول ، وتحس الإنسان معها بمتعة الحس ، ولذة القراءة ، والتفكير معا ، ان المعانى المجردة قد تكون أساسا في حقائق العلوم ، والمعارف الانسانية ، ولكنها لا يمكن أن تكون

أعاس الشعر وفائته بل لابد أن يصوفها الشاعر صياغة جديدة تظهر فيها براعته وقوة تخيله ، ودقة فنه ، وصدق احساسه ، وهذه الصياغة هى ما تعبر عنه بالصنعة الشعرية . (١)

وبادام الشعر لا يكون شعرا الا اذا دخلته الصفة الشعرية فكل ما يهمننا فى هذا المقام هو تبين مدى ما فى شعر التعبير عن الذات فى القرن الرابع الهجرى من صنعة فنية .

وشعر التعبير عن الذات فى القرن الرابع الهجرى قد اعتمد - فى كثير من الأحيان - على التصوير الذى ينفى به الخيال على الشعر ألوانا جذابة فيستطيع بذلك أن يجذب اليه عقل قارئه ، وسامعيه ، ويعلق بنفسه ، فيحس الانسان ساعها باحاساس الشاعر ، ويستطيع أن يشارك الشاعر مشاعرة واحساساته .

والصورة الفنية انما هى التجسيد الحى لفكر الشاعر وذاتيتة - وأحاسيسه وتشارك عناصر كثيرة فى هذا التجسيد قد تبدوا أحيانا فى الصنعة اللفظية : وهى ما فى الشعر من زخرف لفظى يرجع الى الجناس والطباق ، والمقابلة ، والتورية .

كما تشارك فيها وسائل التخييل التى تتمثل فى الكتابة ، والاستعارة والتشبيه ، والتعثيل ، والمجاز وما الى ذلك .

(١) اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى د / محمد مصطفى هدارة ص ٥٦٦ .

وسنجد أن كل هذه العناصر تتحد مع المضمون لإبراز الصورة التعبيرية الفنية في الشعر فالمتنبي في قصيدته الميمية التي نظمها في حمة التي دأبته بصير يجسد كثيرا من الأشياء عن طريق التصوير الفني الساذج يعطى شعره مذاقا خاصا ، فيعجب من الإنسان الذي توفرت له كل أسباب القوة لكنه ليس بحازم في الأمور فيشبهه أبو الطيب بسيف قد نبأ حده وهي صورة قد وظفها أبو الطيب كذلك لتحقيق ذاته الكاملة فسق أجاسه بطولته النضال :

عجبت لمن له قد وحيد - - وينبو نبوة القضم الكهـ^(١)

ويصور الشاعر طول مرضه ، فيعبر عن ذلك بصورة فنية في قوله
ونلني الدراع وكان جنبي - - يمل لقا^(٢) في كل عام

تجسد نضال أبي الطيب ضد المرض ، وحين يتحدث عن الحمى يجعلها زائفة حيية تخشى أن يراها الناس ، فهي لا تأتيه إلا في الظلام ولا شك في أنها صورة رائعة لافتة للذهن ، محرقة للخيال :

وزائرتي كأن بها حياء - - فليس تزويرا إلا في الظلام

وعندما يريد تصوير مدى الاجهاد الذي يحل به نتيجة ما يتصيب منه من عرق عند مفارقة الحمى لجسده فيجسم ذلك عن طريق صورة فنية يجسد فيها نضاله ضد المرض الذي هو واحد من خطوط الدهر الذي ناضله أبـو الطيب كثيرا :

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري ج ٤ ص ١٤٥ .

إذا ما فارقتني غللتني
كأن الصبح يطرد ها فتجسرى
كأن غللتني على حرام
بدا معها بأربعة سجام

وعندما يبلغ الضيق بأبي الطيب كل مبلغ ، وينال منه المرض كل مثال
يناجي الحسى مجسما إياها ، شاكيا لها ، ويصوغ ذلك في صورة فنية
قائمة على الاستعارة التي تجسد المعنوى في صورة الحسى يقول أبو الطيب
أبنت الدهر عدى كل بنيت — فكيف وصلت أنت من الزحام
جرححت مجرحا لم يبق فيهم — مكان للسيوف ولا السهام

وهي صورة توحى بتاريخ أبي الطيب الطويل في النضال ، ويجهل
الطبيب المعالج كنه مرض أبي الطيب ، ويحار في علاجه ، ويشخص المرض
على غير حقيقته ، ويصور المتنبي ذلك في صورة فنية يرى فيها نفسه جوادا
قد تعود دخول المعارك وكان يراها غايته وهدفه ، ولا يجد لذته نفسه
ومثمة روحه إلا فيها ، ثم هاهنا ذا يحرم مما كانت تهواه نفسه ويهفو
إليه فؤاده ، لأنه عاش مناضلا لم يتعود الهدوء والسكون والجمود .

يقول لى الطبيب أكلت شيئا — ودأوك في شرايك والطعام
وما في طبه أنى جواد — أشر بحسمه طول الجسام
تعود أن يغبر في السرايا — ويدخل من قتام في قتام
فأسى لا يظال له فيرعى — ولا هو في العليق ولا اللجام

والقصيدة تمتلئ بمثل هذه الصور الفنية التي يضيق المقام هنا عن
إيرادها كلها والتي وظفها أبو الطيب — كما قلنا — لتحقيق ذاتيته التى
يستشعرها أبو الطيب في نضاله ، والمتنبي في قصيدته الدالية التى
نظمها عند خروجه من مصر يهجو بها كافورا ويجتر من خلالها أحزانه وآلامه

وقد قدم العيد عليه ، وهو غريب عن أهله ، في هذه القصيدة يجسد
المتنبي العيد فيناجيه في شكوى المناضل الذي لا يهدأ والذي تحالفت
عليه خطوط الزمان فيقول :
عيد بأية حال عدت يا عيد — — — بما مضى أم بأمر فيك تجد يد (1)

ويتحدث أبو الطيب عن أهل مصر آنذاك ، أولئك الذين غفلوا عن
حقوقهم وتركوا حكامهم يعيشون في الأرض فسادا ، ويصور المتنبي ذلك من
خلال صورة فنية يتماثل فيها عالم الحيوان مع النبات ، ويتجسد فيها حزن
مناضل يرى الناس قد كرهت النضال وأثرت السلامة مع الذل :
نامت نواظير مصر عن ثعالبها — — — فقد يشمن وياغنى العناقيد

وعندما يهجو أبو الطيب كافورا يصوره في اقبح صورة تأنف منها النفس
الانسانية :
ما كنت أحسبني أبقي إلى زمن — — — يسمى* بي فيه كلب وهو محمود

وموت فائق الروي ، وقد كان يحتل في نفس أبي الطيب منزلة عالية
ومكانة رفيعة ، فييكبه المتنبي ، ويذم الزمن الفادر ، فيصور ذلك الزمن
إنسانا منافقا ، خداعا ، ويأتي ذلك من خلال تصوير الزمان في صورة
كريمة يعرفها حق المعرفة ، ذلك المناضل لزمته ، المعارف مكر عسده
وخداعه من كثرة ما ناضله وجربه :

(1) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري ج ٢ ص ٣٩ .

قبها لوجهك يا زمان فأنسه — وجه له من كل لوم م يرقع^(١)
 ويصوغ المتنبي إحدى نصائحه للإنسان في صورة فنية تبرز مدى ما حل
 بالناس من خداع و نفاق :
 ولا تشك إلى خلق فتشمته — شكوى الجريح إلى الغريان والرخم^(٢)

وهي صورة قائمة على تجسيد النضال والصبر وقوة التحمل التي تميز
 المناضلين عن غيرهم ، ومن صور المتنبي الرائعة تجسيده للموت فحين ماتت
 (خولة) أخت سيف الدولة ، أخذ المتنبي في مناجاة الموت مجسدا
 ومجسما ، يقول أبو الطيب مخاطبا الموت الذي لا يجدى معه نضال مهما
 كانت قوة المناضلين :
 غدرت يا موت كم أفنيت من عدد — بما أصبتكم أمكت من لجيمه^(٣)

ومن جميل الصور الفنية للمتنبي تصويره للدهر راميا بهما حصائمه
 التي لا تخطئ ، متخذا من قلب الشاعر هدفا لنباله وسهامه :
 رمانى الدهر بالآرزاء حتى — فو ادى في غشا من نبال^(٤)
 نصرت اذا أصابتنى سهام — تكسرت النضال على النضال

وهي أيضا صورة تجسد نضال أبي الطيب لزمته ، وإحساسه ببطولته
 الذاتية تلك .

- (١) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري ج ٢ ص ٢٧٥ .
 (٢) الصدر السابق ج ٤ ص ١٦٢ .
 (٣) الصدر السابق ج ١ ص ٨٧ .
 (٤) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري ج ٣ ص ٩ .

ويظل أبو الطيب متأصلا زمنه في سبيل تحقيق أهدافه ، وغاياته فسي
غير ملل ، ويصور ذلك من خلال هذه الصورة :

(١) أريد من زمي ذا أن يبلغني -- -- -- واليه يبلغ من نفسه الزمن

ويدفع أبا الطيب احساسه ببطولته النضالية الى ذم ملوك زمنه الذين
تقاعسوا عن النضال ، ويصور ذلك من خلال صورة تمثل * بالسخرية والتهكم
ودهرنا ناس صفار -- -- -- وإن كانت لهم جث ضخام
وما أنا منهم بالعيش فيهم -- -- -- ولكن معدن الذهب الرغام
أرانب غير أنهم ملوك -- -- -- مفتحة عيونهم نيام

وتظهر في الأبيات الصنعة الشعرية بجانبها اللفظي والمعنوي
فالبيت الأول والبيت الثالث فيهما صنعة لفظية ، تظهر فيها في البيتين
من طباق بين (صفار ، وضخام ، وبين أرانب وملوك ، وبين مفتحة
عيونهم ونيام) وقد آزاد بهذه المطابقات أن يظهرنا على التناقض الذي
يعيش فيه العصر والذي تحسه نفسه الأبيّة .

وتظهر في البيت الثاني صورة فنية معنوية قوامها التشبيه الضمني
الذي يفرق به الشاعر بين نفسه الأبيّة العظيمة ، وبين نفوس الناس من
حواله ، والتشبيه الضمني يأتي عند المتنبي كثيرا ، فمن نماذجه التي
يجسد بها أبو الطيب بطولته النضالية ، التي وجد فيها ذاته قوله :

(١) الصدر السابق ج ٤ ص ٢٣٤

(٢) الصدر السابق ج ٤ ص ٧٠

ان ترى ادمت بعد بياض — — فحميد من القناة الذي^(١) —

وهي صورة فنية تبد وفيها الصنعة الشعرية بشقيها المعنوي واللفظي
فالصنعة اللفظية في الطباي بين (ادمت وبياض) والصنعة المعنوية
تظهر في ذلك التشبيه الضمني الجميل الذي لم ير المتنبي نفسه من خلاله
الا قناة لوجتها الشمس حتى ذبلت وصلب عودها ، وهكذا فعل به نضاله
ضد الزمن والحياة والناس ، حتى خرج منها صلبا صلبة هذه القناة .

والمتنبي يدافع عن احساسه بنضاله يرى ان شيه يعوقه عن مواصلة
ذلك النضال الذي ضمن له البطولة ، فيتحصر على مقدم ذلك الشيب الذي
الم به ، ويجسد ذلك التحصر من خلال صورة فنية يجسم من خلالها أبو
الطيب شيه :

ضيف الم براسي غير محتشم — — والسيف احسن فعلا منه باللمم^(٢)

فالتشبيه في قوله (ضيف) يوحى ببعد همة أبي الطيب لأن في
همة الشباب وقوتهم لذا فالشيب غريب عليه لا يعرفه ، ثم يزيد أبو الطيب
هذه الصورة جمالا بقوله (غير محتشم) مما يوحى بثقل ذلك الضيف على
نفس ذلك المضيف ، واذا كان الضيف غير محتشم ، فيا للنكبة مضيقه به .

وهذه الأمثلة التي قدمتها لشعر أبي الطيب المتنبي الذاتي ، والتي
تمثل قدرته على التمييز الفني اكتفاء بها عما سواها فكلها تظهر أن أبا
الطيب في أشعاره الذاتية يجسد بطولة النضال عده في صور يوظفها

(١) المصدر السابق ج ٤ ص ٣٤ .

مثلاً وظف اللغة من قبل — لتحقيق ذاتيته التي يستشعرها أبو الطيب
في نضاله المستمر مع الزمن والحياة والتي يحسها في بطولته التي كفلها
له ذلك النضال •

وأبو فراس الحمداني كأي الطبيب المتنبئ يوظف صورته الفنية لتحقيق
ذاتيته التي يجسدها في احساسه ببطولة النصر كما يجدها في احساسه
بجرح الهزيمة ، يجسد أبو فراس احساسه ببطولة النصر حتى وهو أسير
من خلال صورة فنية قوامها التشبيه في قوله :
لقيت نجوم الليل وهي صوارم — وخضت سواد الليل وهو يهول (١)

ويقول في صورة أخرى مجسداً أيضاً احساسه ببطولة النصر تلك :
صبور ولو لم تبق مني بقيعة قو* ول ولو أن السيوف جواب
وقور وأهوال الزمان تنوشني وللموت حولي جيئة وذهاب

ورائعة تلك الصورة الأخيرة (للموت حولي جيئة وذهاب) وكان الشاعر
يرى الموت في كل لحظة تمر عليه وهو في ميدان القتال ، ولكنه على الرغم
من ذلك — صبور ، وقور ، لم تتزعزع نفسه ، ولم يرتجف فؤاده هذا الذي
جانب ما في الأبيات من صوت ينفخ على هذه اللوحة جمالا حين يشيع
فيها تلك النغمة التي تلائم جو التفتي والتي اكتسبتها هذه الصورة من
كلمات جاء في انقاع صوتي واحد (صبور ، قو* ول ، وقور) •

(١) ديوان أبي فراس الحمداني — تحقيق الدهان ج ٢ ص ٣١٧

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٢ •

وتتكرر الصورة ذاتها في أشعار أبي فراس وكأنه اعتاد أن يرى الموت ويحسه في كل لحظة تمر عليه ، وهذا شأن من تهبون عليه نفسه في ميادين الدفاع عن الشرف والعرض ، يقول رأسا صورة لنفسه وهو في أسره وقد تغافل عنه ابن عمه :

ولكن نأ منه يكفى صارم — وأظلم في عيني منه شهاب
وأبطأ عني والمنايا سريعة — وللموت ظفر قد أطل وشاب^(١)

فسيف الدولة سيف ولكن نأ في يد الشاعر ، وشهاب ولكنه قد أظلم في عيني أبي فراس ، في الوقت الذي أحرق فيه الموت به من كل جانب وخيل للشاعر في تلك اللحظات التي يستشعر فيها ألم الجرح الذي أصابه بهزيمته ، أن ذلك الموت وحش سوف يفتسه لاحالة ، فهي صورة موظفة لتعبر عن احساسات أبي فراس في لحظة من لحظات الضعف الانساني أمام عتو الزمن ، وجبروت الأحداث .

ومن الصنعة اللفظية التي ترددت كثيرا في شعر أبي فراس ووظفها كذلك في التعبير عن احساساته وشاعره ، تلك الصورة التي يدور من خلالها حوارا مع حماسة سمعها تنوح :

أيضحك مأسور وتبكي طليقة — ويسكت محزون وينطق سألني^(٢)
ويضم هذا الاستفهام التعجبي ألوانا من الطباق تكشف عن سبب التعجب في نفس الشاعر وهو واقع في محنة التناقض والتردد بين الأعداء .

(١) المصدر السابق ص ٢٤

(٢) أبو فراس الحمداني تحقيق السامرائي ص ١٢٧ .

كذلك تأتي الصنعة اللفظية في لوحة فنية يرسمها أبو فراس مقارنا
فيها بين أيام عزه ، ونصره ، وبين ما أصبح فيه من هزيمة وأسر :

ولقد سررت غما غمت عشائري — زمتا وهتأتى الذى عزائسى
وأسرت فى مجرى خيولى غازيما — وحيست فيما أشعلت نيرانى (١)

وهى صورة الى جانب ما فيها من صنعة لفظية الا انها تحمل معنى
التحسر والتألم هذا التحسر وذلك التألم اللذان يجسد أبو فراس خلالهما
احساسه بجرح الهزيمة التى نالته بعد أسره .

وإذا تركت أبا فراس مكتفيا بما أوردت له من نماذج ، وامثلة توضيح
الى أى مدى قد وظف صوره الفنية في التعبير عن اتجاهه الذاتى الذى
استشعره في داخله من خلال احساسه ببطولة النصر ، وجرح الهزيمة
الى شاعر آخر من شعراء القرن الرابع كان للتصوير الفنى في شعره الذاتى
نصيب وافر هو الشريف الرضى لئلا — كذلك — الى أى حد قد استطاع
ذلك الشاعر أن يوظف صوره الفنية في التعبير عن احساسه ببطولة الانتماء
التي ظل يستشعرها في نفسه طوال حياته ، فاننا سنجد — كذلك —
الشريف الرضى موظفا صوره الفنية في التعبير عما يحسه ، وما يستشعره
في داخله من اعتزاز بالانتماء الى قوم شرفاء ، يمثلهم آل بيت رسول الله
صلى الله عليه وسلم من صور الشريف الرضى التي تجسد استعداد ملاحساس
ببطولة قوله :

ويوم وفى على الأعداء هـول — تماز به السراع من البطا

(١) المصدر السابق ص ١٢٥ .

رميت فروجه حتى تقسرى ————— يا أيدي الجرد والاسل الظما (١)

وكذلك قوله مصورا رجاله ، وجنوده في الحرب :

فمن غلب كأنهم أسود ————— على قبضوا كالأطباء (٢)

ولكلها صور تجسد شجاعة الشريف الرضى التى هى عامل من عوامل
استعداداته النفسى للاحساس ببطولة الذاتيه ، بطولة الانتماء الى البيت

وتتكرر مثل هذه الصور كثيرا عند الشريف الرضى — وذلك من مثل قوله
عن نفسه مخاطبا بها : الدولة :

فجربنى تجدنى سيف عزم ————— يصم غربه وزئجاد را (٣)
واسمر شارعا فى كل تحرر ————— شروع الصل فى ينبوع ماء

فالصورة فى البيت الاول ، جرد فيها من نفسه سيف عزم حادا قاطعا
وزنادا واريا ، وفى البيت الثانى يجرد من نفسه رمحا شارعا ، وصلا
قاتلا ، وهو فى كل ذلك انما يجسد شجاعته وقدرته القتالية بوصفهما
عاملين من عوامل احساسه ببطولته الذاتية .

ومثل ذلك أيضا قوله :

لنا حتى غبار الخيل فى كل غارة ————— وثوبى العوالى والحديد المذروب (٤)

(١) دايوان الشريف الرضى المجلد الاول ص ١٤ .

(٢) المصدر السابق المجلد الاول ص ١٤ .

(٣) المصدر السابق المجلد الاول ص ١٧ .

(٤) المصدر السابق المجلد الاول ص ٢٩ .

ومن صور الشريف الرضى الفنية التى يوظفها فى التعبير عن احساسه
ببطولة الانتما تلك اللوحة التى يرسمها لآبيه :

وأبى الذى حصد الرقاب بسيفه — فى كل يوم تصادم ونطاح
ردت اليه الشمس يحدث ضوءها — صيحا على بعد من الاصبح
سائل به يوم الزبير مشمرا — يختال بين ذوايل وصفاح
واحلال به صفين أن زئيره — أودى بكبش أمية النطاح
من قاسى ذا شرف به فكأنما — وزن الجبال القود بالاثباح (١)

فالصورة التى فى كل بيت من هذه الأبيات انما تجسد قوة أولئك
القوم الذين ينتسب اليهم الشريف الرضى ، وشدة بأسهم ، وهو يستعين
بشخصيات تاريخية لتجسيد هذا الشرف الذى يتميزون به وتلك المهابة التى
لهم .

وهكذا كانت كل الصور الفنية فى شعر الشريف الرضى ، انما جاءت
لتحقق ذاتيته التى يجدها فى الاحساس ببطولة الانتما التى عاش
يجسدها فى أشعاره موظفا كل عناصر الشكل والمضمون لابرازها وتجسيدها

والى جانب أبى الطيب المتنبى وأبى فراس الحمدانى ، والشريف
الرضى فان الخالدين يعدان من الشعراء الفنانين فى القرن الرابع
الهجرى ، إذ زخرت أشعارهما الذاتية بالصور الفنية ، واعتمادا على
التصوير الفنى اعتمادا ملحوظا فى التعبير عن ذاتيتهما التى يستشعرانها
فى الافتتان بالمتعة أيا كان أشكال هذه المتعة ، وألوانها ، من هذه
(١) ديوان الشريف الرضى — المجلد الأول ص ٢٥٢ .

الصور ما رسمه الخالدي الأكبر أبو بكر لدير (الأعلى) الذي عشقه ولزمه
 واستشرق نفسى الى مستشرق
 متفرق آذى دجلة تحت حمله
 للدير تاه بحسنه وحليته
 فنعمت بين رياضه وغياضه
 وسكرت بين شروقه وغروحه
 غنى الجمال به فزاد الشعر من
 تفضيضة والحد من تذهيبه
 واهتز غصن البان في زماره
 وأضاء جيد الرثم تحت صلبه (١)

وهي لوحة تعتمد على الخيال كثيرا ، وإن كان الشاعر يرسم ما تراه
 عيناه ، وتدركه حواسه ، وهي حواس رجل عرف المذاقات واقتن بها
 وتعلق قلبه بالجمال ، والرياض ، والغياض ، والشروق ، والغروب ، والشعر
 والحدود ، والقنود ، تلك القنود التي لم هراها عيناه الا غصون بسان
 تهتز أم عينيه المشدو هتين ، المسجلتين لكل حركات الدير وسكناته .

وهكذا لم يشغل الخالدي الأكبر نفسه الا بتصوير ملذات الحياة التي
 ترتبط بالآذيرة ، بمن فيها ، وما فيها :

يقول راسا صورة أخرى لدير (مارمخايل)

بها مخايل ان حاولت ما طلعي
 فأنتم تجداني ثم مطروح
 يا صاحبي هو العمر الذي جمعت
 فيه المنى فاغد والندير أروح
 بر حربه يهدى تسميها
 للروح مسكا بماء الورد مذفوحا
 يجر صياده الشبوط مضطربا
 حيا وقائمة اليعقوب مذبحا (٢)
 وهي صورة قائمة على القصة ، والفتك ، والصيد ، والقتل ، ولكن
 صيد الحسان ، والفتك بالفيد من النساء ، وهي صورة تبدو للوهلة

(١) ديوان الخالدين ص ٢٩ (٧) المصدر السابق ص ٣٥ ، ٣٦

الأولى : منافية لحقيقة العلاقة بين الرجل والمرأة ؛ ولكن بعد ايمان النظر نجد أنها صورة حقيقية مطابقة لواقع الشاعر ، لا مخالفة له ، فـعلاقة الرجل بزوجه هي التي تقوم على المحبة والوثام ، والحنان ، والمودة ، أما علاقة سكير قد افترتن بالمتعة ، بسكيرة فلا تقوم الا على القسوة ، فهـما لا يتمتعان بحلال بل هما كما يصورهما الخالدي صائد وشبهطه المضطرب وقانص وغزاله المذبوح .

وتتردد هذه الصورة ذاتها كثيرا عند الخالدي الاكبر ، من ذلك تلك الصورة التي يرسمها لليلة قضها شاربا ، ساكرا ، ناعما بامرأة هي الخمس جمالا ، وهي الغزال ضعفا :

شربتها من يدى حواء مقلتها تدنى القلوب بتجميد وتقريب
شمس اذا طلعت قالت محاسنها ها قد طلعت فيا غمر الضحى غمى (١)
ونمت سكرة ونامت لى معانقة فلا تسلم عن غاق الظهى والذيب

ومادام الخالدي يرى تلك المرأة غزالا ، فهو لا يرى نفسه ذئبا قد استحل افتراس ذلك الغزال ، مما يجسد احساس الشاعر بفتنة المتعة التي شغلت قلبه وقلبه فعاش لها مغنيا عمره في تتبعها حيث كانت ، وأينما وجدت ، ومن الصور الموظفة لتحقيق ذاتية أبي بكر الخالدي تلك الصورة التي يرسمها لدير (سعيد)

سعد تصحيتى بدير (سعيد) يوم عيد فى حسنه ألف عبيد
كم فتاة مثل المهابة سلبنا هاضليا من بين نحر وجيد
وغرير مثل الغزال حللنا عقد زنار خصره المعقود

(١) المصدر السابق ص ٢١ ، ٢٢

وخططنا رحالتنا بذنا* الـ	سهيكل الموثق اليعيد المشيد
والرواين مشهرا كفلما	ن لنا في محبرات الـ
فخدود مثل الشقائق في اللو	ن تليتها شقائق كالخـ
واذا ما الهزار غرد في الفصـ	ن حكته الاوتار في التفريد
من رانا ونحن في الارض صرعى	قال قوم موتى بغير لحـ

وهكذا تتكاتف الحركة ، والصوت ، واللون ، والسكون ، والجمود ففى رسم خطوط هذه الصورة العريضة التى يرسمها ذلك الشاعر الفنان لمكان قد أحبه ، وتعلق به قلبه ، وسمعته ، وبصره فلم ير النساء فيه الا مهـ ولم ير الفلمان الا غزلانا ، واختلط عليه الآخر ، ولعبت الخمر عليه فلم يعد قادرا على أن يفرق بين الخدود ، والشقائق ، فالخدود كالشقائق والشقائق كالخدود ، وصوت الهزار فى غصنه شبيه به صوت الاوتار فى العيسـ وان جميلة تلك الصورة الأخيرة التى يرى من خلالها ذلك الشاعر نفسه وأصحابه وقد هدتم الخمر فلا حراك لهم - موتى ولكن لم يقيموا بعد .

والخمر مما شغل أبا بكر الخالدى إذ هام بها هيام الأعشى والاختطـ وأبى نواس ، ففى أزمانهم ، ورسم لها صورا فنية تعبر عن احساس ذلك الشاعر بدتنة المتعة ، والخمر إحدى فتح الحياة ، ولذاتها عند الخالدى وأمثاله :

ألا فاسقنى والليل قد غاب نوره	لغيبته يد ر فى الغمام غريـ
وقد فضع الظلما برك كأنـ	فؤاد مشوق مولع يخـ
نعابنها نورا جلاء تجـ	ونشر بها نارا بغير حريـ
كان حباب الكأس فى جنباتها	كواكب در فى سما عقيـ

(١) المصدر السابق ص ٤٨ / ٤٩ (٢) ديوان الخالدين ص ٧٤

وهكذا لا يخلو بيت من هذه الإبيات من طائفة جميلة رائعة ، فريدة فني
جمالها ، وروعها فالبدر غريق وسط الغمام ، والبرق كأنه فؤاد مشوق كثير
الخفوق ، وسريعة ، والخمر نور في العين ، ونار في الأحشاء ، والكاس
سما من عقيق ، وحبابها كوكب در في تلك السما .

ومن صور أبي بكر الخالدي الفتية التي تحقق ذاته التي يراها فني
الافتتان بالمتعة تلك اللوحة التي يرسمها للطبيعة من حوله :

لو أشرقت لك شمس ذاك الهودج	لازتك سألتي غزال أدعج
أرى النجوم كأنها في أفقها	زهر الأقاحي في رياض بنفج
والمشتري وسط السما تخالسه	وسناه مثل الزئبق المترجج
مسار تبر أصدر ركبته	في فص خاتم فضة فيسرج
وتمايل الجوزاء يحكي في الدجى	ميلان شارب قهوة لم تمزج
وتنقبت بخفيف غيم أبيض	هي فيه بين تخفر وتبيج
كتنفس الحسناء في المرأة - إذ	كملت محاسنها ولم تتزج (1)

وهي صورة كلية رائعة تحتوي على صور جزئية عديدة مركبة في مجملها
فالمشتري الذي يترجج سناه مثل الزئبق كسمار من تبر أصدر ركب
في فص خاتم من فضة ، تلك الصورة صورة مركبة معقدة لا يستطيع أن يبتكرها
الا من رزق رهاقة الحس ، ولطافة الشعور ، وشغل الافتتان بالمتعة أيا
كان شكل هذه المتعة أو نوعها ، الى جانب امتلاكه ملكة التصوير وأدواته
وكذلك صورة الجوزاء التي تتمايل في الدجى تمايل شارب خمر صرف
أفقدته تلك الخمر السيطرة على نفسه ، ثم تنقبت بغيم خفيف أبيض يشبه

(1) ديوان الخالدين ص ١٣٥ .

ما تحدثه زفرات حسناء تكامل حسنها ولم تتزوج • على مرآة صافية
اللون • ناصعة البياض • ولا شك في أنها جميعا - صور لم يسبق اليها
ولم يبدعها من قبل خيال شاعر فنان :

ولا تختلف صور الخالدي الأصغر عن صور أخيه كثيرا في توظيفه هذه
الصور الفنية لتحقيق ذاته التي جسدها افتتانه بالمتعة • وإن كان أبو
بكر صاحب قصب السبق في هذا المضمار • فلا يثنى عثمان صور لا تخلو هي
الأخرى من طرافة وجدة • إلى جانب تجسيدها لذلك الجانب الذاتي عند
الخالدي الأصغر جانب الافتتان بالمتعة • من ذلك قوله :

أما ترى الغيم يامن قلبه قاسى كأنه أنا مقياسا بمقياسى (١)
قطر كم معنى هرق مثل نار جوى في القلب متى وريح مثل أنفاسى

وهي صورة - كما قلت - شبيهة - إلى حد بعيد - بصور أخيه أبي
بكر • ولا عجب في ذلك فقد اتحدت مشاربهما • وتشابهت روحاهما • وافتتتا
بالمتعة معا • وتلازما في الأدب • وفي كل مكان يضمن لهما هذه المتعة
التي افتتتا بها •

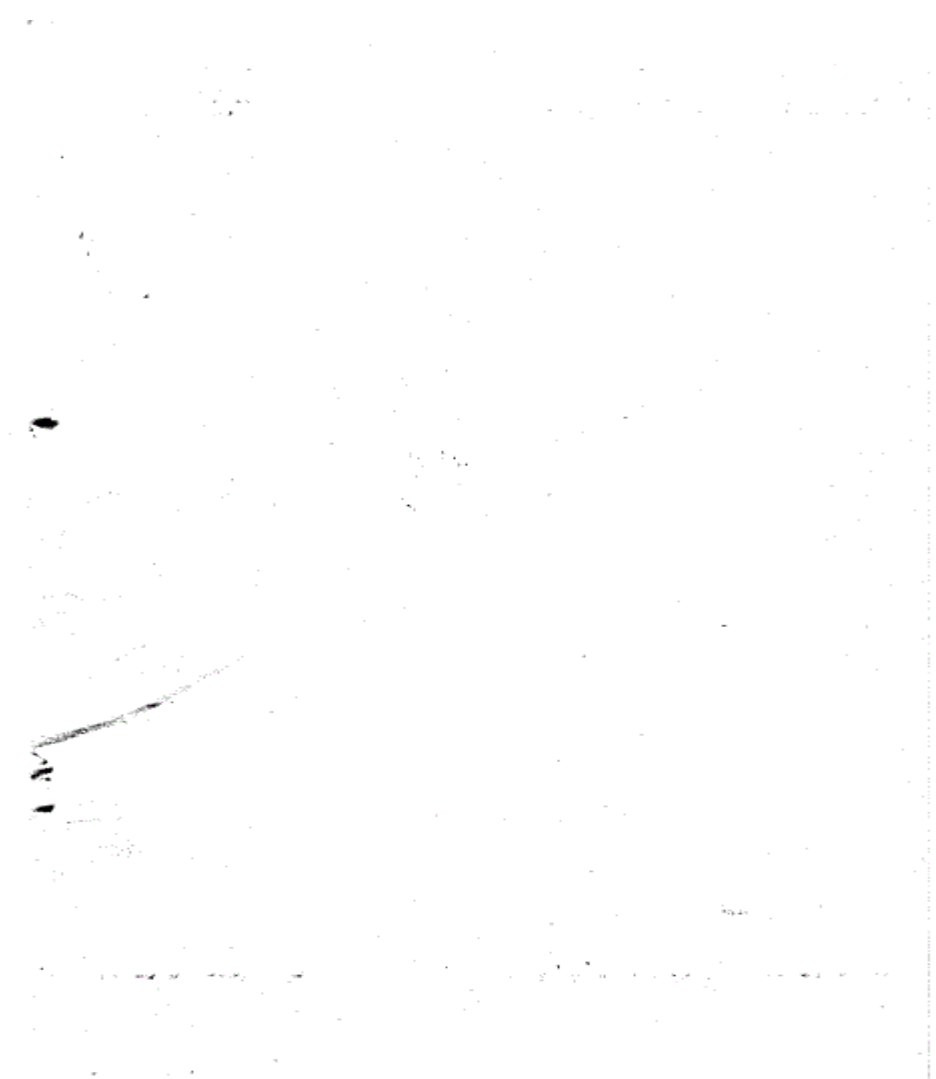
وهكذا حظت الأشعار الذاتية في القرن الرابع الهجري بالصورة الفنية
التي وظفها كل شاعر من شعراء ذلك القرن لتحقيق ذاته • وأبرز
احساساته ومشاعره •

ونكتفي بما أوردناه من أمثلة • ونماذج للصورة الفنية عند بعض شعراء
ذلك القرن الذين يعدون من أئمة الصنعة الفنية فيه •

(١) ديوان الخالدين ص ١٣٥ •

ولا أرى ضرورة ليراد الصور الفنية الزاخرة بالوان التفرز المشيرة للفنان
في اشعار امثال ابن الحجاج وابن سكرة ، وهي على الرغم من شناعتهما
محقة لذاتية اصحابها ، قادرة على التعبير عما يحسونه وما يفكسون
فيه .

الخاتمة



الخاتمة

بعد هذه الدراسة لاتجاهات شعر التعبير عن الذات في القرن الرابع الهجري عند أهم شعراء ذلك القرن ، من أمثال أبي الطيب المتنبى وأبي فراس الحمداني ، والشريف الرضي ، وابن الحجاج ، وابن سكرة الهاشمي ، والخلدبي ، وسهبار الديلمي ، والأخف العكبري ، أولئك الذين اختلفت اتجاهاتهم الذاتية في أشعارهم اختلافا كبيرا وإن كانوا جميعا اقروا ذات طبيعة لمجتمع القرن الرابع الهجري . أقول - بمسند هذه الدراسة لاتجاهات شعر التعبير عن الذات عندهم استطعنا الوصول الى عدة نتائج لعل من أهمها :

أولا : أن مفهوم البطولة عند من استشفعوا الاحساس بالبطولة - من شعراء القرن الرابع الهجري قد اختلف من شاعر الى آخر نتيجة للظروف الحياتية لكل واحد منهم ، تلك الظروف التي اختلفت وتباينت ، فبطولة أبي الطيب تكمن في نضاله المستمر وان كان النضال عنده متعدد الجوانب فتناضل بالسيف والقوة ، وتناضل بالقلم واللسان ، وتناضل الأعاجم ، وتناضل الزمن نفسه ، وتناضل حسادة والحاquدين عليه من معاصريه .

بينما كانت بطولة سيف الدولة تكمن في انتصاراته العديدة على الروم ، فقد عاش وتربى في بيت سيف الدولة الذي حمل على عاتقه عبء قتال الروم وشاهقتهم .

أما بطولة الشريف الرضي فكانت تكمن في احساسه بالانتماء الى بيت كرم ، ونسب شريف هو بيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم

ثانياً - اختلفت كذلك مناحي الانحلال الخلق عند شعراء القرن الرابع الذين اتسموا بالانحلال ، ذلك الانحلال الذي كان نتيجة حتمية لفساد الحياة الاجتماعية آنذاك فوجدت أشعار ابن الحجاج وابن سكرة البهاشي صدمة التفتت لما في أشعارهما من قدروا وسخف وفحش ، ومجون .

في الوقت الذي جسد فيه الواسطي والرباعي الدمشقي العيث واللهو والهزل في أشعارهما الذاتية وجسد الخديان الاثنتان بالتمسك تلك المتعة التي تنوعت أشكالها وأنواعها وتعددت طرقها وأساليبها فاعتنتا بالأدب ديرة وما فيها من خير ، وسكر ، وغيا ، وطرب ، ونساء ، وظلمان . . . الى غير ذلك من ألوان اللذة والمتعة الدنيوية .

ثالثاً - تعددت كذلك أشكال مركبات النقص أو العقد النفسية عند بعض الشعراء في القرن الرابع الهجري ، وإن كانت كلها محصلات طبيعية لظروف الحياة والمجتمع في ذلك القرن فأحس صهارب عقدة الشهوة بوضعه فارسي الأصل يوم رقه دائماً ما أحدثه الغرب بين جنسه حين فتحوا بلادهم ، ونشروا الاسلام فيها ، ودكوا عروش اميراطوريتهم القديمة فظل كل فارسي يحس الكره للعرق والحقد عليهم وإن حاول أن يخفى ذلك . ولكن صهارب لم يخفه بل راح يجاهر به من خلال أشعاره مجسداً مجد الفرس القديم وعزمه التاليد وحاطا من قدر العرب ، وغاضاً من شأنهم أما من خلال شعوبيته أو من خلال تشيعه ، وكلاهما وجهان لعملة واحدة هي عقدت النفس .

وثلما أحس مهباً بمقدته النفسية تلك ، فقد أحس الأحنسف
العكبري ، بمقددة الفقر وأرقته هذه المقددة حين تضخت في نفسه
وتسلكت ذاتة وأطلقت لسانه بالتمبير عنها فجدّها من خلال أشعاره
فكان بذلك شاعر المكدين ولسانهم والمعبّر عن احساساتهم ومشاعرهم
تجاء ما يحسونه من فقر وحاجة .

رابعاً - عند دراسة العناصر الفنية للشعر الذاتي في القرن الرابع
اتضح ما يلي :

١ - أن شعراء ذلك القرن قد التزموا في بناء قصائدهم الذاتية
نهجاً يخالف نهج الجاهليين في بناء قصائدهم ، وذلك يبدو
مهماً طبعها لأنهم قد تأثروا بمن سبقوهم بقرنين من الزمان من
المجددين من شعراء القرن الثاني الهجري من أمثال أبي نواس
ومعاصريه من تلاهم من شعراء القرن الثالث الهجري منهم أقرب
اليهم زمنياً من شعراء الجاهلية . فاستغلوا بدايات قصائدهم
في التمبر الحر عن أنفسهم ومشاعرهم ونوازح حياتهم ، كما أنهم
نظموا شعرهم الذاتي في قصائد مطولات وفي مقطعات صغيرة .

٢ - وظف شعراء القرن الرابع الهجري لغة شعرهم الذاتي لتحقيق
ذاتيتهم والتعبير عن احساساتهم ومشاعرهم ، ونوازح حياتهم
وأثر شعراء المجون منهم اللغة السائدة في المجتمع حتى تصلهم
بجماهير مجتمعهم بطريق مباشر وسريع .

٣ - اعتد شعراء هذا القرن في أعارهم الذاتية على موسيقى
الشعر العربي القديم ، وبحور الخليل بن أحمد ، وقد جاء
شعرهم الذاتي في عشرة من هذه البحور هي : الطويل -

واليسط والكامل ، والواثير ، والسهح ، والخفيف ، والسهح والسهل
والرجز ، والمستقارب ، وأثر شعراء المجون والانحلال الخلق منهم
البحور الغنائية والأوزان السهجة الايقاع لتلائم جو الغناء
والطرب واللهو الذى عاشوا فيه طويلا ، وإلى جانب ذلك فقد
حافظ شعراء ذلك القرن على نظام القافية الواحدة التى تساعد على
استكمال البناء الموسيقى وللشعر وتسهم فى سهولة حفظه وروايته .

٤ - وظف شعراء القرن الرابع صورهم الفنية - كما وظفوا اللغة لتحقيق
ذاتهم والتعبير عن أنفسهم ومشاعرهم وتوازح حياتهم - فجاءت الصور
الفنية مجسدة لذاتية كل شاعر فاختلفت هذه الصور باختلاف
الاتجاهات الذاتية لكل واحد منهم .

وهكذا تلاحم الشكل والمضمون فى الأشعار الذاتية لشعراء القرن
الرابع الهجرى فى تحقيق ذاتية هؤلاء الشعراء وفى التعبير عن
احساساتهم ومشاعرهم .

ومعد ..

فاننى ارجو أن تكون هذه الدراسة قد سدت فراغا فى تاريخ أدبنا
العربى وحسبى أننى ما ضننت بجهد ، ولا بخلت بوقت فان كل كلمة
مواطن اجادة فهى من توفيق الله سبحانه وتعالى ، وتوجيه صاحب الفضل
على هذه الدراسة الأستاذ الدكتور / محمد مصطفى هدارة ، ونصحة
وإرشادة ، وإن كان ثمة مواضع ذلك فمرود ذلك الى النفس ، وما أنسب
الكمال لنفسى ، فالكمال لله واحد .